التربية الإسلامية
وفلاسفتها

تأليف
محمد عطية الابراشي

الطبعة الثالثة
منقحة وبها كثير من الزيادات

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

تهذيب الأخلاق

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

تمهيد عن التربية الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد فلا يستطيع أحد من المربين والمؤرخين أن ينكر أن التربية الإسلامية هى الأساس المتين لحضارة المسلمين ، وأن المثل العليا فى تلك التربية تتفق مع الاتجاهات الحديثة فى عالم التربية اليوم ؛ فقد قدس الإسلام العلم والعلماء ، وسما بالعلم إلى درجة العبادة وعُنى العناية التامة بجميع أنواع التربية ، وخاصة التربية الروحية والدينية والخلقية ، ونادى بالحرية والمساواة وتكافؤ الفرص بين الأغنياء والفقراء فى التعليم ، وقضى على نظام الطبقات ، وفرض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة ، وأعطاها كل وسيلة للتعلم ، إذا وجدت لديهما الرغبة فى العلم والإقبال عليه .

وقد فتحت المساجد والمعاهد ودور العلم ودور الحكمة ، ودور الكتب ، والحلقات الدراسية ، والمنتديات الأدبية والعلمية أمام الطلاب ، للتعلم والدراسة والبحث . وقدمت إليهم الدولة الإسلامية كل ما يحتاجون إليه ، من طعام ومسكن وعلاج ومساعدات مالية لتمكنهم من المعيشة فى الحياة والتفرغ لطلب العلم .

وإننا لا نفخر إذا قلنا : إن مبادئ التربية الحديثة التى نادينا بها فى منتصف القرن العشرين ، ولم تستطع الدول المتمدنة تنفيذها كلها حتى اليوم قد روعيت ونفذت فى التربية الإسلامية ، فى عصورها الذهبية ، قبل أن تخلق التربية الحديثة بمئات السنين .

ومن تلك المبادئ المثالية فى التربية الإسلامية نذكر بإيجاز : التربية الاستقلالية والاعتماد على النفس فى التعلم ، والحرية (والديمقراطية) فى التعليم ، ونظام التعليم الفردى ، ومراعاة الفروق الفردية بين الأطفال فى التعلم والتدريس ، وملاحظة الميول والاستعدادات

الفطرية للمتعلمين ، واختبار ذكائهم ، ومخاطبتهم على قدر عقولهم وحسن معاملتهم ، والرفق بهم ، والعناية بالتربية الخلقية ، وتشجيع الرحلات العلمية ، والاهتمام بالخطابة والمناظرات والتربية اللسانية ، والإكثار من دور الكتب ، وتزويدها بما يمكن من الكتب القيمة والمراجع النادرة ، وتشجيع الطلاب على الانتفاع بما فيها من ذخائر نفيسة ، والمثابرة على الدراسة والبحث والتعليم من المهد إلى اللحد .

ولا تعجب إذا سمعت أن وظيفة المعيد التي تجدها اليوم في الكليات والجامعات كانت متبعة في المعاهد الإسلامية في عصورها الذهبية ؛ فقد كان الأستاذ يختار أحد الأذكياء الفائقين من كبار الطلبة لإعادة ما يلقيه الأستاذ عليهم من الأفكار والعبارات ، والمسائل ؛ كي يسمع منهم من لم يسمع . وبعد أن ينتهي أستاذهم من محاضرته كان الطلبة يجلسون مع المعيد ؛ ليعيد عليهم الآراء التي لم يفهموها، ويشرح لهم الأمور الصعبة التي لم يدركوها ، ويكمل لهم ما فاتهم من الدرس . ولا تعجب إذا سمعت أن نظام الجامعات الشعبية والثقافية مقتبس من التربية الإسلامية ؛ فقد كان طلب العلم لدى المسلمين غير مقيد بشروط استعمارية فولاذية ، وأعمار محددة ، وشهادات معينة ، ودرجات معدودة . وكانت أبواب المساجد والمعاهد الدراسية مفتوحة لجميع الراغبين في العلم والتعلم .

ولكن يؤسفنا أن نقول : إن المؤرخين والأدباء والفقهاء وفلاسفة الإسلام لم يعنوا في القرون الوسطى بالتأليف في التربية الإسلامية العناية التي تستحقها ، في حين أنهم كتبوا وأسهبوا وأجادوا الكتابة عن الحضارة الإسلامية ، والانتصارات الحربية، والشئون الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الإسلام . فقد تقرأ كتابا عن نظام الملك أو صلاح الدين الأيوبي ، فلا تجد إلا قليلا عما أنشأه هذا أو ذاك من المدارس ودور العلم ، أو ما قام به من إصلاحات في التربية والتعليم ، في الوقت الذي تجد فيه كتابة مسهبة عن تاريخ حياة كل منهما ، وأعماله السياسية ، وحروبه العسكرية .

لهذا كله يجد الباحث صعوبة كبيرة إذا أراد أن يكتب عن التربية في الإسلام ، فقد يقرأ كثيرا من الكتب العربية والأدبية والتاريخية والسياسية القديمة فلا يجد فيها إلا فصولا

متفرقة ، وأبوابا محدودة ، ونصائح مبعثرة ، ورسائل معينة تتعلق بالعلم والمتعلم ، أو تتصل من قريب أو بعيد بالتربية والتعليم . وقد يحتاج إلى كثير من المراجع لكتابة أى موضوع من موضوعات التربية الإسلامية .

ومع هذا لا يستطيع أحد أن ينكر أن للعرب والمسلمين كل الفضل على الغرب والغربيين، وأن للعلوم العربية والحضارة الإسلامية أثرا كبيرا فى النهضة الأوربية الحالية ؛ فقد نقل الإغريق ـ وهم اليونانيون القدماء ـ العلوم والثقافة العربية والمدنية الإسلامية ، والفنون الشرقية ، بعد أن ازدهرت وارتفعت ونضجت وأثمرت على أيدى علماء الإسلام وفلاسفته ، إلى أوروبة فى عصورها المظلمة، فى القرون الوسطى. فللعرب والإسلام والشرق قديما كل الفضل فى نشر العلم والثقافة والحضارة والفن فى الغرب وأوروبة الحالية ؛ فقد كان للتربية الإسلامية أكبر الأثر فى النهوض بكل أنواع التربية بما اقتبس منها من المبادئ المثالية فى الدين والأخلاق، ومراعاة النواحى الإنسانية والاجتماعية والتعاونية، كالإخاء والحرية والمساواة والعدالة وتكافؤ الفرص ، والوحدة الروحية بين المسلمين فى الأمة الإسلامية العظيمة . ولا عجب ؛ فعلى هذه الأسس القوية ، والقواعد الذهبية ، أسست التربية الإسلامية فى عصورها الأولى .

وقد راعيت فى تأليف هذا الكتاب المثل العليا التى ينادى بها دائما قائدنا الملهم ورئيسنا المحبوب جمال عبد الناصر .

وأعتقد تمام الاعتقاد أن التربية الإسلامية ستنال ما تستحقه من العناية فى هذا العهد الميمون. وبهذا المجهود المتواضع أرجو أن أكون قد تمت ببعض الواجب نحو الإسلام وآمل أن يجد القارئ فى هذا الكتاب ما يشبع رغبته ، ويفتح سبل البحث أمامه .

والله أسأل أن يعيد للإسلام مجده الماضى ، ومبادئه المثالية، وحضارته الخالدة، إنه سميع مجيب ..

المؤلف

الفصل الأول

التربية عند العرب قبل الإسلام

التربية العربية فى العصر الجاهلى :

كان العرب فى العصر الجاهلى قبل ظهور الإسلام يسكنون فى شبه الجزيرة العربية ، فى الجزء الغربى من قارة آسيا . ولكنهم فى العصر الإسلامى انتشروا فى البلاد والممالك والأقطار التى افتتحوها فى أفريقية وآسيا وأوروبة ، ونشروا الإسلام فيها .

وليس من السهل أن نكتب كتابة مستفيضة عن التربية عند العرب فى العصر الجاهلى قبل الإسلام ؛ لأن تاريخهم غامض فى ذلك العصر ، ولم يحاول المؤرخون الكتابة فيه لخفائه وغموضه وقلة المراجع فيه . فلا عجب إذا وجد المربون صعوبة فى الكتابة عن التربية لدى العرب قديما . ولكن ذلك لن يمنعنا أن نكتب بإيجاز عن الطريقة التى كان العرب الجاهليون يتبعونها فى تربية أبنائهم وبناتهم .

العرب قسمان : بدو وحضر :

العرب قسمان : بدو وحضر ، فالبدو منهم يختلفون عن الحضر ؛ لأن البدو قوم متنقلون رحالون من مكان إلى آخر ، ويقيمون حيث يطيب لهم العيش فى بيوت مصنوعة من الشعر ، ويعتمدون فى معيشتهم على مالديهم من الإبل والغنم والمعز ، فيشربون ألبانها ، ويأكلون لحومها ، وينزلون أوبار الإبل ، وأصواف الغنم ، وشعر المعز ، وينسجون منها أثاثهم وفرشهم ومتاعهم ، ويتخيرون السهول التى يجدون فيها عيون المياه ، (كالواحات) حيث تكثر أشجار النخيل والأعشاب ، ويزرع الشعير وأشجار الزيتون والبرتقال ، ويعيشون فى الهواء الطلق ، فى الخلاء ، متمتعين بالحرية ، والمناظر الطبيعية ، وجمال الطبيعة ، ولا يحبون المعيشة فى المدن كأبناء عمومتهم الذين يسكنون الحضر ، ويعيشون معيشة مدنية ، ويتمتعون بما يتمتع به سكان المدن ، فى بيوتهم ، لا يختلفون عنهم فى طعامهم وشرابهم ، ونظم حياتهم .

وكان للعرب من أهل الحضر ملوك وأمراء عرفوا بالشجاعة والإقدام، فتحوا البلاد، وانتشروا في الأقطار، وتنقلوا من قطر إلى قطر، وعاشوا في المدن التي توغلوا فيها، وكان لديهم قوانين وشرائع يتبعونها، ويخضعون لها، ويعملون بها. ولهم علوم وآداب وفنون تدل عليها كتبهم، ومدارس ومعاهد لتربية أولادهم وتعليمهم.

وكانت التربية العربية عند سكان البادية في الجاهلية مختلفة عن التربية لدى أهل الحضر في وسائلها وأغراضها، ونظمها وطرقها. وسنتكلم عن كل منها.

التربية في العصر الجاهلي عند عرب البادية

أغراضها :

كانت التربية عند العرب في البادية فطرية، تميل إلى التربية الطبيعية، وتعد أطفالهم لكسب معيشتهم، والحصول على مايكفيهم لحفظ حياتهم. فالطفل العربي كان يحاكي أباه في أقواله وأفعاله وعاداته وتقاليده، ويسير في الطريق التي سار فيها أبوه ليكسب معيشته، ويلبس كما يلبس، ويعيش في خيام كما يعيش، ويميل إلى الحياة الحرة في الخلاء، ويتمرن على الحراسة ليلا، وصد الأعداء، وقتل الوحوش التي تقترب من مساكنهم.

والطفلة العربية تقلد أمها في تصرفاتها وأعمالها، فتحلب معها الماشية، وتطحن الحب بالرحى، وتعد الطعام على الطريقة البدوية، وتصحبها في رعى الغنم، وتشاركها في كل عمل تقوم به، من الصباح إلى المساء.

وبهذه الوسيلة تجد أطفال العرب يربون تربية استقلالية طبيعية، يعتمدون فيها على أنفسهم، ولا يتكلون على غيرهم. يحبون حياة الحرية، بعيدين عن المدنية، ويحيون حياة فطرية، يتمتعون فيها بالشمس حين تشرق، وجمالها حين تغرب، والسماء الصافية، والجو الجميل.

ولم ينس العرب من البدو في الجاهلية أن يبثوا الأخلاق العربية، والعادات الحسنة في نفوس أبنائهم وبناتهم من الصغر، كالكرم، والمروءة، والشجاعة، والنجدة،

والغيرة ، والدفاع عن الشرف ، والوفاء ، وغيرها من الأخلاق الكريمة التى عرف بها العرب بين الشعوب .

وسائل التربية عند العرب [illegible] :

كانت الأسرة[١] والعشيرة[٢] والقبيلة هى الوسيلة الأولى لتربية الأطفال من العرب . فالمثل الأسمى أمامهم ما يرونه وما يسمعونه وما يلحظونه فى أسرتهم وعشيرتهم وقبيلتهم التى ينتسبون إليها ، والتى تربط بينهم بروابط القرابة والصلة والنسب . فمنها يتعلمون مايفعلون وهم صغار ، وما يقومون به وهم كبار . ويعتادون الثقة بالنفس ، وعمل كل ما يستطيعون بأنفسهم . ويتدربون على طرق الدفاع إذا اعتدى عليهم أحد ، وكيف يغيرون ويهجمون على أعدائهم . ويتمرنون على الصيد والقنص ، وتربية المواشى ، وخاصة الإبل والغنم والمعز ، وغزل صوفها ، ودبغ جلودها ، وصنع الآلات الحربية الأولية ، كالسيوف ، والخناجر ، والسهام ، والأقواس ، والرمى بالنبال. وقد اشتهروا بالفروسية وركوب الخيل ، وتربيتها .

وكان الغلمان يتخلقون بأخلاق آبائهم وأجدادهم وأبطال قبيلتهم ، تلك الأخلاق العربية الكريمة التى اشتهر بها العرب بين الأمم .

وبالتجارب وقوة الملاحظة ؛ وبعد النظر ، ومحاكاة جيرانهم من الأمم تبحروا فى الفلك أو علم النجوم ، وعلم وصف الأرض ، وعلم الطب ، وأظهروا نبوغا لا مثيل له فى الشعر والخطابة ، وعلم الأنساب ، وأبدوا مهارة فى علوم الكهانة[٣] والعيافة[٤] والقيافة[٥] والزجر[٦] والفراسة[٧] ، بدون دراسة فى مدارس ، أو اطلاع على كتب ؛ لأن معظمهم كانوا أميين ، لا يقرءون ولا يكتبون . وقد عرفوا بقوة الذاكرة والحافظة ، يحفظون كثيرا من الأشعار والخطب ، ويروونها عمن سبقهم من الشعراء والخطباء والرواة ، ويرويها من يخلفهم بالسماع والتلقين والإصغاء إلى غيرهم .

---

(١) أسرة الرجل : رهطه ؛ لأنه يتقوى بهم . (٢) العشيرة : القبيلة . (٣) الكهانة : التكهن .
(٤) العيافة : زجر الطيور ، والاعتبار بأسمائها ومساقطها فتتفاءل أو تتشاءم . (٥) معرفة الآثار وتتبعها . (٦) نوع من التكهن . (٧) بعد النظر .

كيف كان البدو من العرب يربون أولادهم ؟

لم يكن للبدو من العرب فى الجاهلية طرق محدودة ، وأساليب معينة لتربية أولادهم وتهذيبهم ، ولكن الغلمان كانوا يحاكون آباءهم وأجدادهم ، والفتيات يحاكين أمهاتهن وجداتهن فى الأخلاق والآداب والسلوك والأقوال والأفعال . وكانوا ينتفعون بما يسمعونه من أقاربهم ورؤساء قبائلهم من المواعظ والإرشادات والحكم . وما يلقى عليهم من الشعر العربى ، ويدركونه من الآراء والأفكار والخيالات التى يتضمنها شعر الشعراء .

وكان الشبان يتأثرون بعادات آبائهم وعشيرتهم وتقاليدهم فى السفر والإقامة ، والسلم والحرب ، والمعيشة والملابس ، والطعام والشراب ، والفرح والحزن ، والجد والهزل ، وفى كل ناحية من نواحى الحياة ، ويحاكونهم فى تصرفاتهم وأعمالهم ، ويجعلونهم قدوة لهم ، يقلدونهم ويقتدون بهم ، حتى يصيروا مثلهم بالمحاكاة والتقليد .

وكان الأب يجمع أولاده ، ويسدى إليهم ما يراه من النصائح والإرشادات التى تنير أمامهم سبل الحياة والعمل ، ويرشدهم إلى الطريق المستقيم ، ويوضح لهم الصواب والخطأ ، والحسن والقبيح من العادات والأخلاق ، ويذكر لهم ما مرّ به من التجارب فى الحياة .

وكان الأعمام والأخوال والإخوة الكبار لا يدخرون وسعا فى تأديب الأطفال والغلمان والشبان من أبناء القبيلة والعشيرة .

وللأم البدوية كل الأثر فى تربية أبنائها وبناتها تربية عربية من الطفولة . انظر إلى تلك الوصية التى زودت بها الأم الأعرابية ابنها حينما أراد السفر ، حيث قالت :

« أى بُنىَّ ، اجلسْ أَمْنَحْكَ وصيتى وبالله توفيقُك ، فإن الوصية أجدَى(١) عليك من كثير عقلك . أى بنىَّ ، إياكَ والنميمةَ(٢) ، فإنها تزرع الضَّغينة(٣) ، وتفرق بين المحبين . إياكَ والتعرضَ للعيوب فتتَّخذَ غرَضاً(٤) ، وخليق ألَّا يثبت الغرض على كثرة السهام . وقلما اعتورَتْ(٥) السِّهامُ غرَضاً إلا كَلَمَتْه(٦) ، حتى يَهِىَ(٧) ما اشتدَّ من قوته . وإياكَ والجودَ

---

(١) أكثر نفعا وفائدة . (٢) التحدث ضد غيرك وهو غائب . (٣) الحقد .
(٤) هدفاً يرمى فيه . (٥) اعتوروا الشىء : تداولوه فيما بينهم . (٦) جرحته وحطمته ، والكلم : الجراحة . (٧) يضعف .

بدينك ، والبخل بمالك . وإذا هززتَ فاهززْ كريماً يلِنْ لهزَّتك ، ولا تهزز اللئيم؛ فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها . ومثّل لنفسك مثالَ ما استحسنتَ من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فإن المرء لا يرى عيبَ نفسه[1] » .

انظر إلى تلك الوصية تجدها مملوءة بالنصائح الثمينة والحكم البالغة، والعظات المثمرة، التي تخرج من قلب الأم إلى قلب ابنها ، فتؤثر فيه تأثيرا حسنا ، وتنير له الطريق قبل سفره ؛ كي ينجح في عمله . فهي توصيه بتجنب النميمة ، والبعد عن ذكر عيوب الناس . وتنصح له بالتمسك بدينه ، والمحافظة عليه ، وتحذره من البخل بماله ، والتقتير على نفسه وغيره ، وترشده إلى الاتصال بالكرام ، والبعد عن اللئام ، ووضع نفسه موضع غيره ، فيعمل بما يستحسنه من الناس ، ويجتنب ما يستقبحه منهم ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يرى عيوب نفسه .

وقالت أعرابية أخرى توصي ابنها :

« يا بُنيّ ؛ إن سؤالكَ الناسَ ما في أيديهم من أشدّ الافتقارِ إليهم ، ومَن افتقرتَ إليه هُنْتَ عليه . ولا تزالُ تُحفَظُ وتُكرَمُ ، حتّى تسألَ وترغبَ . فإذا ألحّت عليكَ الحاجةُ ، ولزِمكَ سوءُ الحال ، فاجعلْ سؤالك إلى مَن إليه حاجةُ السائلِ والمسئولِ ، فإنه يُعطي السائلَ[2] » .

وفي هذه الوصية تبث الأم العربية في ابنها عزة النفس ، والمحافظة على الكرامة ، وتقول له : « لا تزال تُحفظ وتُكرم حتى تسألَ وترغبَ » . فإذا سألت الناس ، وافتقرتَ إليهم احتقروك بعد أن كنت عزيزا مكرّما . فإذا اشتدت بك الحاجة ، فلا تسأل إلا الله وحده ، فهو المعطي ، وهو الكريم .

---

(١) ارجع إلى الجزء الثاني ، من كتاب الأمالي ، لأبي على القالي صفحة ٨١ .

(٢) ارجع إلى العقد الفريد جـ ٢ ، ص ٨٥ .

كلام أعرابيّ لابن عمه :

وشاورَ أعرابيٌّ ابنَ عم له ، فأشار عليه برأى ، فقال :

قد قلتَ بما يقول به الناصحُ الشفيق الذى يخلط حُلوَ كلامه بمُرِّه ، وحَزْنَه(١) بسهله ، ويحرِّكُ الإشفاقُ(٢) منه ما هو ساكنٌ من غيره . وقد وَعَيتُ النصحَ منه وقبلته ، إذ كان مصدرُه من عند مَن لا شكّ فى مودّته ، وصافِى غيبه . وما زلتَ بحمدِ الله إلى الخير مَنهجًا واضحا ، وطريقا مَهْيَعا(٣) . (الأمالى ٢ : ٨٢)

فالإخلاص متى تحقق فى النصيحة ، خرجت النصيحة من القلب إلى القلب ، وكان لها كل الأثر فيمن تنصح له ، وترشده .

وقد وعظ أعرابىّ أخًا له أفسدَ مالَه فى الشراب ، فقال :

لا الدهرُ يعظك ، ولا الأيامُ تُنذرُك ، ولا الشَّيبُ يزجُرُك ، والساعاتُ تُحصَى عليك ، والأنفاس تُعَدّ منك ، والمَنايا تُقادُ إليك ، أحبُّ الأمور إليك ، أعْودُها بالمَضرّة عليك .

الأوس بن حارثة ينصح لابنه :

وقيل : عاش الأوسُ بنُ حارثة دهرا وليس له ولدٌ إلا مالكٌ . وكان لأخيه الخزرج خمسةٌ ... فلما حضره الموتُ قال له قومُه : قد كنا نأمرُك بالتزويج فى شبابك ، فلم تتزوجْ حتى حَضرك الموت ، فقال الأوسُ : « لم يَهلِكْ(٤) هالكٌ تركَ مثلَ مالك . . . » ثم نصح لابنه : يا مالكُ ، المنيّة(٥) ولا الدنيّة ، والعتابَ قبل العقاب . والتجلّدَ لا التبلّدَ ، واعلم أن القبرَ خيرٌ من الفقر ، وشرُّ شاربٍ المُشْتَفُّ(٦) ، وأقبحَ طاعمٍ المُقتَفُّ(٧) ، وذهاب البصرِ خيرٌ

---

(١) الحزن : الصعب ، وما غلظ من الأرض . (٢) أشفق منه : حذره واحترس منه .

(٣) طريق مَهْيَع : بيّن واضح . (٤) لم يمت ميت . (٥) المنية : الموت .

(٦) المشتف : المستقصى للشراب . (٧) المقتف : المسرع فى الطعام .

من كثير من النظر ، ومن كرم الكريم الدفاعُ عن الحريم . ومن قلَّ ذلَّ . . . وخيرُ الغِنَى القناعة ، وشرُّ الفقرِ الضَّراعةُ ، والدهرُ يومانِ : فيومٌ لك ويومٌ عليكَ . فإذا كانَ لكَ فلا تبطَرْ ، وإذا كان عليك فاصبرْ ، فكلاهما سينحَسِرُ(١) . ولو كان الموتُ يُشترى لسلِمَ منه أهلُ الدنيا ، ولكنَّ الناس فيه مُستوُونَ ، الشريفُ . . . والأشيمُ . . . وكيف بالسلامة ، لمن ليست له إقامة ؟ وشرٌّ من المصيبة سوءُ الخَلَفِ . وكلٌّ مجموع إلى تلفٍ . حَيَّاكَ إلهكَ » .

فنشرَ الله من مالك بعدد بني الخزرج أو نحوهم .

وإذا نظرنا إلى هذه الوصية وجدنا بها كثيرا من النصائح الثمينة ، والحِكَم البالغة ، فهو يوصيه بترك الدنىء من الأفعال ، والعتاب قبل العقاب ، والتحلى بالصبر ، وعزة النفس ، والقناعة ، والنظر إلى الحلال ، والدفاع عن العرض ، وعدم التذلل ، وعدم الاغترار بالدنيا ، فإنها إلى زوال . . .

معاهد التربية العالية عند البدو من العرب فى الجاهلية :

كان العرب فى الجاهلية يعيشون معيشة بداوة ، كلها بساطة وسذاجة ، تميل إلى الحياة الفطرية الطبيعية ، البعيدة عن عُقد الحضارة والمدنية . وبالمحاكاة كان الصبى يتعلم الأعمال التى تتطلبها الحياة ، من آبائه وأهله أقاربه .

وقد كان للعرب فى الجاهلية أسواق ومجالس أدبيـــة تشبه المنتديات العلمية والمجامع اللغوية فى وقتنا هذا . والأسواق أمكنة يجتمع فيها الناس من كل جهة ، فى أوقات محددة ، للبيع والشراء ، وتبادل الآراء . وكان العرب يحضرون تلك الأسواق بما لديهم من شعر ينشدونه ، وقصائد يلقونها ، وخطب يتبادلونها ، أمام قضاة من الشعراء والأدباء ، المعروفين بسمو الذوق الأدبى فى نقد الشعر والنثر ، وبيان القبيح من الحسن ، والغث(٢) من السمين . فكانت الأسواق الأدبية تعد خير وسيلة للنهوض باللغة وتهذيبها ، وترقية

(١) سينحسر : سينكشف . (٢) الهزيل .

الأفكار ، وشحذ الأذهان ، فلا عجب إذا قلنا إن تلك الأسواق كانت بمثابة المعاهد العليا للتربية الأدبية ، لدى العرب فى الجاهلية .

ومن الأسواق الشهيرة : سوق عكاظ ، بالقرب من الطائف .

وسوق مَجَنَّة : بالقرب من مكة المشرفة .

وذو المجاز : بالقرب من عرفة على بعد فرسخ منها .

وهذه الأسواق العربية تشبه معاهد التربية البدنية الإغريقية التى كان اليونان القدماء يجتمعون فيها للألعاب الرياضية ، ويحضرها الفلاسفة والأدباء والعلماء منهم ، للبحث والمناظرة ، والجدل والمناقشة .

وهكذا كان العرب يجتمعون فى أسواقهم فى الجاهلية لاستماع شعرائهم ، وخطبائهم ، وأدبائهم ، والتمتع بكل جديد فى الشعر والنثر ، وتبادل الآراء والأفكار ، وبيع ما لديهم ، وشراء ما يحتاجون إليه .

أما المجالس الأدبية فكانت تسمى الأندية الأدبية ، وفيها يتبادلون الأخبار والأفكار ، وينشدون الأشعار العربية ، ويفكرون فى شئونهم ومصالحهم العامة ، ومن تلك الأندية والمجالس نادى قريش .

المرأة العربية البدوية فى العصر الجاهلى :

كان للمرأة العربية البدوية فى العصر الجاهلى منزلة كبيرة . ومكانة عظيمة . عرفت بأخلاقها الكريمة ، وصفاتها النبيلة ، وآدابها العالية ، وذكائها الوافر ، وعقلها الراجح ، وذهنها الصافى ، وبديهتها الحاضرة ، ورأيها السديد ، وفكرها الصائب ، وخيالها الجميل لهذا كانت مكرمة ، مبجلة ، موضع إكرام وإجلال . يستشيرُها الرجل فيما يلم به من مشكلات ، ويأخذ برأيها فى الشدائد والملمات . وكان الآباء يتركون لها الحرية فى اختيار زوجها ، ويستشيرونها فى شئون زواجها ، ويعملون برأيها ، ويخضعون لرغبتها .

حظ المرأة العربية البدوية من التربية فى الجاهلية :

قد تعجب إذا قلنا : قد كان للمرأة العربية فى الجاهلية حظ كبير من التربية ؛ فقد كانت تقول الشعر وتنقده ، وتجيد الخطابة ، وتروى كثيرا من القصائد والخطب ، وتتقن الأعمال والفنون التى يحسنها الرجل ويجيدها . يضاف إلى ذلك مهارتها فى تدبير المنزل ، وإعداد الطعام على الطريقة العربية ، ورعى الماشية ، وهَنْء[1] الإبل ، ونسج الصوف وغزله ، والعزف الموسيقى على المزاهر[2] والدفوف[3] والطبول .

وإذا أردت أن تعرف كيف كانت النساء شاعرات مجيدات ؛ فارجع إلى ما قالته عمات النبى صلى الله عليه وسلم فى رثاء أبيهن عبد المطلب بعد وفاته ، فى كتاب السيرة لابن هشام ، تجد الإحساس النبيل ، والشعر الرائع ، واللغة المؤثرة ، والسليقة الشعرية[4] .

وكانت تعرف كيف تأسو[5] الجروح ، وتعالجها ، وتداويها فى أثناء الحروب ، كما تفعل الممرضات فى الهلال الأحمر ، والصليب الأحمر . ولتشجيع الرجال فى الحرب كانت النساء يصحبن الرجال ، وقت القتال ، لبعث الحمِيَّة فى قلوبهم ، ويتبعنهم فى أثناء القتال خطوة خطوة .

والأم العربية البدوية كانت تُعِد ابنتها لتكون زوجة مخلصة لزوجها ، تعرف ما له من حقوق فتؤديها ، وتحافظ عليها ، وتحسن فى المستقبل تربية أولادها ، وتهذيبهم . وفى الوقت الذى تتزوج فيه ابنتها تفهِّمها ليلة قرانها ما يجب عليها لزوجها ، وتنصح لها نصائح ثمينة تساعدها فى أن تكون زوجة مثالية ، وأمًّا صالحة .

---

(١) هَنَأَ الإبلَ : طلاها بالقطران ، والاسم : الهِنْء بالكسر .

(٢) جمع مِزْهَر بالكسر ، وهو العود الذى يُضْرَب به .

(٣) الدف . بالضم : الذى ضرب به ، والفتح لغة فيه . وهو أداة من أدوات الموسيقا .

(٤) لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانى سنوات توفى جده عبد المطلب ، وذلك بعد عام الفيل بثمانى سنوات . وقد رثته بناته الست بعد وفاته بقصائد تدل على ذوق النساء العربيات ووفائهن ، وهن ست سيدات : صفية ، وبرة ، وعاتكة ، وأم حكيم البيضاء ، وأميمة ، وأروى . (سيرة ابن هشام ج ١ ، ص ١٦٩ طبعة الحلبى) .

(٥) أَسَوْتُ الجُرحَ : داويْتُه . والآسِى : الطبيب ، والجمع أُساة : أطباء .

وسنذكر لك هنا وصية أمّ لابنتها ليلة زفافها ، لترى كيف كانت الأم العربية .

وصيةُ أمامةَ بنت الحارث لابنتها أم إياس :

لما حُملت إلى زوجها قالت لها أمها أُمامة بنت الحارث :

أيْ بُنيَّةُ ، إن الوصيةَ لو تُركَت لفضلِ أدبٍ تُركَتْ لذلك منك ، ولكنها تذكرةٌ للغافل ، ومَعونة للعاقل . ولو أن امرأة استغنت عن الزوجِ لِغنى أبوَيْها ، وشدة حاجتهما إليها ، كنتِ أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجالِ خُلقْن ، ولهنَّ خُلِق الرجال .

أي بُنيَّة ، إنك فارقتِ الجوَّ الذى منه خرجتِ ، وخلَّفتِ العُشَّ الذى فيه درجْتِ ، إلى وَكرٍ لم تعرفيه ، وقرينٍ لم تألفيه ، فأصبحَ بملكه(١) عليكِ رقيباً ومَليكاً . فكوني له أَمَةً يكُنْ لك عبداً وَشيكاً(٢) .

يا بنيَّةُ ، احملي عني عشرَ خصالٍ تكنْ لك ذُخْراً وذِكراً ، الصحبة بالقناعة ، والمعاشرةُ بحسنِ السمعِ والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه ، فلا تقع عينُه منكِ على قبيح . ولا يشم منكِ إلا أطيبَ ريح . والكحل أحسن الحُسن . والماء أطيب الطِّيبِ المفقود . والتعهد لوقتِ طعامه ، والهدُوُّ عنه عند منامه ؛ فإن حرارة الجوع مَلهبَة(٣) ، وتنغيص النوم مَغضَبة(٤) ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وحَشَمه(٥) وعياله ؛ فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحَشَم جميلُ حسنُ التدبير . ولا تفشي له سِرًّا ، ولا تَعصِي له أمراً . فإنك إن أفشيتِ سرَّه ، لم تأمَني غدرَه ، وإن عَصَيتِ أمرَه ، أوْغرْتِ صدرَه ، ثم اتَّقِي منه ذلك الفرحَ إن كان ترِحًا(٦) ، والاكتئابَ عنده إن كان فرِحًا ؛ فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير . وكوني أشدَّ ما تكونينَ له إعظاماً ، يكنْ أشدَّ ما يكون لكِ إكراماً ، وأشدَّ ما تكونين له موافقةً

---

(١) أملكه إياها : زوجه ، فملكها ملكا ، مثلث الميم . (٢) وشيكاً : سريعا ، أى يكن لك عبدا سريع الإجابة . (٣) تؤدى إلى شدة التأثر . (٤) يؤدى إلى الغضب . (٥) خدمه .

(٦) ترِحَ كطرب : ضد فرح . والترَح : ضد الفرح .

يَكُنْ أطْوَلَ ما تَـكونين له مُرافَقة . واعلمى أنكِ لا تصِلين إلى ما تحبين ، حتى تؤثِرى رضاهُ على رضاكِ ، وهواهُ على هواكِ فيما أحببتِ وكَرِهْتِ ، واللهُ يَخِيرُ لكِ[1] .

وإن نظرة سريعة إلى هذه الوصية من الأم إلى ابنتها عند زواجها ، ترينا ذكاء الأم العربية ، وذوقها الجميل ، ونظرها الصائب ، وحكمتها البالغة ، وتجربتها الرائعة ، ولغتها العذبة ، فهى توصيها وصايا تضمن لها الحب والوفاء ، والإخلاص والإكرام من زوجها ، والسعادة والهناءة فى حياتها الزوجية . توصيها بالقناعة ، وحسن السمع والطاعة ، ومراعاة شعوره وإحساسه، والمحافظة على مواعيد الطعام والشراب ، وتوفير أسباب الهدوء والراحة له فى بيته، حتى لا يزعج فى أثناء نومه. ونصحت لها بتنظيم حياته ، والمحافظة على ماله ، ورعاية خدمه وحشمه ، وألا تفشى له سرًّا، ولا تعصى له أمرًا، وأن تشاركه فى مسراته وأحزانه، وسعادته وشقائه ، وصحته ومرضه ، وأن تحترمه وتُبجله ، وتوافقه ولا تعانده فيما يرى من آراء ، وأن تعمل على إرضائه ، وتضحى بكل شىء فى سبيله ؛ لتكون الزوجة المثـالية ، ويكون الزوج الوفى ، والشريك المثالى ، والمحب المخلص لها إلى الأبد .

وأعتقد أن الأم المتمدنة فى عصرنا هذا ، الحاصلة على أعلى قسط من الثقافة والعلم ـ لا تستطيع أن تنصح لابنتها ليلة زواجها ،بنصيحة ثمينة، كنصيحة هذه الأم العربية لابنتها.

وصية أسماء بنت خارجة لابنتها عند التزوج :

وروى أن أسماء بنت خارجة الفزارى قالت لابنتها عند التزوج : إنك خرجتِ من العُش الذى فيه دَرَجت[2] ، فصرت إلى فراش لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أرضاً يكن لك سماء . وكونى له مهادًا يكُن لكِ عِمادا . وكونى له أمَةً يكن لك عبدًا . لا تُلحِفى[3] به فيَقلاكِ[4] . ولا تباعدى عنه فينساك . إن دنا منك فاقربى منه . وإن نأى فابعدى عنه . واحفظى أنفه وسمعه وعينهفلا يَشمَّنَّ منك إلا طيبا، ولا يسمع إلا حسَنا،ولا ينظر إلا جميلا.

---

(١) مجمع الأمثال لأبى الفضل الميدانى ٢ : ١٤٣ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ٣ : ٢٢٣ .

(٢) نشأتِ ، وتربّيْتِ . (٣) لا تُلِحِّى . (٤) فيبغضك .

فقى هذه الوصية الموجزة تلمس الذوق الجميل ، والأدب الرفيع ، والحكمة البالغة ، والرأى السديد ، والنصيحة الثمينة .

ولا يمكننا أن ننكر أن بعض القبائل العربية كانت تعامل المرأة فى الجاهلية معاملة كلها قسوة وفظاظة وغلظة تنفر منها الإنسانية والأخلاق ؛ فقد وصمت بسبى النساء ، ووأد البنات .

أما سبى النساء فقد كان من عادة العرب إذا حاربوا أعداءهم جعلوا النساء خلف الصفوف الحربية ؛ لتشجيعهم فى القتال ، وحثهم على الثبات والصبر والإقدام ، وتضميد الجرحى ، وتقديم الذخيرة ، وإصلاح السهام والحراب والنبال . وقد ينتصر العدو عليهم ويهزمهم ، فيخترق صفوفهم ، ويستمر فى هجومه حتى يقبض على نسائهم ، ويجعلهن سبايا لديه ، ويأخذهن إلى بيته ، فيتحكم فيهن ، ويسيطر عليهن ، ليجعل المغلوب ذليلا ، ويلصق العار به .

وأما وأد البنات وهن على قيد الحيـــاة ، فقد كان العربى البدوى إذا ولدت له بنت ظهر الحزن والغم على وجهه ، وأضمر لها الشر ، وعزم فى نفسه على قتلها والتخلص منها خوفا من العار ، وخشية من الفقر ، حتى إذا كبرت ، ذهب إلى الصحراء ، وحفر لها بئرا ، وعاد إلى أمها ، وطلب منها أن تلبسها أحسن ملابسها ، وتلقى عليها بعض الروائح الطيبة ، مدعيا أنه سيأخذها لتزور بعض أقاربها . فبعد أن تجهزها أمها يخرج بها ، ويسير بها حتى يصل إلى البئر التى أعدها ليدفنها فيها ، ثم يقول لها : انظرى فى البئر ، فتنظر ، فيدفعها بيده من الخلف ، فتسقط فى الحفرة ، فيهيل عليها التراب ، فتموت المسكينة على يد أبيها المتوحش بلا رأفة ولا رحمة ، ثم يرجع إلى خيمته حزينا كئيبا ، للمنكر الذى ارتكبه ، والجريمة التى اقترفها .

بلاغة المرأة العربية المسلمة :

مات الأحنف بن قيس بالكوفة ، فقال قوم : مات سرُّ العرب .

فلما دفن قامت امرأة على قبره فقالت : لله دَرُّك[١] من مِجَنٍّ[٢] فى جَنَن ، ومُدرج فى كَفَن[٣] . نسأل الذى فجعنا بموتك ، وابتلانا بفقدك ، أن يجعل سبيل الخير سبيلك ، ودليل الرشد دليلك ، وأن يوسع لك فى قبرك ، ويغفر لك يوم حشرك ، فوالله لقد كنت فى المحافل شريفا ، وعلى الأرامل عطوفا . ولقد كنتَ فى الحىِّ مُسَوَّدًا ، وإلى الخليفة مُوفَدًا . ولقد كانوا لقولك مستمعين ، ولرأيك متَّبعين .

ثم أقبلَت على الناس فقالت : ألَا إن أولياء الله فى بلاده ، شهودُ عباده . وإنى لقائلة حقًّا ، ومُثنيَة صدقا ، وهو أهل لحسن الثناء ، وطيب البقاء . أمَا والذى كنت من أجله فى عدة ، ومن الحياء إلى مدة ، ومن المقدار إلى غاية ، ومن الآثار إلى نهاية ، الذى رفع عملك ، لما قضى أجلك ، لقد عشت حميدًا مودودًا ، ومتَّ سعيدًا مفقودًا .

ثم انصرفت وهى تقول :

إن كان دَهر فيك جَدَّ لَنا ... حدثًا به وهنت قُوى الصبر
فلكم يدٍ[٤] أسديتَها[٥] ويدٍ ... كانت تردُّ جرائرَ[٦] الدهر

ثم انصرفت فسئل عنها ، فإذا هى امرأته ، وابنة عمه .

هذا مثل لبلاغة المرأة العربية المسلمة ، ووفائها ، وإخلاصها لزوجها .

التربية عند عرب الحضَر فى الجاهلية :

كان للعرب المتحضرين فى الجاهلية مدنية وحضارة ، ورقىّ ، ومدارس للتربية والتعليم ، وكانوا متفرقين فى أمم كثيرة ، لهم ملوك من العرب ، وقصور عالية ، يقيمون فيها ، وقلاع يدافعون منها عن أنفسهم .

(١) لله دَرُّك : لله عملُك ، وهى كلمة تقال لمن يتعجب منه . (٢) المِجَنُّ : التُّرسُ .
(٣) القبر والميت والكفن . (٤) نعمة . (٥) أعطيتها وقدمتها .
(٦) جمع جريرة وهى الجناية .

وكانت تلك الأمم العربية المتمدنة متشابهة فى معيشتها ، ونظم تعليمها ، ووسائل تربيتها . لهذا نكتفى بالتكلم عن التربية فى العراق فى العصر الجاهلى ، مثلا للتربية عند المتمدنين من العرب . وكان يسكنها دولة العمالقة ، وهى الدولة البابلية الأولى ، أو الدولة الحمورابية ، نسبة إلى (حَمُورَابى) الملك المشهور . ويرى المؤرخون أنها دولة عربية صميمة .

وكان (حمورابى) الملك السادس من ملوك العمالقة فى العراق قبل الميلاد . وقد بلغت تلك الدولة فى عهده درجة كبيرة من المدنية والرقى والحضارة . وله قوانين وشرائع باسمه ، وفتح بابل ، وحارب الآشوريين ، وانتصر عليهم ، وجعل بلادهم خاضعة له ، مطيعة لحكمه .

وكان للنساء لدى عمالقة العراق مكانة كبيرة ، ومنزلة عظيمة . فقد تمتعن بالحرية والاستقلال ، وساوين الرجال فى الحقوق ، واشتركن معهم فى الزراعة والصناعة والتجارة ، واشتغلن بالكتابة والعمل فى الدواوين . وكان الزوج يجل زوجته كل الإجلال ، ويحترمها كل الاحترام .

أغراض التربية عند عمالقة العراق :

كانت التربية لديهم عملية ، الغرض منها إعداد الشبان للمهن والصناعات ، فكانو يميلون إلى الطب والهندسة العملية والرياضة وعلم الفلك ، والعلوم الطبيعية ، وعلم اللاهوت ، وفن العمارة والنقش والتصوير والنجارة وغيرها من المهن العملية التى تساعد الشباب فى كسب عيشه ، ورزقه ، حتى يعيش عيشة راضية مربحة .

وانصرفوا عن دراسة الأدب لذات الأدب ، والعلم لذات العلم ، والفن لذات الفن .

أنواع المدارس والمعاهد :

كان لديهم مدارس ابتدائية منتشرة فى البلاد لتعليم الأطفال ، يدرسون فيها التهجى والمطالعة والتعليم الدينى والحساب ، وقواعد اللغة العربية ، والتاريخ .

ومدارس ومعاهد عالية متصلة بمعابدهم لتعليم الكبار . وكانت دور الكتب تشجع الطلبة الراغبين فى التزود من العلم والأدب ـ على القراءة والاطلاع .

وكان المعلمون فى المدارس الابتدائية كثيرين ، والمعلمون فى المعاهد العليا من القسس والرهبان .

وكان التلاميذ يتعلمون الخط بالكتابة على ألواح من الطين ، ويقلدون أستاذهم فيما كتبه من النماذج على الألواح الجافة من الطين . وقد وجد الباحثون فى آثار (بابل) كثيرا من هذه الألواح أو القراميد .

وكان التعليم لديهم فرديا ، يراعى فيه المدرس تلميذه ، ويخصص له شيئا من وقته .

الأثر التربوى للعرب :

وفى التربية العربية يترك الطفل البدوى للطبيعة ، فهو ابن الطبيعة حقا ، يتركه أبواه لنفسه تحت تأثير عوامل الطبيعة فى الصحراء معتمدا على نفسه . ويربى منذ ولادته تربية استقلالية فى تلك المدرسة القاسية ، مدرسة الحياة البدوية ؛ كى يعتاد احتمال الأخطار والآلام .

يقول (بيرك هاردت) : لقد رأيت جماعات من أولاد العرب يلعبون وقت الظهيرة ، على رمل محرق فى منتصف الصيف الشديد الحرارة ، ويجرون حتى يشعروا بالتعب . وحينما يرجعون إلى خيام آبائهم يوبخون ويُزجرون على عدم استمرارهم فى اللعب والتمرينات البدنية .

وإذا نظرنا إلى تاريخ العرب وجدنا أن لهم فضلا كبيرا على الحضارة والمدنية والعلم والأدب ، وخاصة بعد الإسلام .

وإن نظرة واحدة إلى آراء ابن سينا والفارابى والغزالى وابن خلدون والكندى وابن رشد، وابن مسكويه ، وابن العربى، وابن المقفع ، وإخوان الصفا وغيرهم فى التربية والأخلاق

والثقافة ـ تدلنا على ما كان لهم من فضل عظيم في دوائر المعرفة ، من دين وفقه أو تفسير وحديث ، وأصول . وفلسفة ، وعلم وأدب .

وإن من يطلع على ما كتبوه لا يستطيع أن ينكر أن العرب عنوا بتربية أطفالهم تربية طبعية ، تربية جسمية وعقلية ، تربية خلقية ووجدانية ، تربية حربية ، تربية وطنية ، كلها استقلال وحرية واعتماد على النفس ، وأن العرب كان لهم أكبر الأثر في الحضارة والمدنية .

الفصل الثانى

أغراض التربية الإسلامية

١ — التربية الخلقية :

إن التربية الخلقية هى روح التربية الإسلامية ، وقد أجمع الإسلام على أن التربية الخلقية هى روح التربية الإسلامية ، والوصول إلى الخلق الكامل هو الغرض الحقيقى من التربية . وليس معنى هذا أن نقلل من العناية بالتربية الجسمية أو العقلية أو العلمية أو العملية ، بل معناه أن نعنى بالتربية الخلقية كما نعنى بالأنواع الأخرى من التربية ؛ فالطفل فى حاجة إلى قوة فى الجسم والعقل والعلم والعمل ، وتربية الخلق والوجدان والإرادة والذوق والشخصية .

وقد اتفق علماء التربية الإسلامية على أنه ليس الغرض من التربية والتعليم حشو أذهان المتعلمين بالمعلومات ، وتعليمهم من المواد الدراسية مالم يعلموا، بل الغرض أن نهذب أخلاقهم، ونربى أرواحهم ، ونبث فيهم الفضيلة ، ونعودهم الآداب السامية ، ونعدهم لحياة كلها إخلاص وطهارة . فالغرض الأول والأسمى من التربية الإسلامية تهذيب الخلق ، وتربية الروح . وكل درس يجب أن يكون درس أخلاق . وكل معلم يجب أن يراعى الأخلاق الدينية قبل أى شىء آخر . والأخلاق الدينية هى الأخلاق المثالية الكاملة . والخلق النبيل عماد التربية فى الإسلام .

ويرى الغزالى : أن الغرض من التربية التقرب إلى الله دون الرياسة والمباهاة ، وألا يقصد المتعلم بالتعلم الرياسة والمال والجاه ، ومماراة السفهاء ، ومباهاة الأقران . وهو لا يخرج عن التربية الخلقية .

ومن الممكن أن نلخص الغرض الأساسى من التربية الإسلامية فى كلمة واحدة هى : **« الفضيلة »** .

٣ ـ العناية بالدين والدنيا معا :

لم يكن أفق الإسلام ضيقا فى النظر إلى أغراض التربية ، فلم يقصر التربية على الناحية الدينية ، ولم يقصرها على التربيه الدنيوية ، بل نادى الرسول الكريم حاثا كل فرد من الأمة الإسلامية ـ بالعمل لدينه ودنياه معا ، حيث قال :

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . » فلم يفكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدنيا وحدها أو الدين وحده ، ولكنه فكر فى العمل لها معا بدون إهمال للعالم الدنيوى أو العالم الدينى .

٣ ـ العناية بالنواحى النفعية :

كما عنيت التربية الإسلامية بالنواحى الدينية والخلقية والروحية فى التربية والتعليم لم تهمل العناية بالنواحى النفعية فى معاهدها ومناهجها . ويتضح هذا الغرض من كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى الولاة : « أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ، ورووهم ما سار من المثل ، وما حسن من الشعر » .

فعمر يأمر بتعليم الأولاد السباحة والعوم ، والفروسية ، والرياضة البدنية ، والمهارة الحربية ، والعناية باللغة العربية ، ورواية الأمثال السائرة ، والشعر الحسن .

وإن أثر علماء الإسلام فى النهضة العلمية لا يستطيع أن ينكره إلا كل مكابر متعصب .

قال « مونرو » فى كتابه : « تاريخ التربية » : « فى الطب والجراحة وعلم العقاقير والفلك ، وعلم وظائف الأعضاء ، وصل المسلمون إلى اختراعات هامة ، واخترعوا ساعة البندول ، وعلموا أوروبة استعمال البوصلة والبارود » .

فالتربية الإسلامية لم تكن كلها دينية وخلقية وروحية ، ولكن هذه الناحية كانت مسيطرة على الناحية النفعية . ولم تكن فى أساسها مادية ، بل كانت المادة أو كسب الرزق أمرا عَرَضيا فى الحياة ، ولم يقصد الكسب لذاته ، بل كان أمرا ثانويا

فى التعليم . وقد كان من رأى الفارابى وابن سينا وإخوان الصفا أن الكمال الإنسانى لا يتحقق إلا بالتوفيق بين الدين والعلم .

٤ — دراسة العلم لذات العلم :

كان طلاب العلم من المسلمين يدرسونه لذاته ، فهو فى نظرهم ألذ شىء فى الحياة ، والإنسان محب للاطلاع بفطرته ، لهذا عنى فلاسفة الإسلام بدراسة كثير من العلوم والآداب والفنون ؛ ليشبعوا ما لدى الطالب من ميل فطرى إلى حب الاطلاع والمعرفة . وهذه هى التربية المثالية حيث يدرس الطالب العلم لذات العلم ، والأدب لذات الأدب ، والفن لذات الفن ؛ لأن فى هذا لذة علمية أو أدبية أو فنية لا نظير لها . قال الحاج خليفة فى كشف الظنون[1] :

والعلم ألذ الأشياء وأفضلها . وقال فى موضع آخر : ليس الغرض من الدرس تحصيل الرزق فى هذه الدنيا ، ولكن الغرض الوصول إلى الحقيقة ، وتقوية الخلق . وهو يعنى الوصول إلى الحقيقة العلمية والخلق الكامل .

فالتربية الإسلامية كانت مثالية تطالب بالعلم لما فيه من لذة روحية ، للوصول إلى الحقائق العلمية ، والأخلاق النبيلة . وإن من ينظر إلى ما خلفه المسلمون من تراث علمى وأدبى ودينى وفنى يجد أمامه ثروة خالدة لا نظير لها فى العالم كله ، تدل على شدة تعلقهم بالعلم لذاته ، والأدب لذاته ، والفن لذاته . وليس معنى هذا أنهم أهملوا التعلم لكسب الرزق كلية . ويتبين هذا من الغرض التالى :

٥ ـ التعليم المهنى والفنى والصناعى لكسب الرزق :

لم تهمل التربية الإسلامية إعداد كل فرد لكسب رزقه فى الحياة ، بدراسة بعض المهن والفنون والصناعات والتدرب عليها . ويظهر هذا الغرض واضحا من قول ابن سينا :

---
(١) صفحة ١٦

« إذا فرغ الصبي من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك إلى ما يراد أن تكون صناعته فيوجه لطريقه » . .

ويعد إعدادا مهنيا أو فنيا أو صناعيا حتى يجيد مهنة من المهن ، أو فنا من الفنون ، أو صناعة من الصناعات ، حتى يتمكن من كسب رزقه ، ويحيا حياة شريفة مع المحافظة على الناحية الروحية والدينية .

فالتربية الإسلامية كانت خلقية غالبا ، ولكنها لم تهمل إعداد الفرد للحياة ، وكسب العيش والرزق ، ولم تنس تربية الجسم ، والعقل ، والقلب والوجدان ، والإرادة ، والذوق ، واليد ، واللسان ، والشخصية .

الفصل الثالث

التربية الإسلامية تربية مثالية

إذا رجعنا إلى الاتجاهات الحديثة في التربية فى القرن العشرين ، ودرسنا مبادئها وطرقها وأنظمتها ، وجدنا أن التربية الإسلامية قد سبقتها بقرون فى المناداة بكثير من المبادئ والأساليب التربوية الهامة ، وفى الإسهام فى النهضة العقلية ، والمثل الخلقية . وسنبين تلك الآراء الخالدة بإيجاز فيما يأتى :

١ ـ الحرية و (الديمقراطية) فى التعليم :

تأثرت طرق التربية والتعليم فى التربية الإسلامية تأثرا كبيرا بمبدأ الحرية و (الديمقراطية) ؛ فقد نادى الإسلام بمبدأ المساواة وتكافؤ الفرص فى التعليم ووسائله أمام الطلبة جميعا ، وفتحت أبواب المساجد والمعاهد الدراسية للجميع ، من غير تفرقة بين الغنى والفقير ، والرفيع والوضيع من المتعلمين ؛ إذ لا فضل فى الإسلام لعربى على عجمى إلا بالتقوى . والتعليم فيها بالمجان ، والطلاب غير مقيدين بسن محددة ، أو أشهر معدودة ، أو شهادات خاصة ، أو درجات معينة فى الامتحانات ، أو قواعد مسنونة لاختيارهم . فتى وجدت لدى المتعلم الرغبة فى الدراسة والمحبة للعلم ، والشغف بالبحث والاطلاع يسرت أمامه وسائل التعلم ، وشجع على طلب العلم ، وخاصة إذا كان ذكيا نابها .

ولم تكتف الإمبراطورية الإسلامية بإنشاء المساجد والمعاهد ودور العلم ودور الحكمة لنشر التعليم ، بل أغدقت عليها كثيرا من الأموال والخيرات . ووقف عليها الموسرون من المسلمين كثيرا من العقارات والأوقاف ؛ كى يتمكن الطلاب الفقراء من متابعة الدراسة والتعمق فى الثقافة ، والتفوق فى البحث ، والاستمرار فى طلب العلم والمعرفة . وقد ظهر فى الإسلام كثير من العظماء والعلماء من أبناء الفقراء ، نذكر منهم الغزالى ، والإمام الشافعى ، والجاحظ . . رحمهم الله رحمة واسعة . فقد وجدوا طلب العلم ميسرا أمامهم ، فانتهزوا الفرصة

وجدّوا وثابروا ودرسوا ، وتعمقوا فى دراستهم ، وانتفعوا بما أوتوه من ذكاء فائق ، وذاكرة قوية ، وقوة ملاحظة ، تخلدوا أسماءهم بين العلماء أو الأدباء أو الفلاسفة أو الفقهاء .

ولم تكن المواد الدراسية مقيدة بمناهج محددة ، بل كان الطلاب فى كل مادة يدرسون كتابا معينا ، فإذا ما انتهوا من دراسته انتقلوا إلى كتاب آخر أعلى درجة منه فى تلك المادة وهكذا ، حتى ينتهوا من دراسة الكتب التى يريدونها .

كان التعليم واجبا دينيا ؛ فقد فرضه الإسلام على كل مسلم ومسلمة . لهذا تحمس الأغنياء فى إقامة دور التعليم من المساجد والمعاهد والمدارس والكتاتيب ودور الكتب وتزويدها بما تحتاج إليه من المؤلفات والأدوات ، تقربا إلى الله تعالى ، حتى تؤدى رسالتها على الوجه الأكمل ، وينتشر التعليم ، وتطهر النفوس ، ويتمسك المتعلمون بكل فضيلة . ومن تلك المنافسة النبيلة بين الأثرياء من المسلمين قديما فى إنشاء المعاهد الإسلامية نلمس كيف كانوا يشعرون بالواجب نحو نشر العلم والثقافة بين المسلمين .

فالمجهود فى نشر التعليم لم يكن على عاتق الدولة وحدها ؛ فقد كان الموسرون فى العصور السالفة — لا فى عصرنا هذا — ينشئون دور التعليم من تلقاء أنفسهم ، ويتبرعون لها بما فى استطاعتهم من التبرعات ، ولم يتركوا كل العبء على الدولة ، بل تعاونوا معها ابتغاء مرضاة الله . وكانت الدولة تقوم بالتخطيط والإرشاد والتوجيه ، وتساعد فى إنشاء المبانى التعليمية ، وإعدادها بالأجهزة والمراصد والمعامل ، مساعدة تتفق وعظمة الإمبراطورية الإسلامية ، وقوة سلطانها . ولم يقيد التعليم بقيود حديدية ، أو مؤهلات علمية ، أو مصروفات مدرسية ، أو شروط استعمارية ، كى لا يضعوا عقبة فى سبيل من يريد التعلم من البنين والبنات . وفتحت أبواب التعليم على مصاريعها أمام كل راغب فى الدراسة العلمية والدينية ، فى كل وقت وكل دار من دور التعليم . وهذه هى (الديمقراطية) الحقة فى التربية والتعليم .

كان التعليم بالمجان ، والغذاء بالمجان ، والإقامة بالمجان فى المراحل المختلفة من التعليم فى المعاهد الإسلامية ، وهذا أكبر مظهر من مظاهر (الديمقراطية) فى الإسلام . وإن هذا الروح (الديمقراطى) الإسلامى الذى انتشر فى التعليم لا نجده حتى اليوم بين أغنى الدول الأوروبية أو الأمريكية .

وفى التربية الإسلامية لم يضطر الفقراء من طلاب العلم إلى السعى للحصول على المجانية فى أى مرحلة من مراحل التعليم ، أو الكد والعمل صيفاً وشتاء لتوفير المصروفات المدرسية أو الجامعية . ولم يكن الفقر فى عصر الإمبراطورية الإسلامية الحرة المستقلة عقبة فى سبيل التعلم فى أى معهد ، بل أعطى الفقراء كل فرصة فى أن يتعلموا التعليم الذى يبغونه . ولم توضع أمامهم العقبات ، بل مهدت لهم كل السبل ، وزودوا بجميع الوسائل التى تيسر لهم التفرغ لطلب العلم : من مجانية فى التعليم ، وإقامة بالأقسام الداخلية ، وتغذية صحية ، ومساعدة مالية ، وانتفاع بما فى المكتبات من كتب ومراجع .

ولم يطالب أبناء الفقراء من المسلمين بالاكتفاء بالتعليم الذى ندعوه الابتدائى أو الإعدادى أو الثانوى ، والرضا بمراكزهم المتواضعة فى الحياة بسبب الفقر ، بل شجعوا على الالتحاق بالمعاهد العليا ، وأعطى الجميع الفرصة فى أن يتعلموا حتى النساء والجوارى . وكان المسلمون ينظرون إلى العلماء والأدباء والفقهاء نظرة كلها إجلال وإكبار ، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء . ولهذا شجع الآباء أبناءهم على التعليم والإقبال على المعاهد الدراسية . وقد بدأنا منذ سنوات فى نشر التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى والعالى والجامعى بالمجان ، والتغذية فى المدارس الابتدائية بالمجان ، وفى هذا المبدأ رجوع إلى ماضينا الإسلامى المجيد ، وتقاليدنا الإسلامية (الديمقراطية) العريقة .

وفى التربية الإسلامية الأولى لم يكن هناك نظام طبقات فى التعليم ، ولم تخلق مدارس بمصروفات للأغنياء القادرين ، ومدارس أولية بالمجان للفقراء المعدمين إلا فى عصر الاحتلال ، فالاحتلال هو الذى أدخل نظام الطبقات ، والتفرقة فى التعليم بين الأغنياء والفقراء ، وأنشأ مدارس ابتدائية وثانوية بمصروفات لأبناء الموسرين القادرين ، ومدارس أولية قليلة بالمجان لأبناء الطبقات الفقيرة .

لقد سوى الإسلام بين أبناء الأغنياء والفقراء فى التعليم ، ومنحهم جميعاً الفرصة فى أن يتعلموا من غير تفرقة بينهم . ولم يقل أحد من المسلمين إن الفقراء خلقوا ليعملوا بأيديهم فى الحقول والمزارع والمعامل والمصانع ، وإن الأغنياء وجدوا ليتحكموا فى الفقراء ، ويسيطروا

عليهم بما أوتوا من مال وثراء . لم يدَّع أحد فى الإسلام أن الذكاء مقصور على الأغنياء وأنهم خلقوا ليتحكموا ، وأن الفقراء أغبياء خلقوا ليُحكَموا . فالذكاء هبة فطرية من الله تعالى يمنحها الأغنياء ، ولم يجعله مقصورا على طبقة من الطبقات . وقد سوى الإسلام بين الفقراء والأغنياء فى حق التعليم ، ومهد لهؤلاء وأولئك الفرص الملائمة للتزود بالعلوم والمعارف .

لم يقل الإسلام للفقراء إنكم خلقتم للمراكز المتواضعة ، وخلق الأثرياء للمراكز العالية ، كما كان يقال فى أوروبة حتى القرن التاسع عشر ، بل نادى الإسلام دائما : الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . وهذه هى (الديمقراطية) والعدالة والمساواة فى الإسلام منذ أربعة عشر قرنا

الحق أن المعاهد الإسلامية لم تقيد بشروط معينة للحاق بها ، ولم ينتظر من طالب العلم إلا أمر واحد هو الرغبة فى العلم ، والإقبال عليه ، والتعطش للتعلم . ولم توصد أبواب المعاهد والحلقات الدراسية فى وجه طالب من طلبة العلم . وقد وهب الأساتذة والعلماء حياتهم للعلم والتعليم ، ولم ينتظروا أجرا أو راتبا ، بل كانوا يشتغلون بمهنة التدريس والتعليم ابتغاء مرضاة الله ، ويستعينون على المعيشة فى الحياة بحرفة أو صناعة يتخذونها فى بعض أوقات فراغهم .

لهذا كله أقبل الطلاب على العلم لذات العلم ، وظهر كثير من العلماء والأدباء والمؤرخين الأفذاذ كابن سيناء ، والفارابى ، والغزالى ، والكندى ، وابن الهيثم ، وابن خلدون ، والطبرى ، وابن الأثير ، والجاحظ ، والمعرى ، والمتنبى .

ولا عجب ، فقد كانت سبل التعليم ميسرة للجميع ، والكتب متوافرة للطلبة ، والحياة ممهدة ، لا يجد النابهون والأذكيا من الفقراء أى عقبة فى سبيلهم . لذلك وجد منهم عظماء من الفقهاء والمفسرين والمحدثين ، وعلماء اللغة ، والأدباء ، الذين خدموا الدين والعلم والأدب خدمة عظيمة نلمسها فيما تركوا من مؤلفات ثمينة ، وكتب قيمة .

وخلاصة القول : أن التربية الإسلامية تتمثل فيها المبادئ (الديمقراطية) ، من الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص فى التعليم ، من غير تفرقة فى طلبه بين الموسرين والمعدمين ، وأن المسلمين كانوا يعدون طلب العلم فريضة دينية ، وواجبا روحيا ، لا وسيلة لغرض مادى ،

ويقبلون عليه بقلوبهم وعقولهم ، ويطلبونه برغبة قوية من تلقاء أنفسهم . وكثيرا ما كانوا يقومون برحلات طويلة شاقة فى سبيل تحقيق مسألة علمية أو دينية .

٣ ـ التربية الخلقية الكاملة أسمى أغراض التربية الإسلامية :

تعد التربية الخلقية المثالية أسمى أغراض التربية الإسلامية ؛ فقد عُنى علماء الإسلام كل العناية ببث الأخلاق الكريمة ، وغرس الفضائل فى نفوس المتعلمين ، وتعويدهم التمسك بالفضيلة ، وتجنب الرذيلة ، والتفكير فى الناحية الروحية والإنسانية ، والتفرغ للدراسة العلمية والدينية من غير نظر إلى ناحية مادية .

وإن من يقرأ ما كتبه فلاسفة الإسلام من آراء فى التربية وتهذيب الأخلاق يلمس الاتجاه دائما نحو المثل السامية ، ويرى أنهم كانوا يطلبون العلم لذات العلم ، ويعدون طلبه عبادة ، ويقضون حياتهم دائبين فى البحث والدراسة للوصول إلى لب الحقيقة ، دون تفكير فى مال أو جاه أو مركز ، ويقدسون العلم والعلماء ، وكمال الأخلاق . فالعلم فى نظرهم أعظم شئ فى الحياة ، والعلماء العاملون ورثة الأنبياء . ولا يستطيعون تأدية رسالتهم العلمية إلا إذا تحلوا بكل فضيلة ، وطهروا أنفسهم من كل رذيلة . وعن طريق العلم والعمل الصالح كانوا يسمون بأرواحهم ، ويتقربون إلى خالقهم جل شأنه .

وإن تلك المثالية النادرة التى امتازت بها العصور الذهبية للإسلام هى سر عظمتها وقوتها الروحية ، وقد أدت إلى نشاط كبير فى التأليف والإنتاج العلمى ، والعمل عن إيمان وعقيدة بثبات وشجاعة وإقدام . لهذا كله كان مستوى العلماء الخلقى والروحى رفيعا ، ونجحوا فى حياتهم ، ونهضوا فى كل ناحية ، وقادوا العالم فى العصور الإسلامية الأولى فى حضارتهم الإسلامية ، ومدنيتهم الروحية ، ومثلهم العالية فى الدين والأخلاق ، ودافعوا عن الإنسانية بمبادئهم (الديمقراطية) من الحرية والإخاء والمساواة ، والعدالة المطلقة . وفى الوقت الذى عنيت فيه التربية الإسلامية بالناحية الروحية والخلقية لم تهمل أى نوع من أنواع التربية العقلية أو الجسمية أو الرياضية أو الاجتماعية أو العلمية أو العملية ، فوصلت إلى التربية

المثالية الكاملة للإنسان ، وتركت تلك التربية أثرا لا يستطيع أن ينكره أحد فى العمل عن إيمان وعقيدة والعلم لذات العلم .

وقد نهضنا الآن فى الميادين العلمية والأدبية والمادية . ولكننا لم نصل إلى المستوى الروحى والخلقى الذى وصل إليه المسلمون فى العصور الأولى من الإسلام . والحق أننا فى حاجة شديدة إلى التفكير فى الناحية الروحية والتربية الخلقية المثالية حتى نعيد مجدنا السالف، وعظمتنا الإسلامية القديمة .

٣ — خاطبوا الناس على قدر عقولهم :

هذا مبدأ من أهم المبادئ فى التربية الاسلامية ، ويعد من أحدث المبادئ فى التربية الحديثة . وينبغى أن يكتب هذا الأثر بقلم من النور على باب كل مدرسة ، وكل معهد ، فلا نخاطب الأطفال بلغة لا يفهمونها ، ولا نخاطب الكبار بلغة الصغار .

وهذا ما يشير إليه الغزالى بقوله : « أن يقتصر المعلم بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله » اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال :

« نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم » .

فليبث إليه المعلم الحقيقة إذا علم أنه يستطيع فهمها مستقلا بنفسه ، وليضع كل طفل فى الموضع اللائق ، وليخلق للمتعلمين المادة التى يدركونها ، وليكلمهم على قدر عقولهم ، وليخاطبهم بالعبارة التى يفهمونها ، واللغة التى يحسنونها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم » . وإن التربية الحديثة تنادى بما نادى به الرسول الكريم من مخاطبة المتعلمين على قدر عقولهم ، ومراعاة مستواهم العقلى ومستواهم العلمى ، حتى يدركوا الأحاديث التى تقال لهم ، والموضوعات التى يدرسونها . فلا يخاطب الأذكياء بما يخاطب به الأغبياء ، ولا يخاطب الخاصة بما يخاطب به العامة . فالذكى يفهم الشىء بالإشارة ، والغبى ربما لا يفهمه إلا بعد أن

يكرر له عدة مرات . ولذلك قيل : كل لكل عبد بمعيار عقله ، وزن له بميزان فهمه ؛ حتى تسلم منه وينتفع بك . وضع كل شيء في موضعه . وهي خير نصيحة لو استطاع أن ينفذها كل مرب ومربية .

٤ — التفرقة فى الطريقة التى تتبع فى التعليم :

فطريقة تعليم الأطفال تختلف عن الطريقة التى تتبع فى تعليم الكبار . وقد نادى الغزالى بهذا الرأى ؛ لأن هناك فرقا بين إدراك الصغار وإدراك الكبار حيث قال :

« إن من أول واجبات المربى أن يعلم الطفل ما يسهل عليه فهمه ؛ لأن الموضوعات الصعبة تؤدى إلى ارتباكه العقلى وتنفره من العلم » . ويشاركه العلامة ابن خلدون فى هذا الرأى قائلا :

« وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذى أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته ، ويحضرون للمتعلم فى أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ، ويطالبون ذهنه بحلها ، ويحسبون ذلك مرانة على التعليم وصوابا فيه . . فإن قبول العلم والاستعداد له ينشأ تدريجيا . . »

فالغزالى وابن خلدون وغيرهما من فلاسفة التربية الإسلامية يرون أن تفكير الطفل يختلف عن تفكير الرجل ، ويجب مراعاة ذلك فى طريقة التدريس لكل منهما . ويعد هذا الرأى من أهم الآراء فى التربية الحديثة فى القرن العشرين .

فالطفل يحتاج إلى الأمور المحسة التى تتصل ببيئته ، والمواد السهلة التى يمكنه أن يفهمها . والرجل يستطيع أن يدرك الأمور المعقولة التى تتفق مع العقل والمنطق .

٥ — التربية الإسلامية تربية استقلالية :

وإن من ينظر إلى طرق التدريس فى التربية الإسلامية — فى المساجد والمعاهد ودور العلم — يجد أنها كانت ترمى إلى تعويد الطلبة الاعتماد على أنفسهم فى التعلم ، فالمدرس أو المحاضر يعين لطلبته بعد الانتهاء من درسه كل يوم تعيينا خاصا من الكتاب الذى يدرسونه ، لقراءة

التعيين قبل الدرس وإعداده والاجتهاد فى فهمه . فإذا ذهب الطلاب إلى الدرس أصغوا إلى أستاذهم ، واستمعوا إليه وهو يشرح الدرس ، ويفسر النقط الصعبة فيه ، ويرشد من يحتاج إلى الإرشاد ، ويساعد من يحتاج إلى المساعدة ، ويجيب عما يسألونه من الأسئلة ، ويناقشهم فيما يحتاج إلى مناقشة .

وبهذه الطريقة يعتاد الطلاب الاعتماد على النفس فى القراءة والفهم والبحث ، ويربون تربية استقلالية .

وكانت طريقة التعيينات متبعة فى الجامع الأزهر . وقد كونت أفذاذا من العلماء المعروفين بالعلم ، والصلاح والتقوى ، والشجاعة الأدبية . وكان المحاضر يلقى محاضرته وهو متمكن منها كل التمكن ، ويشرح آراء العلماء ، ويبين وجهة نظر كل منهم ، ويبدى رأيه الخاص ، ويترك للطلبة الحرية فى الأسئلة والمناقشة . وفى التربية الحديثة تسمى طريقة التعيين طريقة (دلتون[1]) ، وهى طريقة حديثة تنسب إلى « مس هيلين باركهرست » وقد جربت طريقتها فى بلدة (دلتون) بولاية مساشوستس من الولايات المتحدة بأمريكا . وهى لا تختلف عن الطريقة الأزهرية قديما فى التربية والتعليم .

٦ — نظام التعليم الفردى فى التربية الإسلامية :

إننا نقصد من التعليم الفردى مراعاة قوة كل فرد ومستواه فيما يدرسه من المواد . وفى عالم التربية اليوم حركة قومية تحض على اتباع هذا النظام . وقد تعجب إذا عرفت أنه قد روعى فى التربية الإسلامية العريقة منذ قرون مضت ، وكان لكل طالب الحرية فى أن يختار أستاذه الذى يتلقى العلم عنه ، ولا يفرض عليه أستاذ معين ، ويختار المواد التى يدرسها ، ويسير فى كل منها على حسب مستواه . وكانت التبعة فى الدراسة والبحث تلقى على عاتق الطالب ؛ فهو ملزم بإعداد الدرس أو التعيين ، وقراءته ومحاولة فهمه ، ومناقشته مع غيره

(١) ارجع إلى كتاب : « الاتجاهات الحديثة فى التربية » للمؤلف .

من زملائه ، قبل أن يحضر درس أستاذه ، وسؤال الأستاذ عن النقط التى يشعر بصعوبتها فى الدرس ، وكان يسير مع أستاذه من درس إلى درس حتى ينتهى الكتاب الذى يقرؤه الأستاذ. وكان المدرس على صلة روحية كبيرة بتلاميذه ، يعرف قواهم وميولهم ورغباتهم ويراعيها فى تدريسه. وللصلة الروحية القوية بينه وبينهم كانوا يستفيدون كثيرا من علمه وخلقه ، وينتفعون من الاتصال به روحيا وعلميا . . وهذا روح التربية الحديثة اليوم .

وكان المتعلمون يشبعون رغباتهم بما يحتاجون إليه من العلم ، ويعتمدون على أنفسهم فى البحث وراء الحقيقة حبا فى الوصول إليها ، يرشدهم المعلم حين يحتاجون إلى الإرشاد ، ويجدون لذة فى التعلم ، ويعطون الحرية فى العمل بأنفسهم ، فيتعودون الجد والمثابرة على العمل ، والاعتماد على النفس ، والتغلب على الصعوبات التى تعترضهم ، ويمرنون على إتقان العمل وإجادته ، ويعتادون الصفات الضرورية للنجاح فى الحياة العلمية والعملية .

ولم يقتصر طلاب العلم على التحصيل من الكتب وحدها ، فكان أساتذتهم يشجعونهم على الرحيل فى سبيل طلب العلم للاتصال بالعلماء والأدباء والمؤلفين ، وأخذ العلوم من منابعها الأصلية . وكثيرا ما احتمل الطلاب قديما مشاق السفر الطويل للاتصال شخصيا بأساتذتهم ، ورحلوا إلى أقاصى البلاد الإسلامية لتحقيق مسألة علمية أو فقهية واحدة .

من هذا كله نرى أن التربية الإسلامية كانت تنادى بحسن الصلة بين المدرس وتلاميذه ، ومراعاة مستوى المتعلمين ومواهبهم واستعداداتهم ، والرحلات فى سبيل الدراسة والبحث العلمى . وهذه كلها مبادئ تعدها مثالية فى التربية الحديثة فى القرن العشرين .

٧ — مراعاة الاستعدادات الفطرية والغرائز الطبيعية للمتعلم فى إرشاده إلى المهنة التى يختارها :

لقد طالب علماء التربية الإسلامية بمراعاة ميول المتعلم ، واستعداداته الفطرية ، وقدراته الطبيعية ، عند إرشاده إلى المهنة التى يختارها فى مستقبل حياته ، وخاصة ابن سينا ؛ فقد نادى بالعناية بدراسة ميول الطفل ، وجعلها أساساً لإرشاده وتربيته قائلا :

« ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية ، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه . ولذلك ينبغي لمدبر الصبي إذا رام اختيار صناعة أن يزن أولًا طبع الصبي ، ويسبر قريحته ، ويختبر ذكاءه ، فيختار له الصناعات بحسب ذلك » .

وهي نصيحة ثمينة لابن سينا ؛ ينصح فيها المربين الذين يريدون اختيار صناعة لصبي من الصبيان ، أن يزنوا طبعه أو ميله ، ويعرفوه ويختبروا عقـــله وذكاءه ، حتى يختاروا له صنعة تناسب ميله وعقليته ، فإذا كان يميل إلى الدراسه الأدبية وجّه إليها ، وإذا رغب فى الناحية العملية شجع على اختيارها ، وإذا أحب الدراسة العلمية أعطى الفرصة فى دراستها . وهذا رأى من أثمن الآراء فى التربية الإسلامية ، ونحن ننادى به اليوم فى التربية الحديثة .

وليس من السهل أن ينبغ المتعلم فى كل مادة يدرسها ، ولـكنه يستطيع أن يتفوق ويكون ماهراً فى المواد التى يحبها ويميل إلى دراستها . ومن المحال أن ينبغ فى المواد التى يكرهها وينفر منها .

ولا أبالغ إذا قلت إن التربية الإسلامية كانت تفكر فى الأذكياء ، وتلتقطهم كما تلتقط الأزهار من الحدائق ، وتعنى بهم كل العناية ، وتضعهم فى المواضع التى تناسب ذكاءهم . وتوجّه غير الأذكياء من المتعلمين إلى الناحية العملية ، بعد الإلمام بالضرورى من الدراسة الدينية ، وتوضح لـكل طالب ما يليق بطبعه من العلوم؛ إذ كل ميسر لما خلق له .

فالتربية الإسلامية تربية مثالية قد نادت منذ أكثر من ألف سنة بما ينادى به علماء النفس والتربية اليوم ، وانتظرت من المدرس أن يفكر فى حال الطالب إذا كانت لديه زيادة فى الفهم بحيث يقدر على حل المشكلات ، وكشف المعضلات ، ويهتم بتعليمه أشد الاهتمام . وإلا فليفامه القدر الكافى لمعرفة الفرائض والسنن ، ثم يأمره بالاشتغال ، وليكن بصيراً فى اختبار ذهنه وعقله وقياس ذكائه ، ويبين لـكل طالب ما يليق بطبعه من العلوم .

وهنا نلمس أن التربية الإسلامية لا تختلف عن التربية الحديثة فى مراعاة مستوى الطفل ، وحسن اختيار المـادة ، والتدرج معه فى الدرس على قدر استعداده ، وإعطاء الذكى

فرصة إتمام تعليمه بأى وسيلة ، وتوجيه الغبى إلى الاشتغال بالناحية العملية ، بعد اختبار ذكائه .

وإن فكرة الاختبارات العقلية أو مقاييس الذكاء التى نفخر ونتباهى بها فى القرن العشرين قد روعيت فى العصور الذهبية للتربية الإسلامية بطريقة عملية ، ولا أبالغ إذا قلت إن فلاسفة الإسلام نادوا بما ننادى ونفخر به اليوم .

٨ — الولع بالعلم والتفرغ للدراسة :

كان الطلاب مولعين بالعلم ، محبين للتعلم ، متفرغين للدراسة ، يقضون جل أوقاتهم فى البحث والاطلاع والقراءة والدرس ، ومحاولة الفهم ، وحل المعضلات من الاعتراضات العلمية ، وهضم العلم الذى يدرسونه ، ويجدون لذة كبيرة فى الفحص عن العلوم والمسائل ، ويمكثون نهارهم وليلهم — إلا أقله — فى إعداد دروسهم لليوم التالى ، ويهبون شبابهم وحياتهم لطلب العلم والمعرفة ، ويستيقظون من نومهم مبكرين لصلاة الفجر ، ثم حضور درس التفسير أو الحديث ثم الفقه ثم اللغة ، ثم الأدب أو العلم .

لهذا كان من بين المسلمين أعلام العلماء ، وكبار الفلاسفة ، ومشهورو الفقهاء والكتّاب والأدباء والشعراء ، والمؤلفون واللغويون ، وأنتجوا مؤلفات ضخمة قيمة ، فى التفسير والحديث ، والفقه والتوحيد ، والبلاغة والأدب ، والنحو والصرف ، والمعاجم اللغوية ، وهى كتب ومراجع لا يستطيع أحد من علماء اليوم فى الشرق أو الغرب أن يقوم بمثلها .

٩ — العناية بالخطابة والمناظرة وتربية اللسان :

كان من أهم أنواع التربية الإسلامية التربية اللسانية ، وهى تعويد اللسان حسن التعبير مع دقة التفكير ، والارتجال فى الخطابة ، والإقناع فى المناظرة والمناقشة والمجادلة . وتعد طلاقة اللسان فى الكلام الآن من الضروريات للنجاح فى حياة المعلمين والمحامين والسياسيين ...

وإذا نظرنا إلى التربية فى عصرنا هذا وجدنا عناية كبيرة بالكتابة ، وإهمالا تامًا

للمناظرة والخطابة ، مع أن الحياة (الديمقراطية) تتطلب العناية بكلتيهما ؛ تتطلب الفصاحة والبلاغة فى كتابة الرسائل والمقالات وإلقاء الخطب ارتجالا ، وتحتاج إلى تربية اليد لتكتب كتابة بليغة ، واللسان ليتكلم كلاماً فصيحاً ، وبعبارة أخرى تحتاج إلى استعمال القلم ، وذلاقة اللسان ، وقوة البيان . فنحن نطالب اليوم بجودة التعبير بالقلم واللسان معاً ، بحيث لا نعنى بأحدهما ونهمل الآخر .

فكما ننتظر من المربين أن يربوا الطلاب ليفكروا بعقولهم ، ويشعروا بقلوبهم ، وينفذوا بإراداتهم ، ننتظر منهم عنايتهم بالخطابة والمناظرة وإجادة التعبير بالقلم واللسان .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أثر المناظرات والمناقشات فى المنتديات والمجتمعات الإسلامية فى النهضة العلمية والأدبية والدينية .

١٠ — الرفق فى معاملة الأطفال :

كانت التربية قبل الإسلام تتبع أساليب الشدة والقسوة فى معاملة الأطفال وتربيتهم ؛ فقد كان الجلد منتشرا ، والعقاب القاسى شائعا ، ولكن فلاسفة الإسلام تنبهوا إلى مضار هذه الأساليب فى التربية ، فحذروا من استعمالها ، ونادوا بالرفق فى تربية الأطفال ، وعلاج أخطائهم بروح الشفقة والرأفة ، والعطف والرحمة ، ومعرفة البواعث التى أدت إلى هفواتهم ، والعمل على تداركها ، وتفهيم الأولاد نتيجتها ، وساروا مع الطرق المثلى فى التربية ، وحملوا حملة شعواء على الشدة والقسوة فى التربية ، وعدوها قاتلة للهمم ، مخيبة للذكاء ، مؤدية إلى الذل والخداع .

وقد دخل على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أحد عماله وولاته ، فوجد عمر مستلقيا على ظهره ، وصبيانه يلعبون حوله ، فأنكر عليه سكوته على لعب الأطفال حوله .

فسأله عمر : كيف أنت مع أهلك ؟

فأجاب : إذا دخلتُ سكت الناطق .

قال له عمر : اعتزل عملنا ؛ فإنك لا ترفُق بأهلك وولدك . فكيف ترفُق بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

فعمر بهذا يعطينا درسا فى حسن معاملة أهلنا وأولادنا ، والسعى فى إدخال السرور عليهم، ليتربوا تربية حسنة بعيدة عن الخوف والجبن، ويظهروا بمظهرهم الطبعى ، حتى يمكن تقويمهم وتهذيبهم .

ولم يفصل عمر عامله هذا الذى ينوب عنه فى حكم بلد من البلاد الإسلامية إلا لجفائه وشدته ، وقسوته وغلظته ، مع أقرب الناس إليه من الأهل والأولاد ؛ لأن من يفعل هذا مع أسرته يكون مع الناس أشد جفاء وغلظة وقسوة فى المعاملة . رحم الله عمر ؛ فقد كان دائما خير قدوة ، وخير مثل للتفكير فى الرعية وحسن معاملتها ؛ لتحسن حالها ، وتزيد رفاهيتها .

١١ — نظام الجامعات الشعبية مقتبس من التربية الإسلامية :

كانت التربية الإسلامية مرنة ، تفتح أبوابها لكل راغب فى طلب العلم ، قادر على الفهم ، تشجع المتعلمين على الاستمرار فى التعلم والبحث العلمى ، لا تتقيد بسن أو مجموع درجات ، أو ترتيب فى امتحانات ، ولا تطلب منهم مصروفات .

فالنظام الحديث للجامعات الشعبية اقتبسته أوروبة من التربية الإسلامية فى عصورها الأولى ؛ تلك التربية التى قدست العلم وعدته نوعا من العبادة ، ورغبت النشء فى التعلم ، ولم تشترط مؤهلات معينة أو شهادات خاصة ، أو نسبا مئوية محددة ، ولم تقيد بقيود من الفولاذ ، وشروط كلها تعقيد وتعجيز ، ولم تضع عقبات فى سبيل من يرغبون فى طلب العلم .

فالدين الإسلامى دين علم ونور ، لا دين جهل وظلمة . ونظام الجامعات الشعبية التى تعمل لنشر الثقافة العامة بين الراغبين فى تكملة أنفسهم ثقافيا وعلميا وأدبيا وفنيا من أبناء الشعب وبناته — مقتبس من أنظمة التعليم فى التربية الإسلامية فى عصورها الذهبية .

١٢ — العناية بدور الكتب للتشجيع على البحث والاطلاع :

لقد عنيت التربية الإسلامية كل العناية بإنشاء دور الكتب العامة والخاصة . ولا نبالغ

إذا قلنا إن إنشاء المكتبات من مبتكرات التربية فى الإسلام، لتشجيع العلماء والطلاب على البحث والقراءة والاطلاع، ونسخ بعض الكتب الثمينة، وترجمة ما يستحق الترجمة منها، واقتناء ما يصح اقتناؤه من الكتب الدينية والعلمية والأدبية والخلقية. ففى دور الكتب الإسلامية كنت تجد الباحثين والمطلعين والناسخين والمترجمين. وكان لهم أثر فى الحضارة الإسلامية والنهضة العلمية.

وإن ننس فلا ننس ما تركه المسلمون من كتب قيمة دينية وخلقية، واجتماعية، وعلمية وأدبية ولغوية، وما كتبوه من الموضوعات التربوية فيها. ومن تلك المؤلفات:

كتاب السياسة لابن سينا ـ وكتاب المدخل للعبدرى ـ وكتب الإمام الغزالى ـ والدرارى فى الذرارى لابن العديم الحلبى، والمقدمة لابن خلدون، وكتاب جامع بيان العلم وفضله للنمرى القرطبى، والبيان والتبيين للجاحظ.

وهناك كتب محدودة فى التربية مثل: كتاب تعليم المتعلم للزرنوجى، وأحكام المعلمين والمتعلمين لمحمد بن زيد، وكتاب الفضيلة لأحوال المعلمين، وأحكام المعلمين والمتعلمين للقابسى القيروانى «وهو مخطوط بدار الكتب المصرية»، ورسالة المعلمين للجاحظ، وترغيب الناس إلى العلم للفطمونى، وآداب المعلمين لابن سحنون.

١٣ ـ وظائف المعيدين فى الجامعات أخذتها المعاهد الأوروبية والأمريكية من التربية الإسلامية:

كانت وظائف المعيدين من الأساليب التربوية فى المعاهد الإسلامية القديمة. وقد تأثرت الجامعات الأجنبية بالتربية الإسلامية فى انتفاعها بنظام المعيدين فى الجامعات بعد تخرجهم فيها لتمرينهم على مهنة التدريس، وتشجيعهم على الاستمرار فى الدراسة والبحث العلمى، والاستزادة من العلوم للتعمق فى الدروس والاطلاع، والإنتاج فى التأليف والتصنيف، وإظهار البحوث العلمية والأدبية والدينية. وقد تأثر الغرب بهذا النظام حتى وقتنا هذا.

ولكى نبرهن على أن التربية الإسلامية كان لها كل الأثر فى التربية الحديثة، نذكر هنا بعض الآراء بإيجاز لبعض فلاسفة الإسلام.

آراء موجزة للغزالى تتفق مع التربية الحديثة وعلم النفس :

ولنذكر هنا بإيجاز آراء للغزالى وهى تتفق تمام الاتفاق مع أحدث آراء فلاسفة التربية وعلم النفس فى القرن العشرين :

١ ـ مهنة التعليم أشرف المهن ، وطلب العلم لا يتأتى مع المشاغل .

٢ ـ يجب ألا يعامل الغلمان جميعا معاملة واحدة فى التهذيب ، بل يعامل كل منهم وفق مزاجه وطبائعه ، ويراعى استعداد كل طفل .

٣ ـ يجب أن نبادر بتأديب الطفل من الصغر .

٤ ـ ينبغى تعويد الطفل الاخشيشان فى الطعام واللباس والفراش .

٥ ـ يجب أن يأخذ الطفل حظا وافرا من الرياضة البدنية واللعب الجميل ، حتى لا يموت قلبه وتسوء معيشته .

٦ ـ يجب أن يعود الأخلاق الجميلة ، والعادات الحميدة ، ويجنب الرذائل والمساوئ ، ويحفظ من قرناء السوء .

٧ ـ يجب أن يكافأ على كل خلق جميل أو فعل حميد يظهر منه ، والاقتصاد فى لومه وتعنيفه عند وقوع الذنوب .

٨ ـ يحسن التدرج فى ترك الأخلاق السيئة إذا صعب تركها مرة واحدة .

٩ ـ ينبغى ألا يدع المعلم شيئا من نصح المتعلم ، وأن يزجره عن سوء الخلق بطريق التعريض لا التصريح ، وبطريق الرحمة لا التوبيخ .

١٠ ـ يجب ألا يدع المتعلم فنا إلا وينظر فيه نظرا يطلع به على غايته ، ثم يتبحر فيه إذا ساعده العمر .

١١ ـ يجب الابتداء بالأهم من العلوم ؛ فإن العمر لا يتسع لجميعها .

١٢ ـ ينبغى ألا يخوض المتعلم فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله .

وهذه كلها آراء سديدة ، ونصائح ثمينة ، وإرشادات منطقية ، نرجو أن يعمل بها المربون والمربيات من آباء وأمهات ، ومعلمين ومعلمات .

آراء علماء الإسلام فى بعض الغرائز وتربيتها وهى تتفق مع آراء علماء النفس اليوم :

إن من يطلع على ما خلفه علماء الإسلام من كتب يرى كثيرا من الآراء لهم فى الغرائز وتربيتها ، والدراسات للقوى الإنسانية وصلتها بالتربية الخلقية . فهم يقولون إن فى الإنسان :

١ ـ قوة للتمييز والتفكير .

٢ ـ وقوة غضبية ـ تشمل : الغضب ، والنجدة ، والإقدام ، وحب التسلط ، والترفع .

٣ ـ وقوة شهوية تشمل طلب الغذاء وأنواع اللذات الحسية .

ولا يرون شرا فى الشهوات أو الغرائز إلا إذا زادت على حد الاعتدال ، فالغزالى مثلا يرى أن الشهوة ـ وهى لديه الغريزة ـ خلقت فى الإنسان لفائدته ، وأنها ضرورية فى الجبلة أو الطبيعة .

ويرى عبد الرحمن بن الجوزى فى كتاب الطب الروحانى (ص ٣) أن جميع ما وضع فى الآدمى إنما وضع لمصلحته ، إما لاجتلاب نفع كشهوة الطعام ، أو لدفع ضرر كالغضب ، فإذا زادت شهوة الطعام صارت شرَهاً فآذت . وإذا زاد الغضب أخرج إلى الفساد .

وإننا نوافق الغزالى وابن الجوزى فى أن الغرائز خلقت فى الإنسان لمصلحته ، وأنها ضرورية له ، ويجب ألا تزيد على حد الاعتدال . ومعنى هذا أنه يجب تعديلها ، وتربيتها وتعليتها ، كما يقول علماء النفس اليوم .

ويرى ابن الجوزى أيضا أن الأصل فى الأمزجة الصحة ، وأن العلل طارئة ، وأن أقوم التقويم (أى أحسن التربية) ما كان فى الصغر ، فإذا ترك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن كان رده صعبا .

وإننا نعتقد أن هذه الآراء لا يستطيع أحد أن ينكرها من علماء النفس والتربية الآن .

والغزالى يرى أن الطفل يتقبل الخير والشر ، ولا يدرك فى طفولته الفرق بينهما حيث

يقول : « وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال ، وإنما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

فالغزالى يقول بأثر التربية فى تهذيب الغرائز والميول الفطرية وتربيتها ، وتشجيع ما يستحق منها التشجيع ، وتعديل ما يحتاج إلى تعديل ، ولا يقول بكبتها ، ويعتقد أن كل طفل يولد معتدلا ، قابلا للخير والشر ، يتأثر بالبيئة التى يعيش فيها ؛ فإن كان فى بيئة يهودية نشأ يهوديا ، وإن كان فى بيئة نصرانية أو مجوسية كان نصرانيا أو مجوسيا ، وإن نشأ فى بيت إسلامى كان مسلما يدين بالإسلام .

وهذا هو المقصود بقول الرسول الكريم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . » وهى آراء ناضجة صحيحة لفلاسفة الإسلام نادوا بها منذ قرون طويلة ، وهى لا تختلف عن آراء المحدثين فى علم النفس .

ولا يمكننا أن ننسى قول الغزالى : « إن النواة ليست بتفاح ولا نخل قبل أن نتعهدها بالغرس والتربية ، على أن التربية لا يمكنها أن تغير من استعداد النواة لقبول بعض الأحوال دون بعضها الآخر ، فتجعل من نواة النخل تفاحا ، ومن نواة التفاح نخلا . فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر — لم نقدر عليه أصلا ، ولو أردنا سلاستهما وقودهما « قيادتهما » بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه » .

ومن هذا نرى أن الغزالى قد أدرك تمام الإدراك الوراثة وقوانينها ، والتربية وأثرها ، والكبت وضرره ، وأقر بأثر التربية والتهذيب ، فنواة التفاح تنبت تفاحا ، ونواة النخل تنبت نخلا ، ولكنهما فى حاجة إلى من يتعهدهما بالغرس ، والتربية ، والرقابة والعناية . على أن التربية لا تستطيع أن تغير الوراثة ، وتجعل من نواة النخل تفاحا ، ومن نواة التفاح نخلا . ومعنى هذا أن للوراثة أثرا كبيرا فى حياة الإنسان ومظهره ، فهو يشبه أباه وأمه أو جده أو جدته من الطرفين[1] فى الصفات الجسمية والعقلية ، وأبناء الأذكياء أذكياء ،

---

(١) من جهة الأب أو الأم .

وأبناء المتوهين معتوهون . وقد ثبت هذا كله فى علم النفس العام . ومن قوله نستنبط : أن قمع الغضب وقهر الشهوة وكبت الغرائز بالكلية تضر الطفل كل الضرر ، ومن الخير أن نقوده بالإرشاد والنصح والتهذيب والمحاولة ، حتى تهذب ما لديه من غضب أو شهوة أو غريزة جامحة .

وقد اهتم فلاسفة الإسلام بالفروق الفردية بين الأطفال ؛ تلك الفروق الناشئة عن الاختلاف فى الوراثة أو الاختلاف فى الميول والاستعدادات الفطرية . وأدركوا تلك الفروق الفردية وراعوها فى التربية والتعليم ، وقاموا بما ينادى به علماء التربية الحديثة فى النصف الثانى من القرن العشرين فى وقت كان يقول فيه أحد الفلاسفة من الأوروبيين فى القرن الثامن عشر : « التربية تستطيع أن تفعل كل شىء » ناسيا الوراثة وأثرها ، والاستعدادات الفطرية لدى النشء . وماذا تستطيع التربية أن تفعل مع طفل ضعيف العقل ، أو معتوه ، أو فى منتهى الغباوة ؟

إن التربية الحديثة بما أوتيت من وسائل مشوقة ، وأنظمة جميلة ، وطرق جديدة لا تستطيع مطلقا أن تفعل شيئا مع هذا النوع المسكين من الأطفال . ولا يمكنها أن تحول المعتوه إلى طفل ذكى أو فائق الذكاء ، مهما تحاول ، ومهما تقدم له من العناية والتربية .

وقد كان فلاسفة الإسلام فى دراستهم للغرائز والميول الفطرية متفائلين ، فلم يقولوا كما قال فلاسفة أوروبة فى القرون الوسطى إن الميول الغريزية والطبيعة البشرية فاسدة ، بل تفاءلوا كل التفاؤل ، وبحثوا تلك الميول والغرائز ، ودرسوها دراسة عميقة ، ثم استنبطوا فى نهاية البحث أن من الممكن تربيتها وتهذيبها ، وأن لها فوائد لا يستطيع أحد الاستغناء عنها ، فشهوة الطعام تؤدى إلى المحافظة على الحياة ، والغريزة الجنسية لو زالت من العالم لحكم على الإنسان بالفناء . ولو فقدت غريزة الغضب — وهى المقاتلة — ما استطاع النوع الإنسانى الدفاع عن نفسه . وإن من يطلع على ما قاله فلاسفة الغرب فى الميول والاستعدادات الفطرية قديما يجد أنهم نادوا بكبتها وقمعها ، والقضاء عليها ، فى حين أن فلاسفة الإسلام لم يقولوا بالكبت والقمع ، بل اتخذوا الحد الوسط ، ونادوا بتربيتها وتهذيبها وتعليمها ، ورأوا

الاعتدال فى معالجتها ، وهذه هى الفضيلة عينها . وبهذا الرأى اتفقوا مع المحدثين من علماء النفس فى عصرنا هذا .

وقد وضح الإمام الغزالى أن الرسل ـ وهم معصومون من الخطأ ـ لم ينزهوا عن الغضب ، وأن الرسول الكريم محمد بن عبد الله كان يغضب للحق ، ويحمر وجهه من الغضب ، ولكنه مع غضبه كان يمالك نفسه ، ويضبط شعوره ، ولا يصدر عنه إلا الحق دائماً .

وخلاصة القول أن التربية الإسلامية لم تعمل على قمع الغرائز وكبتها ، ولكنها عملت على تعديلها وتربيتها وتهذيبها ، وتوجيهها بالإرشاد والنصح إلى الطريق المستقيم ، وإخضاعها لسلطان العقل والتفكير والحكمة ، وإدخال القوة الناطقة وهى التفكير لدى الإنسان فى الحكم والتوجيه . فالقدامى من فلاسفة الإسلام كانوا يسبقون القرن العشرين بمئات السنين ، ومع هذا كانوا يتفقون مع علماء النفس فى هذا القرن فى الوسائل التى بها تربى الغرائز والميول الفطرية فى الإنسان .

التربية الإسلامية وأثرها فى النهضة العلمية والعقلية :

لا يستطيع أحد أن ينكر أن للتربية الإسلامية أثراً كبيراً فى النهضة العلمية والعقلية ؛ فقد ترك علماء الإسلام أثراً خالداً فى الفقه الإسلامى ، وألفوا كتباً مفصلة وموجزة فى المذاهب الأربعة للأئمة : أبى حنيفة والشافعى ومالك وأحمد بن حنبل . وإن من يطلع على تلك المؤلفات النفسية يجد تراثاً ضخماً فى التشريع الإسلامى والعبادات والمعاملات ، وبتحديد العلاقات الروحية والاجتماعية والعملية الخاصة بالإنسان : ويدل ذلك التراث على عظمة علماء الشريعة الإسلامية ، وقدرتهم النادرة على البحث والتفكير والاستقراء والاستنباط والحكم والتعليل ، ومثابرتهم العظيمة على الدراسة الفقهية التشريعية التى تتفق مع الدين والعقل والمنطق .

ولم يكتفوا بما ألفوه من كتب قيمة فى الشريعة الإسلامية ، بل وضعوا قوانين اللغة العربية وقواعدها من النحو والصرف ، والمعانى والبيان والبديع ، والعروض والقوافى . واستنبطوا

تلك القواعد والقوانين بطريقة مبتكرة دقيقة، تدل على عقل منظم، وتفكير سديد ، ورأى ناضج ، وإلمام تام بكل ما يتعلق باللغة العربية ، لغة القرآن الكريم من نثر وشعر . ولم يترك هؤلاء العظماء من العلماء صغيرة ولا كبيرة فى اللغة إلا بحثوها ودققوا الفحص عنها. وتفننوا فى الشعر وبحوره ، وحددوا أسسه وقوانينه بدقة متناهية .

وفى تفسير القرآن الكريم وشرح الأحاديث النبوية ألفوا كتبا قيمة ، وشروحا كثيرة مفصلة ومختصرة فى نواح متعددة ، تبرهن على ما أوتى الفقهاء وعلماء الإسلام من عظمة عقلية ، وذكاء فائق، وصبر نادر، ومقدرة علمية على البحث والتأليف، والتبيين والتوضيح .

ولم يكتف العلماء بما ألفوه من الكتب فى العلوم الدينية ، بل أسهموا فى تدوين آثارهم وأعمالهم العمرانية والسياسية والاجتماعية ، وتركوا آثارا خالدة فى كتب التاريخ والجغرافيا ، وكان لهم أثر كبير فى كتابة التاريخ الإسلامى ودراسة الشعوب والبلدان دراسة جغرافية واسعة .

ولم يكن فلاسفة الإسلام ضيقى العقول ، محدودى الأفق فى التفكير ، بل كانوا واسعى الاطلاع ، غزيرى المادة ، شغوفين بالعلوم العربية والأجنبية ، فاطلعوا على كل حضارة قديمة ، ودرسوها دراسة مستفيضة ، وقرءوا قراءة عميقة ما كتبه المصريون القدماء والفرس والهنود والإغريق من طب وطبيعة وكيمياء وفلك ورياضة وفلسفة وموسيقا ، وأضافوا إلى ما درسوه وما قرءوه كثيرا من الآراء والأفكار ، والتجارب والنظريات ، وخاصة فى الطب والطبيعة والكيمياء والرياضة فى عصر الإمبراطورية الإسلامية. وكانت مؤلفات العلماء من المسلمين فى تلك العلوم واضحة وضوحا تاما ، فيها كثير من التجارب ، وتطبيق النظريات العلمية . ولا نبالغ إذا قلنا إن علماء الإسلام قد خدموا العلوم ببحوثهم العلمية خدمة عظيمة لا يستطيع أن ينكرها أحد . وإن البحوث التى قاموا بها لا تقل فى أهميتها العامية عما قام به علماء أوروبة .

التربية الدينية والواجب نحوها

التربية الدينية :

كانت التربية الدينية مهملة كل الإهمال فى مدارسنا ، ولم تبدأ العناية بها والتفكير فيها إلا اليوم . ولاختلاف التلاميذ فى دياناتهم كانت هذه التربية تحاط بكثير من الصعوبات . ولكى تكون التربية الدينية مثمرة فى الطفولة يجب أن ننحو فيها الناحية العملية أكثر من الناحية الإخبارية ؛ فإن الطفل فى المرحلة الأولى من التعليم لا يمكنه أن يفهم كثيرا من العقائد ؛ لأنها أمور فلسفية فوق مستواه . ولكننا نستطيع أن نوجهه إلى الناحية الدينية ، بالطريقة العملية ، طريقة القدوة والمحاكاة والأُسْوَةُ الحسنة .

ويجب أن يكون التلاميذ لدينا بمنزلة واحدة ، مهما تختلف دياناتهم ، وتتباين عقائدهم ، فيجب أن ننظر إلى الجميع نظرة واحدة ، نظرة مساواة ، من غير تدخل فى الناحية الدينية ، فالدين لله . وقد خاطب الله نبيه الكريم بقوله جل شأنه : « إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » .

والمهم أن نكوّن من الأطفال رجالا أمناء ، يتحلون بالفضيلة ، ويتجنبون الرذيلة ، فكل طفل ينشأ على الدين الذى يعتنقه أبواه . قال تعالى : « إنا وجدنا آباءنا على أمّة (أى على دين وملة) ، وإنا على آثارهم مهتدون » ، فى سيرنا على دين آبائنا . وقال جل شأنه : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » . والضمير فى (قالوا) يعود على الكفار . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ؛ وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسانه » .

فكل مولود يولد قابلا للخير والشر ، قابلا لأن يسير فى طريق الفضيلة ، أو طريق الرذيلة ، ولأبويه تأثير كبير فى عقيدته الدينية . فإن كانا يهوديين نشأ يهوديا ، وإن كانا نصرانيين حاكاهما فى النصرانية ، وإن كانا مسلمين نشأ مسلما . فنحن فى المدرسة سنربى التلاميذ تربية دينية موافقة لدياناتهم .

وإن الغرض من التربية الدينية هو إعداد الفرد لأن يعيش ويحيا حياة كاملة ، بحيث يتعلم أدب الدنيا ليحيا فيها ، وأدب الدين ، ليكون متصلا بالله فى كل حين ، ويخاف الله فى السر والعلانية ، ويكون قوى الجسم ، مرتب الفكر ، يعرف كيف يتعاون مع غيره ، وكيف يدبر شئونه بنفسه ، وكيف يقوم بواجبه نحو أمته ووطنه ، وكيف ينتفع بما وهبه الله له من مواهب ، وكيف يستخدم كل قواه بما ينفع نفسه وغيره ، وكيف يقدر الطبيعة وما فيها ، وبعبارة موجزة : يعرف كيف يحيا حياة كاملة .

ولسنا فى حاجة إلى الإسهاب فى بيان أثر الدين والتربية الدينية فى سلوك الإنسان فى حياته ، فقد أجمع العلماء والفلاسفة على أن الدين أقوى دعامة فى النهوض بالأخلاق والتربية الخلقية بين الأفراد والجماعات . وإننا نعلم أن الشعور الدينى استعداد فطرى فى طبيعة الإنسان. وإن الإنسان وحده هو الذى انفرد بهذه النزعة الدينية ، دون غيره من المخلوقات .

وإن الدين لدى الأطفال له مميزات خاصة ، ويختلف عن الدين لدى الشباب ، وقد خلق الله الإنسان متدينا بسليقته وفطرته ، ولكن دينه لا يتكيف بصورة واحدة فى أطوار نموه. ومن الواضح أن الأفق العقلى للطفل محدود ، وتجاربه فى الحياة محدودة ، ومعرفته للعالم قاصرة ومحدودة ، وليس فى استطاعته أن يدرك حكما عقليا عاما ، ولكن فى استطاعته أن يدرك الأمور الحسية ، فلا عجب إذا قلنا إنه يصعب عليه أن يدرك الألوهية ومعناها ، وهو مع هذا يتحدث عن الإله ، والله ، ويخاف الله ، كما يتحدث عن أى شىء آخر يبعد عن مستواه العقلى . ولا يجد صعوبة حينما تقول له : إن الله يراك ولا تراه ، وإنه عالم بجميع ما تعمل ، وإنه قريب منك . يسمع الطفل هذا كله ، فيقبله ، ولا يعترض عليه . وإذا اعترض فمن السهل إقناعه بأى جواب . فالطفل يفكر فى الله سبحانه وتعالى بالطريقة التى يفكر بها فيه أبواه ، فهو يحب الله ويطيعه ، ويؤدى ما أمره الله به حبا لرضاه ، كما يفعل مع أبويه ومعاميه ومعلماته ، فدين الطفولة دين فطرى ، محدود بعقلية الطفل وأفكاره المحدودة ، وعجزه عن تقدير المشكلات التى يقدرها عقل الشاب .

وهناك فرق بين دين الطفولة ودين الشباب ، كالفرق بين تفكير الطفل وتفكير الشاب ،

وتجارب الطفولة وتجارب الشباب ؛ فإن للفتيان والفتيات ميلا قويا إلى الناحية الروحية ، يحسونها فى الأنهار والبحار ، والأزهار والأشجار ، وغيرها من ظواهر الطبيعة . لهذا كان دين الشباب قريبا كل القرب من الروحية ، أما فى عهد الرجولة فإن الإنسان يميل فى حياته الدينية إلى مبادئ خلقية ثابتة ، وقواعد سلوكية مستقرة ، رغبة فى استقرار الحياة ؛ فالطبيعة أو الفطرة مسيطرة على دين الطفل ، والروحية غالبة فى دين الشباب، أما فى الرجولة فيكثر التفكير فى استنباط أحكام منطقية ، ووضع نظام ثابت مستقر . لهذا قيل إن دين الطفولة طبيعى ، ودين الشباب روحى ، ودين الرجولة فقهى وتشريعى .

وإن الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية التى كانت تقرأ وتتلى وتحفظ بشكل آلى فى عهد الطفولة ، لعجز الطفل عن إدراكها وفهم معانيها، تترك الآن فى نفوس الفتيان والفتيات أثرا عميقا ، ويسألون عن تفسيرها ، ويشتاقون إلى فهم المراد منها .

وفى دور الشباب يجب أن نوسع ثقافة الطالب من الناحية الدينية ، حتى نرى أثر التربية الدينية فى أخلاقه وأعماله . وإن الشبان حقا فى كثير من الحاجة إلى تربية دينية تجتذب عقولهم ، وتسمو بأرواحهم ، وتعينهم على حل ما يعترضهم من المشكلات الخلقية والاجتماعية . وإن أول واجب على المدرسة فى كل مراحلها أن تعمل على بث الميل الدينى فى نفوس الطلبة والطالبات، وتساعد فى تربيتهم تربية دينية قوية ؛ كى ترسخ العقيدة الدينية فى قلوبهم ، ويظهر أثرها فى أخلاقهم وأعمالهم .

واجبنا نحو التربية الدينية :

إن للمربين والمربيات من آباء وأمهات ، ومعلمين ومعلمات كل الأثر فى تربية الأبناء والبنات تربية دينية كاملة . فالمربى قدوة للناشئين ، يحاكونه فى أقوله وأفعاله ، وحركاته وسكناته ، فيجب أن يكون متمسكاً بدينه ، متحلياً بالفضيلة ، متجنباً كل رذيلة ، فالأطفال يحاكونه من حيث لا يشعرون . ويتأثرون بأخلاقه وسلوكه من حيث لا يقصدون . ولن يكون له تأثير طيب ونفوذ حسن إلا إذا تحلى بالأخلاق النبيلة ، والصفات السامية .

ولن ننتظر من رجل ملحد أن ينجح فى تربية النشء تربية دينية، ولن ننتظر من رجل يميل إلى الرذيلة أن يعمل على نشر الفضيلة . وهيهات أن ينجح المربى فى إرشاداته الدينية إذا لم يكن هو متمسكا بالدين ، عاملًا به . فنحن ننتظر منه أن يعمل بما يعلم ، ويتمسك بما يرشد به غيره ، فلا يعمل ضد ما يقول ، ولا يعمل بما يخالف الفضائل التى ينادى بها .

والأطفال يشعرون بمـــا يشعر به المربون ، ويشاركونهم فى أعمالهم ، ويحاكونهم فى آرائهم . فينبغى ألّا يقول المربى إلا ما يعتقد ، ولا يعتقد إلا ما يقول ، حتى يكون لتعليمه أثر فى نفوس تلاميذه . ويجب أن يكون مخلصاً فى تعليمه الدينى كل الإخلاص ، معتقدا فى دينه بقلبه ولسانه ، واثقا بالله ووحدانيته وقـــدرته وعظمته و . . . ـ كل الثقة . وإذا كان مسلما وجب أن يكون مجيدًا لحفظ القرآن الـكريم ؛ فاهماً لآياته الـكريمة، وما ترمى إليه من المقاصد والأحكام ، مدركا لمعانى الأحاديث النبوية وأغراضها ، باذلًا جهده فى تقريب دروسه إلى أذهان تلاميذه . حتى يفهموها حق الفهم ، وألا ينظر إلى دروس الدين نظرة تهاون ؛ فإن إهمال التربية الدينية فى البيت والمدرسة والمجتمع قد أدى إلى كثير من تدهور الأخلاق ، وسوء السلوك ، والانحراف عن الطريق المستقيم .

ولو عنينا بالتربية الدينية العناية اللائقة بها لـكوّنّا شعبا كامل الخلق ، يعرف ما له من حقوق ، ويقوم بما عليه من واجبات . فيجب أن نعنى بدروس التربية الدينية أكثر من عنايتنا بالمواد العلمية والرياضية والأدبية ؛ فإن فى الآيات القرآنية ، والأحاديث المحمدية ، والقصص الدينية ، ذخيرة لا تنفد ، يمكن الانتفاع بها فى دروس الدين لبث الفضيلة فى نفوس الشباب .

وإننا ننتظر من المربى أن يصور المعلومات الدينية للمتعلمين تصويرا سهلا ، بعيدا عن الخفاء ، متفقا مع العقل والمنطق ، وأن يكون ملمًّا بالحقائق الدينية والتاريخية ، شاعراً بعظمة القرآن الـكريم ، وبلاغته التى دونها كل بلاغة ، ناظراً إلى المثل الدينية العليا ، وما تصوره

من الناحية الإنسانية . فنى الدين الإسلامى مثل عالية لا نهاية لها ، وفى الأخلاق الإسلامية كل فضيلة . وفى التاريخ الإسلامى كثير من مواقف البطولة ، والعظمة الرائعة ، التى يستطيع الشبان أن يحتذوا حذوها ، ويقتفوا أثرها . وإذا عنى المدرس بالتربية الدينية فى المدرسة ، وعنى الوالدان بها فى البيت ـ استطاعت المدرسة والبيت مجتمعين العمل على رفع المستوى الخلقى بين الشباب فى عصرنا هذا .

وفى الإسلام ثروة عظيمة يجب أن ينتفع بها الشبان ، فروح الإسلام ، والمثل العليا فى الإسلام ، والآداب والأخلاق الإسلامية ، ونظام الأسرة فى الإسلام ، وحقوق المرأة فى الإسلام ، (والديمقراطية) فى الإسلام ، وعظمة الرسول ، وسير الخلفاء الراشدين ، وأبطال الإسلام ـ كل هذه ثروة روحية دينية ، يستطيع الشباب أن يدرسها دراسة مستفيضة ، حتى يشعر بروح الإسلام ، وعظمته .

ولكى تثمر التربية الدينية ثمرتها المرجوة يجب أن تربط الدراسة بالحياة ، وأن تعمل على توثيق الصلة بين الدين الإسلامى والحياة . فليس الدين جزءا من الحياة ، وليس منفصلا عن الحياة ، ولكنه متصل بالحياة كل الاتصال ، غير أنه فى حاجة إلى من يفهمه ، ويدرك روحه .

إن الإسلام دين كامل ، دين المستقبل ؛ لأنه دين الله ، دين الحق ، دين رب العالمين ، دين يأمر بالعدالة والإحسان ، والتعاون على البر والتقوى ، والحرية والإخاء والمساواة ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والعدوان ، ويقف ضد الاستعباد والتنازع والتفرقة العنصرية . وواجبنا أن نبث روح الإسلام فى نفوس الشباب ، حتى يرسخ فى قلوبهم ، ونصل إلى الكمال ، ويسود السلام ، وينتصر الحق على الباطل .

مراحل تربية الطفل فى الإسلام :

ومن الحديث الآتى نرى الخطة التى وضعها المصطفى — وهو أعظم المربين — لتربية الأطفال .
قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الغلام يُعَقّ[(١)] عنه يوم السابع ، ويُسمَّى ، ويُماط[(٢)] عنه الأذى ، فإذا بلغ ست سنين أُدِّب[(٣)] . فإذا بلغ سبع سنين[(٤)] عزل فراشه . فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضرب على الصلاة والصوم . فإذا بلغ ست عشرة سنة زوّجه أبوه ، ثم أخذ بيده ، وقال (له) : قد أدبتك ، وعلمتك ، وأنكحتُك . أعوذ بالله من فتنتك فى الدنيا ، وعذابك فى الآخرة » .

فالمرحلة الأولى من الطفولة هى أهم مرحلة فى تربية الطفل جسميا وخلقيا ، وفى تعويده أحسن العادات ، وأكرم الأخلاق ، وأجمل النظم . فيعنى الوالدان بصحته وبنمو جسمه ، وتغذيته تغذية صحيّة . ويعوّد أدب الحديث ، وأدب السؤال ، بأن يقول : « من فضلك » إذا طلَب شيئا من أحد ، ويشكره قائلا : « أشكرك » إذا أعطاه ما طلَب ، وحقق رغبته . ويبدى أسفه ويقول : « أنا آسف » إذا حدث منه ما يوجب الأسف والاعتذار . ويعوّد آداب الأكل ؛ بأن يغسل يديه قبل الطعام ، ويقول : بسم الله الرحمن الرحيم فى البدء ، ويحمد الله ويقول : « الحمد لله » فى نهاية الطعام . ويعتاد النظام فى الجلوس ومواعيد النوم واليقظة .

فإذا بلغ ست سنين أُدِّب وهُذِّب ، وأرسل إلى المدرسة للتعلم ، ورُبِّىَ تربية كاملة جسمية وعقلية ووطنية وخلقية وروحية واجتماعية وعملية بحيث يعدُّ للحياة العملية التى تنتظره .

فإذا بلغ سبع سنين عزل فراشه ، وجعل فى حجرة خاصة به ، وعُلِّم الوضوء ، وعُوِّدَ الصلاة فى أوقاتها الخمسة ، وشُجع على التعلم والدراسة ، وجعل فى بيئة حسنة ، بحيث يُحاط فى البيت والمدرسة بمن يكونون خير قدوة له فى القول والعمل .

---

(١) يُعقّ عنه : تذبح له شاة فى اليوم السابع من ولادته ، وتُسمَّى الشاةُ عَقيقةً .
(٢) يُماطُ عنه الأذى : يُبْعَد عنه الأذَى .   (٣) رُبِّىَ وهُذِّبَ وعُلِّم .
(٤) وفى رواية أخرى : فإذا بلغ تسع سنين .

فإذا بلغ ست عشرة سنة ، شجعه أبوه على القراءة، والصلاة ، وصاحبه فى ذهابه وإيابه .
ونصحه أبوه على انفراد إذا أخطأ ، وأظهر له حبه وعطفه . ولكى يكمل دينه يشجع على الزواج المبكر .

وبعد الزواج يجب أن يعتمد على نفسه ، ويكسب معيشته بعرق جبينه ، ولا يفتتن بالدنيا؛ كى لا يعذب فى الآخرة .

ويمكنه أن يستمر فى دراسته بعد الزواج، حتى يصل إلى ما يريد من الناحية العلمية ، أو العملية ، وينال أعلى الدرجات الجامعية .

الفصل الرابع
الإسلام والعلم

الدين الإسلامى يأمر بتعميم التعليم :

إن الدين الإسلامى دين علم ونور لا دين جهالة وظلمة ، فأول آية نزل بها الوحى فيها أمر للرسول بالقراءة ، وتكرير لذلك الأمر ، وتنويه بشأن العلم والتعليم ، نلمسه فى إسناد التعليم إلى الله تعالى : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وقوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم : « وقل رب زدنى علماً » ، وقوله : « شهدَ اللهُ أنهُ لا إلهَ إلا هوَ والملائكةُ وأُولو العلمِ قائماً بالقسط . » فبدأ عز وجل بنفسه ثم ثنَّى بالملائكة ، ثم ثلث بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً ونبلاً . وقال تعالى : « وتلكَ الأمثالُ نضربُها للناسِ وما يَعقِلُها إلا العالمون » . أى ولا يفهمها إلا العلماء المثقفون . وفى مواطن كثيرة نوَّه القرآن الكريم بشأن العلماء وما لهم من منزلة رفيعة ، ومكانة سامية فقال : « هلْ يَسْتَوِى الذينَ يَعلمُونَ والذين لا يَعلمون » ، وقال : « يرْفعِ اللهُ الذينَ آمنُوا منكم والذين أوتوا العلمَ درجاتٍ » .

فالعلم مقدس فى نظر الإسلام ، وهو أسمى شىء فى الحياة لدى المسلمين . وللعلماء العاملين منزلة فى الإسلام تلى منزلة الأنبياء . قال الرسول الكريم : (العلماء ورثة الأنبياء) . فرتبة العلماء تلى رتبة الأنبياء . وقد قيل إن العلماء يشفعون للناس يوم القيامة بعد الأنبياء ، قال صلى الله عليه وسلم : (إن مداد العلماء خير من دماء الشهداء) .

وقد دعا الرسول الكريم إلى التعليم وأوجبه فقال : (علموا أولادكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم) . ولم يفرق الإسلام فى طلب العلم بين الأبناء والبنات ؛ فقد قال رسول الله : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) من غير تفرقة بينهما ، فالدين الإسلامى

يطالب المسلم والمسلمة بالتعلم وطلب العلم والعمل به ، والاجتهاد في نشره . ولم يقف الإسلام عند الدعوة إلى نشر العلم والتعليم فحسب ، بل دعا إلى الاستمرار في طلب العلم والتعلم والبحث والاطلاع ، فقال الرسول : (لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل). وقال: (يستغفر للعالم ما في السماوات والأرض) ، قال الغزالي تعليقاً على هذا الحديث: وأي منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السماوات والأرض بالاستغفار له ؟ فالعالم مشغول بنفسه ، والملائكة مشغولون بالاستغفار له .

وكان صلى الله عليه وسلم ، يشجع التعليم بعمله وقوله ، فقد كان يطلق سراح الأسرى المتعلمين من الكفار إذا علموا بعض المسلمين القراءة والكتابة ، حرصاً منه صلى الله عليه وسلم على ذيوع التعليم ونشره بين جمهرة المسلمين ، ولم يفته أن يعطى المرأة حظها ونصيبها في تعلم القراءة والكتابة . فقد سأل الشفاء العدوية أن تقوم بتعليم زوجه السيدة حفصة القراءة والكتابة ، ضارباً بذلك أحسن الأمثال لأمته في وجوب تعليم الفتيات .

وقد خرج صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين : أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ، ويرغبون إليه ، وفي الثاني جماعة يعلمون الناس فقال : (أما هؤلاء فيسألون الله فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس . وإنما بعثت معلماً) . ثم عدل إليهم وجلس معهم . وبذلك ضرب النبي لنا خير مثل في تشجيع العلم ، ونشر التعليم ، والإشادة بفضل المعلمين . وحسبك أن تعلم أن العلم في نظر الرسول الكريم قوام الدنيا وقوام الدين ، حيث قال : (من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم) . وقال أيضاً : (الناس رجلان : عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما) . وقال صلى الله عليه وسلم : (لموت قبيلة أيسر من موت عالم) . وقال : (فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب) . وقال : (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع) . وقال : (تعلموا العلم فإن تعلمه لله حسنة ، ودراسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه عبادة ، وتعليمه صدقة ، وبذله لأهله قربة) . وكلها أحاديث تشيد بفضل العلماء العاملين ، وتحث على طلب العلم ، وتدل على أن الإسلام يطالب بالتعليم ، ونشر العلم ، والتخلص من الجهل والأمية .

وفى الأثر : أفضل الناس المؤمن العالم الذى إن احتيج إليه نفع ، وإن استُغنى عنه أغنى نفسه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الإيمان عريان ولباسه التقوى ، وزينته الحياء ، وثمرته العلم » .

وقال على كرم الله وجهه : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم فى الإسلام ثُلمة(١) لا يسدها إلا خلف منه .

وقد ورد فى الأثر : مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم فى السماء ، يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة .

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : كن عالما أو متعلما أو مستمعا ، ولا تكن الرابعة (جاهلا) فتهلك .

وقيل : علِّم علمك من يجهل ، وتعلَّم ممن يعلَم — ما تجهل ؛ فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلتَ ، وحفظت ما علمت .

وقال الحسن بن على رضى الله عنهما : لا تكن ممن يجمع علم العلماء ، وطرائف الحكماء ، ويجرى فى العمل مجرى السفهاء .

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لكميل : يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق . وقال نظما :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعشْ حيًّا به أبدا ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أيضا ، وأشار إلى صدره : إن ههنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حَمَلة . وقد صدق رضى الله عنه ؛ فقلوب الأبرار قبور الأسرار .

---

(١) الثلمة : الخلل .

وقال عمر رضى الله عنه : يأيها الناس عليكم بالعلم ، فإن لله سبحانه رداء يحبه . فمن طلب بابا من العلم رداه الله عز وجل بردائه . ولا عجب فبالعلم تحيا القلوب بنور الحكمة ، كما تحيا الأرض بوابل السماء .

وقال بعض الحكماء : إذا مات العالم بكاه الحوت فى الماء ، والطير فى الهواء ، ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره . وقيل : كن عالما أو متعلما أو مستعلما ولا تكن جاهلا فتهلك .

وقال الحسن رضى الله عنه : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم . وهو يقصد أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد الحيوانية إلى حد الإنسانية .

وقيل : تعلموا العلم ؛ فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة . وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء . . . والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة سادة ، هداة يقتدى بهم ، أدلة فى الخير ، تقتص آثارهم ، وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة فى خُلتهم[1] . وبأجنحتها تمسحهم ؛ لأن العلم حياة القلوب، ونور الأبصار، به يبلغ الإنسان منازل الأبرار، وبه يطاع الله عز وجل ، وبه يعبد ، وبه يوعد، وبه يوحد ، وبه يمجد، وبه توصل الأرحام ، ويُلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء .

وقد خير حكيم من كبار الحكماء بين المال والملك والعلم .

فاختار العلم ، فأعطى الملك والمال لاختياره العلم . وقد رأى ابن مسكويه والغزالى ـ وهما من علماء الإسلام ـ أن العلم غذاء للروح ، وغذاء للعقل، وعد ابن خلدون العلم والتعليم طبيعيا فى العمران البشري وقال : (إن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات فى حيوانيته من الحس والحركة والغذاء . . وغير ذلك وإنما تميز عنها بالفكر . . وعن هذا الفكر تنشأ العلوم والصناعات) .

وكان الخلفاء من المسلمين يجلون الأدباء والعلماء ، ويغدقون عليهم المنح والعطايا . ومما يدل

(١) خلتهم . الخليل : الصديق .

على إجلالهم للعلم أنهم يحثون أبناءهم على تلقيه ويرغبونهم فيه ؛ فهذا عبد الملك بن مروان يوصى أبناءه فيقول : (يا بنى ، تعلموا العلم، فإن كنتم سادة فقتم ، وإن كنت وسطا سُدتم ، وإن كنتم سوقة عشتم) ، فالتعليم فى نظره يجعل السادة فائقين ، ويصير المتوسطين سادة ، ويمكن السوقة من كسب العيش والحياة .

وذاك مصعب بن الزبير يقول لابنه : تعلم العلم فإن لم يكن لك جمال كان لك جمالا ، وإن لم يكن لك مال كان لك مالا . فالعلم زينة من لا زينة له ، ومال من لا مال له .

وذلكم الرشيد يعهد إلى سيبويه بتأديب ابنه المأمون ، وإلى الأحمر وهو على بن الحسن بتأديب ابنه الأمين . ومن وصيته التى يجب على المربين أن يتخذوها نبراسا لهم فى تربية أبنائهم : (يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة . فكن له حيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه . ولا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه . وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباها فعليك بالشدة والغلظة) .

وفى هذه الوصية تتمثل الحكمة وسداد الرأى ، فهى تشير إلى منهج من أحسن المناهج الدراسية للمعاهد الثانوية ، فمن قراءة للقرآن الكريم إلى دراسة للتاريخ والأخبار ، ومن رواية للأدب والأشعار إلى تعلم السنن ، ودراسة اللغة وبلاغتها . ومن تربية دينية وأدبية وعلمية إلى تربية خلقية واجتماعية . وإن الجزء الأخير من الوصية خير دستور فى المعاملة الطبعية ، والعقوبة المدرسية حيث يقول : ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه . وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباها فعليك بالشدة والغلظة .

وقد أفاض الحكماء والأدباء والفلاسفة فى هذا السبيل . فالغزالى يقول : (من أصاب علما فاستفاده وأفاده كان كالشمس تضىء لنفسها ولغيرها وهى مضيئة) ، وليس يغيب عن

ذهننا ما قاله بعض حكماء الإسلام : (اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد ، اطلبوا العلم ولو بالصين) .

وقيل لأبى عمرو بن العلاء : (هل يحسن بالشيخ أن يتعلم) ؟ قال : (إن كان يحسن أن يعيش فإنه يحسن به أن يتعلم) ، ولا شك أن الطفل أولى من الشيخ فى التعلم .

وقال الغزالى رحمه الله[1] : « العلم يقتنى كما يقتنى المال . . فمن علم وعمل وعلّم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السماء ، فإنه . . . كالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب ، والذى يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذى يفيد غيره وهو خال عن العلم ، وكالمسَن الذى يشحذ غيره ولا يقطع ، والإبرة التى تكسو غيرها وهى عارية ، وذبالة المصباح تضىء لغيرها وهى تحترق ، كما قيل :

ما هو إلا ذبالة وقدت تضىء للناس وهى تحترق

وقد قيل فى الأثر : تعلموا العلم فإنه سبب إلى الدين ، ومنبه للرجل ، ومؤنس للوحشة ، وصاحب فى الغربة ، ووصلة فى المجالس ، وجالب المال ، وذريعة فى طلب الحاجة . فآثار العلم أنه يؤدى إلى الدين إذا عمل به ، وينبه الإنسان إلى ما ينفعه وما يضره ، ويؤنسه فى وحدته ووحشته ، ويكون صديقا له فى غربته ، ووصلة له فى المجالس والمنتديات ، ويجلب له المال ، ويكون وسيلة لطلب ما يحتاج إليه . وهى فوائد جليلة ، وآثار عظيمة .

وقال الشاعر :

يعد رفيع القوم من كان عالما وإن لم يكن فى قومه بحسيب
وإن حل أرضا عاش فيها بعلمه وما عالم فى بلده بغريب

فالعالم - وإن كان ذا أصل وضيع - يعد فى نظر الإسلام رفيعا حسيبا ؛ لأن الدين الإسلامى لا يفكر فى نسب أو حسب ، ولكنه يفكر فى علم وعمل ، وتقوى وطهارة . وإذا نزل بأرض استطاع أن يعيش فيها بعلمه ، وليس العالم غريبا فى أية بلدة من البلاد ، فالعلم أساس للنجاح فى هذه الحياة ، به يستطيع الفقير أن يصل إلى أكبر مركز ، وأعلى منصب فى الدول الإسلامية . فبالعلم والتعليم قلت الفروق الاجتماعية فى الإسلام ، وظهرت المساواة

(١) ارجع إلى الإحياء جـ ١ صفحة ٤٩

فى تكافؤ الفرص ، ولم يكن الفقر أو وضاعة النشأة عقبة فى الوصول إلى المراتب السامية ، والمناصب العالية فى العالم الإسلامى ؛ لأن الإسلام دين (الديمقراطية) الحقة ، والعدالة المطلقة ، والمساواة التامة .

إن الفتى من يقول هأنذا ليس الفتى من يقول كان أبى

فالمسلمون يحكم عليهم بعلمهم وعملهم ، لا بمولدهم وعنصرهم وأصلهم ، ولا تأثير للآباء والأجداد والأحساب والأنساب والغنى والفقر فى الحصول على المراكز الرفيعة فى الإسلام . فالعدالة واجبة . ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، والعمل الصالح ، والكفاية العلمية والخلقية .

ولا جدال فى أن التعليم حق من حقوق الإنسان ، وضرورة من ضرورات الحياة ، كالماء والهواء والغذاء ، فإذا أراد أن يعيش ويحيا وجب عليه أن يتعلم ، ووجب علينا القيام بتعليمه .

وإذا المعارف أشرقت فى أمة نالت أمانيها بغير توان

فإذا انتشر التعليم فى أمة من الأمم نالت أمانيها وحريتها واستقلالها ، وما استطاع مستعمر أن يقف فى سبيلها ، فالتعليم أفضل شىء يملكه أفضل الرجال . وخير وسيلة للنهوض بالأمم المتخلفة ، وأحسن منحة يمكن أن تمنح . والجهل أس الرذائل . فحياة الجهل موت . . والإنسان فى حاجة إلى العلم لأن العلم وسيلة الحياة .

لهذا كان علماء الإسلام يشجعون الطلاب على الدراسة والتعلم ، وجمع الحقائق واستنباط الآراء والأفكار وتطبيقها عمليا ، ويحثونهم على الرحيل والسفر الطويل فى سبيل طلب العلم والمعرفة .

الإسلام أول من دعا إلى محو الأمية :

الإسلام هو أول من دعا إلى محو الأمية بين المسلمين من العرب وغيرهم ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم قد جعل فداء الأسير الذى كان يعرف القراءة والكتابة فى غزوة بدر أن يعلمهما جماعة (عشرة) من المسلمين .

لماذا أمر الدين الإسلامى بالتعليم ؟

لقد أمر الإسلام بالتعليم فى أول آية نزلت على الرسول الكريم لأنه أول الواجبات ، وأكبر وسيلة للرقى وإصلاح العالم والشعوب ، إذا صحب العلمَ العملُ به ، قال الغزالى : لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها ولم يعمل بها لا تفيده إلا بالعمل . ولو قرأت العلم مائة ألف سنة ، وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعدا لرحمة الله إلا بالعمل ، فالغزالى لا يكتفى بالعلم ، ولكنه يؤكد أهمية العمل بالعلم . ويبدو ذلك من قوله : « الناس كلهم هلكى إلا العالمين . والعالمون كلهم هلكى إلا العاملين . والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصين . » فهو يتطلب من المسلم أن يتعلم ويعمل بما يعلم ، ويخلص فى عمله . ويقصد بالعمل صقل مرآة القلب عن قاذورات الدنيا ، وخبائث الأخلاق ، والتحلى بالأخلاق الحميدة ، من الصبر والشكر ، وحسن الخلق ، وطيب المعاشرة ، والإخلاص ، والزهد والتقوى ، واجتناب الصفات الذميمة ، من الجزع ، ونكران الجميل ، والحسد ، والحقد ، والغش ، والفخر والخيلاء ، والكبر والرياء . .

وقد شعر فلاسفة الإسلام بأثر العمل فى تثبيت العلم وزيادة أثره . قال الرسول الكريم : « وإنما يزهد الرجل فى علم يعلم قلة انتفاعه بما علم » . وقال النمرى القرطبى فى جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ١١٨ إن عالما من المسلمين قال : (أول العلم النية ، ثم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر) ، تعنى أن الإنسان ينوى التعلم ويقصده ، ثم يستمع لما يقوله العلماء ، ثم يفهم أقوالهم ، ثم يحفظها ، ثم يعمل بما تعلمه ، ثم ينشر ما تعلمه من الآراء والأفكار بين الناس . وهذا هو المثل الأسمى فى التربية والتعليم .

ولسنا فى حاجة إلى أن نذكر ثمرات العلم والتعليم ، ومضار الجهل والأمية ، فمن المحال أن ترقى أمة من الأمم إلا بتعميم التعليم . ولا وسيلة لإنقاذ الناس من شر الجهل والرذيلة إلا بالعلم والعمل ، فالمدنية والحضارة ، والتقدم فى العلم والاختراع ، والإبداع الذى نراه بأعيننا فى الأمم الراقية نتيجة التربية العامة ، والتعليم المنتشر بين جميع الطبقات .

وينبغى أن يكون المعلم عاملا بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله . وكل من تناول شيئا وقال

للناس : لا تتناولوه فإنه سم قاتل ، سخر الناس به واتهموه ، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه . ومثل العلم المرشد من المسترشدين مثل الظل من العود ، ومتى استوى الظل والعود أعوج ؟ ولذلك قيل فى هذا المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله — عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » ؟ ولذلك كان وزر العالم فى معاصيه أكبر من وزر الجاهل ، إذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها . ولذلك قال علىّ كرم الله وجهه : قصم ظهرى رجلان : عالم متهتك ، وجاهل متنسك ، فالعالم يغر الناس بتهتكه ، والجاهل يغرهم بتنسكه . قال صلى الله عليه وسلم : (لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا) . وقال أيضا : (من ازداد علما ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله إلا بعدا) .

وقال عمر رضى الله عنه : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم . قالوا : وكيف يكون منافقا عليما ؟

قال : عليم اللسان ، جاهل القلب والعمل .

وقال الحسن — رحمه الله — لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ، ويجرى فى العمل مجرى السفهاء . وقال رجل لأبى هريرة رضى الله عنه : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه . فقال : كفى بترك العلم إضاعة له .

وقال تعالى : « كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : ويل لمن لا يعلم مرة ، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات . وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال : حدثنى عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : كنا ندرس العلم فى مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (تعلموا ما شئتم أن تعلموا ، فلن يأجركم الله حتى تعملوا) . فالدين الإسلامى يأمر بطلب العلم والعمل بما نعلم . فالعلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر .

قال الشاعر :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهداً فالموبقات لعمرى أنت جانيها
تعيب دنيا وناساً راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقد قيل : لا تطلبوا علماً لم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم . ومثل الذى يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت فى السر ، فحملت ، فظهر حملها فافتضحت : فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله يوم القيامة على رءوس الأشهاد .

كثيراً ما نسمع نقداً مراً عن انتشار أمراض (البلهارسيا والأنكلستوما) فى البلاد ، وكثرة السائلين والعجزة وفاقدى البصر حتى بلغت نسبة فقد البصر عندنا أكثر من أى نسبة فى العالم ، ونسمع أيضاً عن فساد الأخلاق وكثرة الحوادث والجرائم . ولو علمنا الأمة تعليماً حقاً لارتفع المستوى الصحى والخلقى والاجتماعى . وقد أحسنت وزارة التربية والتعليم فى جعلها التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى والعالى والجامعى بالمجان ؛ حتى يشمل الفقراء والأغنياء ، ولا يحرم أحد التعليم بسبب الفقر . ومن الواجب أن نعلم كل فرد فى الجمهورية العربية المتحدة ويتعلم كل شخص فى العالم الإسلامى والعالم العربى ؛ فإن العلم سبيل الحرية والغنى والرقى والنهضة .

أثر التعليم :

يجب أن نعلم الأمة حتى يقل الفقراء منها ، ولا نسمح للأطفال بالعمل إلا بعد التعليم . يجب أن نعلمهم حتى نعدهم للكسب ولحياة أحسن من الحياة التى يعيشونها غير متعلمين . يجب أن نعلمهم التعليم النظرى أولاً ثم الصناعى أو الزراعى أو التجارى أو الفنى ثانياً ، ونبحث لهم عن عمل يسيرون فيه بعد معرفتهم حرفة من الحرف ، أو صناعة من الصناعات ، حتى نقضى على الجهل والفقر والمرض ، ولا يقبر ذكاء فرد واحد من أبناء الشعب .

إنكم إن فعلتم ذلك نشأ الجيل الجديد نشأة صالحة فسلم جسمه ، وحصف عقله ، وكمل خلقه ، واستطاع أن يحقق لأمته ما تصبو إليه نفسها من مجد مؤثل ، وعزة خالدة .

ولكى تعيد البلاد الإسلامية والعربية والشرقية مجدها القديم وعظمتها السالفة — يجب أن تعمل على نشر التعليم وتعميمه بها ؛ فالجهل علة العلل ، وهو السبب الأول فى التخلف عن الأيام الأولى أيام المجد والعظمة . والتعليم هو الوسيلة للرقى فى كل ناحية من النواحى . والإسلام دين العلم والنور . ولا عيب فى الإسلام ، فالإسلام يطالب بتعليم الرجل وتعليم المرأة . وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة كما يقول الرسول الكريم . فمتى يأتى اليوم اليوم الذى يعمم فيه التعليم فى العالم الإسلامى كله ؟ ومتى نقضى على الجهل والأمية ؟ ومتى نحتفل بدفن آخر أمى من الجمهورية العربية المتحدة والوطن العربى ؟

تشجيع المسلمين للعلم والتعليم :

بذل المسلمون فى الصدر الأول للإسلام مجهوداً كبيراً فى نشر العلم والتعليم ، وأنشأوا الدور العلمية ، وترجموا الكتب الفلسفية إلى العربية ، ودعوا العلماء الذين لم يعتنقوا الإسلام ليسمعوا ويستفيدوا من علومهم ، وعنوا كل العناية بالآداب والعلوم والفنون بطريقة لم يسبق لها مثيل .

واذكر هنا كلة الأستاذ الأمريكى (دريبر) فى كتابه[1] نقلها عن (جيبون) :

« كان أمراء المسلمين فى الأقاليم ينافسون الملوك ويناظرونهم فى رعاية العلم والعلماء ، وكان من نتيجة تنشيطهم وتشجيعهم للعلماء أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة التى بين سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة . ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتى ألف دينار لتأسيس كلية علمية فى بغداد ، ووقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنوياً . وكان عدد الطلبة فيها ستة آلاف ، لا فرق فيهم بين غنى وفقير[2] . فكان فيها ابن السيد المعظم وابن الصانع الفقير على السواء ، وكانوا يكفون التلاميذ الفقراء مئونة دفع أجر التعليم ، ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة . وكانت المؤلفات الجديدة الأدبية تنسخ وتجمع سدًا لحاجة أهل العلم ، ورغبة الأغنياء فى جمع الكتب . » .

---

(١) « النزاع بين العلم والدين » . (٢) وهذه هى (الديمقراطية) الإسلامية .

هذا ما قاله (جيبون) ، ثم قال (دريبر) :

وكانت قيادة المدارس مودعة لذوى المدارك الواسعة ، من غير تقيد بجنسية العالم أو ديانته ، وما كان المسلمون يزنون قدر العالم إلا من أعماله . قال الخليفة المأمون : « إن صفوة خليفة الله ، وأفضل عباده وأنفعهم هم الذين يقفون حياتهم على تربية مواهبهم الطبيعية . وإن الذين يعلّمون العلم والحكمة للناس هم مصابيح العالم . ولولاهم لارتكس الخلق فى عماية الجهالة ، وغياهب البربرية » .

ثم قال (دريبر) : « وقد اتبعت المدارس الطبية عموما مثال مدرسة الطب فى القاهرة ، فى اختبار الطلبة قبل تخرجهم نهائيا ، بحيث لا يستطيع أحدهم أن يشتغل بمهنة الطب إلا بهذا الشرط » .

وأول مدرسة أنشئت من هـــذا القبيل فى أوروبة هى المدرسة التى أسسها العرب (المسلمون) فى (سالرن) من إيطاليا . وأول مرصد أقيم فى أوروبة هو ما أقامه المسلمون فى إشبيلية بأسبانيا ... وبالحركة العلمية العظمى (التى قام بها المسلمون)[١] قد رقوا العلوم القديمة رقيا كبيرا جدا ، وأوجدوا علوما أخرى لم تكن معروفة من قبلهم » .

ثم تكلم المؤلف عن براعة المسلمين فى العلوم الرياضية ، وعن التسهيلات التى أدخلوها عليها ، وعن تفوقهم فى حساب المثلثات ، والعلوم الفلكية ، وما ألفوه من الكتب . ثم قال : « العلماء الفلكيون من العرب (المسلمين) اهتموا أيضا بتحسين آلات الإرصاد وتهذيبها وبحساب الأزمنة بالساعات المختلفة الأشكال ، والساعات المائية ، والسطوح المدرجة الشمسية . وهم أول من استعمل البندول (الرقاص) لهذا الغرض » .

وفى عالم العلوم التجريبية قد كشفوا الكيمياء ، وبعضا من محلولاتها الشهيرة ، مثل حمض الكبريتيك ، وحمض النتريك ، والكحول (الإسبرتو) . وقد استخدم العرب علم الكيمياء فى الطب ؛ لأنهم أول من نشر علم تحضير الأدوية العلاجية ، والأقرباذينات ، واستخراج الجواهر المعدنية .

(١) ما بين القوسين زيادة للتوضيح .

أثر الإسلام فى نشر العلم والتعليم بين المسلمين :

ولنذكر هنا ما قاله الأستاذ الأمريكى (دريبر) فى كتابه السابق : (النزاع بين العلم والدين) :

« بعد انتقال محمد صلى الله عليه وسلم إلى الدار الخالدة ترجمت إلى اللغة العربية أهم الكتب اليونانية ، وترجمت القصائد الإغريقية الشهيرة (كالإلياذة والأوديسا) إلى اللغة السريانية ، ليطلع عليها العلماء دون العامة ؛ لما رأوه فيها من الأقاصيص الخرافية عن آلهة اليونانيين ، مما يخشى منه على عقائدهم .

ولما ولى الخلافة أبو جعفر المنصور (من سنة ٧٥٣ إلى ٧٧٥ م) نقل تخت الملك إلى بغداد ، وجعلها عاصمة فخمة ، فلم يألُ جهداً من بذل المال الكثير فى دراسة العلوم الفلكية ، وتأسيس مدارس الطب والشريعة .

ولما جلس حفيده هارون الرشيد على عرش الملك سنة (٧٨٦ م) اتبع خطوات جده ، واقتفى أثره فى هذه الفتوحات العلمية ، وأمر بإضافة مدرسة إلى كل مسجد فى جميع أرجاء ملكه .

ولكن عصر العلم الزاهر فى القارة الآسيوية لم يشرق إلا فى خلافة المأمون ، الذى تولى الخلافة من سنة (٨١٣ إلى ٨٣٢ م) ، فإنه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى ، وجمع كتبا لا تحصى ، وقرب إليه العلماء ، وبالغ فى إكرامهم والحفاوة بهم .

المأمون يشجع نشر العلم والعلماء وترجمة الكتب الفلسفية :

اهتم المأمون[1] بتشجيع العلم والعلماء ، والأدب والأدباء ، ومنحهم العطايا الوافرة ، والهبات السابغة[2] . وعنى بالفلسفة ، بجمع ما كتبه (أفلاطون ، وأرسطو ، وأبقراط ، وجاليفوس وأوقليدس وبطليموس) وغيرهم من الفلاسفة ، واختار لها الماهرين من المترجمين ،

(١) توفى سنة ٢١٨ هـ . (٢) الكثيرة .

وكافهم ترجمتها ترجمة دقيقة ، ثم حض الناس وحثهم على قراءتها ودراستها ، ورغبهم فى تعليمها . وكان يجتمع مع العلماء والأدباء ، ويأنس بمناظرتهم ، ويلتذ بمذاكرتهم .

هذا المركز الذى كسبه العرب، وهذا الذوق السليم فى العلم، استمرا لدى المسلمين بعد أن انقسمت البلاد إلى ثلاثة أقسام ، حتى إن العباسيين فى آسيا ، والفاطميين فى مصر ، والأمويين فى الأندلس لم يكونوا متناظرين مختلفين على الحكومة فحسب ، بل كانوا كذلك على الآداب والعلوم .

« ذاق العرب فى الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يحد القريحة ، ويصقل الذهن . وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت الأمم كلها مجتمعة . أما فى العلوم فقد كان تفوقهم فيها ناشئا من الأسلوب الذى توخوه فى المباحث . وهو أسلوب أخذوه عن فلاسفة اليونان الإسكندريين ، لا عن اليونان الأوروبيين . فإنهم قد تحققوا أن الأسلوب العقلى النظرى لا يؤدى إلى التقدم ، وأن الأمل فى الوصول إلى الحقيقة وإيجادها يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الأشياء ذاتها . ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الأسلوب التجريبى ، والدستور العملى الحسى . وكانوا يعدون الهندسة والعلوم الرياضية أدوات وممدات لعلم المنطق .

وقد يلحظ المطالع لكتبهم الكثيرة على الميكانيكا والإيدروستاتيك (علم موازنة السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) ونظريات الضوء والإبصار ، أنهم قد اهتدوا إلى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات .

هذا هـــو الذى قاد العرب (المسلمين) لأن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمكتشفين لجملة آلات للتقطير والتصعيد ، وإسالة الجوامد ، والتصفية . . . إلخ . وهذا عينه هو الذى جعلهم يستعملون فى أبحاثهم الفلكية : الآلات المدرجة ، والسطوح المعلمة ، والإسطرلابات (هى آلات لقياس أبعاد الكواكب) . وهو أيضا الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيميائية . وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته . وهو الذى أرشدهم كذلك لعمل الجداول عن الأوزان النوعية للأجسام ، والأزياج الفلكية (هى جداول تعرف منها

حركات الكواكب) مثل التى كانت فى بغداد ، وقرطبة وسمرقند ، وهو أيضا الذى هم بهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية .

هذا هو ثمرة تفضيلهم لأسلوب (أرسطو) الاستدلالى على مقالات (أفلاطون) الاستنباطية. ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منتظمة لأجل أن يصلوا إلى تكوين المكتبات (التى يريدونها) . وقد قيل إن المأمون قد نقل إلى بغداد مائة حمل بعير من الكتب . وقد كان أحد شروط معاهدة الصلح بينه وبين الإمبراطور ميشيل الثالث أن يعطيه إحدى مكتبات القسطنطينية التى كان فيها بين الذخائر العلمية الأخرى كتاب بطليموس على الرياضيات السماوية . فأمر المأمون بترجمته إلى اللغة العربية ، وسماه المجسطى .

وقد استمرت العناية بشأن هذه المكتبات ، حتى إن مكتبة القاهرة كان بها نحو مائة ألف كتاب ، معتنى بكتابتها وتجليدها كل العناية . وكان يوجد من بين هذه الكتب ستة آلاف وخمسمائة مجلد فى الطب والعلوم الفلكية فقط . وكان فى هذه المكتبة كرتان أرضيتان، إحداها من الفضة ، والأخرى من البرنز . وقيل إن الأولى قد صنعها بطليموس الفلكى نفسه، واحتاجت إلى ثلاثة آلاف كورون (نقود يونانية) من الذهب .

وقد اشتملت مكتبة الخلفاء فى الأندلس فيما بعد على ستمائة ألف مجلد . وكان فهرس أسمائها وحده مكتوبا فى ٤٤ جزءا . وكان بالأندلس غير هذه ــ سبعون مكتبة عامة ، وكثير من المكتبات الخاصة . ومما يحكى أن أحد أطباء العرب قد رفض دعوة سلطان بخارى له محتجا بأن كتبه لا يمكن نقلها إلا على أربعمائة بعير .

لقد كان يوجد فى كل مكتبة كبرى مكان خاص لنسخ الكتب وترجمتها . وكان لبعض الخاصة مثل ذلك . فإن (هونيان) الطبيب النسطورى كان له محل من هذا القبيل ببغداد (سنة ٨٥٠ م) ترجم فيه كتبا لأرسطو وأفلاطون وهيبوقراط وغاليان . . . إلخ .

أما المؤلفات الحديثة فقد كان من عادة أساتذة الجامعة أن يؤلفوا كتبا فى الفروع العلمية التى تطلب منهم . وكان لكل خليفة مؤرخ خاص يكتب تاريخه . وإن من ينظر إلى هذه

الأقاصيص والحكايات التي هي مثل ألف ليلة وليلة يعرف مقدار التصور الشعرى الذى كان لدى العرب .

ولم يقف بحث العرب (المسلمين) عند حد؛ فقد كتبوا فى كل فن، وفى كل علم كالتاريخ والشريعة والسياسة والفلسفة ، وتراجم الرجال، وتراجم الخيول والإبل. وكل هذه المؤلفات كانت تنتشر بدون رقابة ولا حجر . وما علم من المراقبة على الكتب اللاهوتية قد حدث بعد هذا التاريخ. وقد كانت الكتب الزاخرة بالمعلومات التي تصلح لأن تتخذ مادة فى المعلومات كثيرة جدا فى الجغرافية والإحصاءات والطب والتاريخ وقواميس اللغة . وكان لديهم دائرة معارف علمية ألفها محمد أبو عبد الله .

وكان للعرب ذوق دقيق فى صنع الورق النظيف الناصع البياض ، وفي إعطاء الحبر الألوان المختلفة، وفى زخرفة وجوه الكتب بتسبيك تلك الألوان المختلفة من الحبر، والإبداع فى تنميقها وتذهيبها على صفات شتى .

كان المُلك الإسلامي العربي مملوءا بالمدارس والكليات . وكانت بلاد المغول والتتار ومراكش والأندلس حاصلة على عدد كبير منها . وكان فى طرف من أطراف هذه المملكة الواسعة التي فاقت المملكة الرومانية بكثير — مرصد فى سمرقند لرصد الكواكب. وكان يقابله فى الطرف الآخر مرصد جيرالده فى الأندلس (١) .

إلى أن قال الأستاذ (دريبر) :

« إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا فى التقدم الباهر الذى نالته الصناعات فى عصرهم . وأفاض فى تفصيل ذلك ثم قال :

وليست أوروبة الحديثة بأعلى ذوقا ، ولا أرقى مدنية ، ولا ألطف رونقا ، من عواصم الأندلس على عهد العرب المسلمين ، فقد كانت شوارعهم فيها مضاءة بالأنوار ، وممهدة أجمل تمهيد . والبيوت مفروشة بالطنافس . وكانت تدفأ شتاء بالمواقد ، وتهوى صيفا بالنسمات

(١) ارجع إلى كتاب: (الإسلام فى عصر العلم) تأليف المرحوم محمد فريد وجدى الجزء الثانى ص ١٣٤

المطرة ، بوساطة إمرار الهواء تحت الأرض ، من خلال أوعية مملوءة زهرا . وكانت لهم حمامات ومكتبات ومحال للغذاء ، وينابيع مياه عذبة إلخ[1] » .

وهذا برهان صادق لتحقيق قول الله تعالى : « مَنْ عَمِلَ صالحًا مِن ذَكَر أوْ أنثى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأحسَنِ ما كانوا يَعملونَ[2] » .

أثر العلم :

قال على كرم الله وجهه :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم   على الهدى لمن استهدى[3] أدلّاء[4]
وقدرُ كل امرئ ما كان يحسنه   والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففزْ بعــلم تعشْ حيًّا به أبدا   الناس موتَى وأهل العلم أحياء

وقال لكميل : يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم حاكم ، والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق .

وقال الأحنف بن قيس : كل عز لم يوطد[5] بعلم فإلى ذلٍّ مصيره .

وقال سالم بن أبي الجعد : اشترانى مولاى[6] بثلاثمائة درهم وأعتقنى[7] ، فقلت : بأى شىء أحترف ؟ فاحترفت بالعلم ، فما تمّت لى سنة حتى أتانى أمير المدينة زائرا ، فلم آذن له .

وقال الزبير بن أبى بكر : كتب إلىّ أبى (ينصح لى) بالعراق : عليك بالعلم ؛ فإنك إن افتقرت كان لك مالا ، وإن استغنيت كان لك جمالا .

---

(١) انتهى كلام الأستاذ (دربر) .   (٢) سورة النحل . ٩٧   (٣) طلب الهداية .
(٤) مرشدون إلى الخير .   (٥) يثبت .   (٦) سيدى .   (٧) جعلنى حرا .

الفصل الخامس
أين كان المسلمون يتعلمون

١ — التعليم فى البيوت :

فى بدء الإسلام كان التعليم الدينى فى الدور والبيوت ؛ فقد اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبى الأرقم مكانا يتقابل فيه مع أصحابه وتابعيه من المسلمين ؛ ليعلمهم قواعد الدين الإسلامى ويقرئهم ما نزل من القرآن الكريم .

وبالإضافة إلى دار الأرقم كان الرسول يجلس فى بيته بمكة ، ويجتمع المسلمون حوله ليعلمهم ويزكيهم .

ولما كانت البيوت قد أعدت للهدوء والراحة ، وقد يتضايق من فيها إذا قصدها كل يوم أحد المعلمين لتعليم بعض الأبناء بدعوة من الآباء ، رأى المسلمون أن البيوت لا تصلح لأن تكون حلقة فيها يقصدها طلاب العلم للتعلم بها وتلقى الدروس فيها . فوجود الطلبة يؤدى إلى الحركة والضوضاء ، وإزعاج من فى البيوت وإقلاق راحتهم . وهذا هو المراد من قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه[1] ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث ؛ إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيي منكم . والله لا يستحيي من الحق[2] » .

فالبيت موضع احترام وهدوء واستقرار لا بد فيه من الاستئذان . ولدخوله آداب إسلامية يجب التفكير فيها ، والعمل بها . فالبيوت لا تصلح لأن تكون أمكنة للتعليم العام . ولكن عند الضرورة يجعل من البيت مكان للتعليم الخاص .

لهذا كان التعليم فى المساجد والجوامع ، والكتاتيب والمدارس ، والمعاهد ، ودور الحكمة ، ودور العلم ، ودور الكتب ، والمنتديات .

---

(١) غير منتظرين نضجه . (٢) سورة الأحزاب آية ٥٣

وحينما جاء الإسلام كان عدد من يعرف القراءة والكتابة من أهل قريش سبعة عشر رجلا ، ولكن الدين الإسلامى شجع المسلمين على تعلم القراءة والكتابة وإجادتهما ، فبدأت القراءة والكتابة تنتشران فى جزيرة العرب ؛ كى يستطيع رواة الحديث الشريف أن يضبطوا ما يكتبون من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم بكل دقة .

وكان المسلمون إذا أرادوا تعليم أبنائهم أرسلوهم إلى الكتاتيب لتعلم القراءة والكتابة ، أو إلى المساجد ليحضروا ما بها من حلقات علمية ودينية ، أو إلى بيوت العلماء لتلقى العلم عنهم ، أو إلى المكتبات والحوانيت التى تباع فيها الكتب للبحث والقراءة والاطلاع ، والاتصال بمن فيها من العلماء والأدباء ، أو إلى المنتديات الأدبية وقصور الخلفاء والأغنياء لاستماع ما يلقى فيها من المحاضرات والمناظرات ، والقصائد الشعرية ، أو إلى البادية للأخذ عن الشعراء والكتاب ما جادت به قرائحهم من الشعر والنثر . وسنتكلم عن كل منها فيما يأتى :

٢ — التعليم فى الكتاتيب :

كانت الكتاتيب قبل الإسلام لتعليم القراءة والكتابة ، وبعد الإسلام زيد عليهما تحفيظ الأطفال القرآن الكريم ، وتعليمهم الدين الإسلامى والخط والحساب ومبادئ اللغة . . فالكتّاب أو المكتب هو المعهد الأول الذى يتعلم فيه المبتدئون القرآن الكريم ، والقراءة والكتابة ، ومبادئ الدين واللغة ، والحساب والخط .

وكانت العناية بتعليم الخط كبيرة ، لأنه فن من الفنون الجميلة ، وكان له معلم يختص بتعليمه ، ولا يشتغل بغيره . وقد استخدم الرسول الكريم المسلمين الذين يستطيعون الكتابة والقراءة ، فى كتابة ما كان يمليه عليهم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وكان عددهم قليلا ، فاضطر الرسول إلى أن يستعين بغير المسلمين من اليهود والمسيحيين فى تعليم المسلمين الراغبين فى التعلم — القراءة والكتابة .

وفى غزوة بدر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلف الأسرى الذين يعرفون القراءة

والكتابة من أهل مكة ممن لم يعتنقوا الدين الإسلامى أن يفتدوا أنفسهم بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة .

وأول معلم للخط كان من وادى القرى[1] أقام بها وعاش فيها ، وعلم الراغبين من أهلها الخط . وكان المعلمون يعلمون الصبيان الخط بالنقل من الكتب الشعرية وغيرها لتنزيه كتاب الله عز وجل عن ابتذالهم له بإثباته وكتابته ثم محوه .

وكان اللوح يستعمل فى الكتابة منذ زمن قديم ؛ فقد قالت أم الدرداء : إنها قد كتبت على اللوح عبارات فى الحكمة ، ليحاكيها تلميذ كانت تعلمه القراءة والكتابة .

وبعد معرفة القراءة والكتابة كان التلاميذ يقرءون القرآن الكريم ، ويكتبون كل يوم قدراً منه فى ألواحهم ويحفظون ما يكتبون . وبهذه الوسيلة كانوا يدربون على القراءة ويتعلمونها ، ويحفظون القرآن ويحسنون خطهم . فقد كان الأطفال فى الكتّاب لا يجدون غيره ، فهو بمثابة كتاب للمطالعة ، وكتاب للمحفوظات . ومع القراءة والكتابة كانوا يحفظون بعض أحاديث الرسول الكريم ، ويدرسون قصص الأنبياء ، ويتعلمون قواعد اللغة العربية ومبادئ الحساب .

وفى العهد الإسلامى وجد المتعلمون الذين يحسنون الخط تشجيعاً كثيراً ، وعينوا فى بعض المناصب والوظائف ، ودونوا أحاديث الرسول ، ونقلوا الكتب التى يطلبها الخلفاء منهم .

وفى عصر الترجمة قام المثقفون الذين يجيدون بعض اللغات الأجنبية بترجمة بعض الكتب الثمينة إلى اللغة العربية .

وللجاحظ أثر كبير فى النهوض بتعلم القراءة والكتابة والحساب والإقبال عليها . وقد قال فى رسالة المعلمين : « ولولا الكتاب (الكتابة) لاختلت أخبار الماضين ، وانقطعت آثار الغائبين . . وقد رأينا عمود صلاح الدين والدنيا إنما يعتدل فى نصابه ، ويقوم على أساسه بالكتاب (الكتابة) والحساب .

---

(١) وادى القرى : موضع قريب من المدينة على طريق الحاج من جهة الشام .

وقال أبو بكر بن العربي العالم الأندلسي : « وللقوم فى التعليم سيرة بديعة ، وهى أن الصغير منهم إذا عقل بعثوه إلى المكتب ، فيتعلم الخط والحساب والعربية ، فإذا حذقها كلها أو حذق منها ما قدر له خرج إلى المقرئ ، فلقنه كتاب الله ، فحفظ منه كل يوم ربع حزب، أو نصفه أو حزباً » .

وفى الوقت الذى كان المعلم يخصص حجرة من منزله ، ويجعلها كتَّاباً لتعليم الأطفال الراغبين فى التعلم ، كان فى كتَّاب أبى القاسم البلخى ٣٠٠٠ تلميذ . ومعنى هذا أن الكتَّاب فى الغالب كان حجرة واحدة أو أكثر فى النادر ، وكان كبيراً فسيحاً جدًّا يتسع لآلاف التلاميذ .

وقد ازداد عدد الكتاتيب وعدد المعلمين فى القرن الثانى الهجرى والقرون التى بعده حتى صار فى كل قرية كتَّاب أو أكثر .

قال الإمام الشافعى – رضى الله عنه : « كنت يتيماً فى حجر أمى فدفعتنى فى الكتاب ، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد لطلب العلم والتوسع فى الثقافة الدينية » .

فالكتَّاب كان المكان الأول لتعليم الأطفال القرآن ، وكان للكتاب منزلة كبيرة ؛ لأن تحفيظ القرآن فيه كان أمراً هامًا فى الإسلام ، وقد ورد فى بعض المراجع العربية أن الحجاج بن يوسف المعروف كان معلماً بأحد الكتاتيب ، يأخذ الخبز من الأطفال أجراً له ، فى حين كان عبيد الله بن الحارث يعلم الأطفال ولا يقبل منهم أجراً . وقد أشار المقريزى إلى عدد من الكتاتيب التى كانت ملحقة بالمساجد فى مصر فى عصر المماليك لتعليم الفقراء واليتامى من الأطفال القرآن الكريم . ويؤخذ من هذا أن المسلمين كانوا يشجعون نشر التعليم ، وأن الفقر أو اليتم لم يكن عقبة فى سبيل التعلم . فكما كان الأغنياء والقادرون يتعلمون كان الفقراء يجدون الفرصة فى التعلم وحفظ القرآن وطلب العلم .

وقد أسهم كثير من المسلمين فى إنشاء الكتاتيب لتعليم الأطفال . وتنافسوا فى بنائها للتقرب إلى الله ، ونشر التعليم بين الأغنياء والفقراء على السواء . وكانت الكتاتيب تلحق بالمساجد حيناً وتبعد عنها أحياناً . وكان المعلمون من المسلمين ينظرون إلى الأطفال نظرة

واحدة من غير تفرقة بين الغنى والفقير منهم ، نظرة المساواة فى المعاملة والتعليم . فالتربية فى الإسلام تربية (ديمقراطية) لا تعرف التفرقة ، ولا تعرف نظام الطبقات . ولم يكن لدى المسلمين مدارس خاصة بالأغنياء والأشراف ، ومدارس عامة للفقراء ، بل كانت المدارس لجميع الطبقات من أبناء المسلمين ، يتعلم فقيرهم مع غنيهم فى مكتب واحد ، ومدرسة واحدة، وفصل واحد ، من غير تمييز لهذا على ذاك . فمبدأ المساواة والعدالة و (الديمقراطية) وتكافؤ الفرص كان مراعى لدى الجميع . فالتعليم فى الإسلام لم تستأثر به طبقة لأنها غنية، ولم تحرمه طبقة لأنها فقيرة .

وفى الإسلام لم يكتف بتعليم الأطفال بالمجان ؛ فقد كان الطعام والكساء يقدمان لهم فى بعض الكتاتيب .

والتعليم فى الإسلام فرض على كل مسلم ومسلمة ، فرض على البنين والبنات ، فكما يعلم الأبناء فى مدارس البنين تعلم الفتيات فى مدارس البنات، منعاً للمضار التى تنشأ عن اختلاط الجنسين .

ولم يمنع هذا النظام الأغنياء والأمراء من تعليم أولادهم فى بيوتهم التعليم الذى يريدونه، وتحفيظهم القرآن على أيدى معلمين خاصين ، وقد كان الحجاج معلما لأولاد سليمان بن نعيم وزير عبد الملك بن مروان .

وفى العصور الإسلامية الأولى كان بعض المعلمين يقومون بالتعليم بدون أجر ابتغاء مرضاة الله ، وبعضهم يقبلون أجراً زهيداً حتى يحصلوا على الضروريات فى الحياة .

حفظ القرآن الكريم فى الكتاب :

وكان القرآن الكريم يحفظ فى الكتاب . وكان حفظه كله فى العصر الإسلامى الأول نادرا ؛ لأن الصحابة كانوا يعنون بفهم معانى الآيات القرآنية والعمل بما يستنبط منها ـ أكثر من الحفظ . وقد قال الإمام أحمد بن حنبل : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدَّ فينا ، أى عظم بيننا . قال جل شأنه : « كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته » . فالغرض الرئيسى

هو التدبر فى الآيات ، والتفكير فى المعنى المراد من كل منها ، وتنفيذ ما جاء به القرآن من أحكام .

وللتشجيع على حفظ القرآن كان من يحفظه يقدر حق قدره ، وتسند إليه بعض الأعمال العظيمة كالإفتاء . وكان الحفاظ يسمون القراء ؛ لأنهم كانوا يقرءون القرآن ويعرفون الناسخ منه والمنسوخ ، والمتشابه والمحكم ، ويفهمون معانيه وما تدل عليه كل آية منه . ولا عجب ؛ فقد كان العرب قبل الإسلام أميين لا يقرءون ولا يكتبون ، وبعد الإسلام أخذوا يتعلمون القراءة والكتابة ، ويدرسون الشريعة الإسلامية ، ويستنبطون الأحكام الدينية ، ويضعون الفقه الإسلامى ، ويطلقون على القراء اسم فقهاء وعلماء .

٣ — التعليم فى المساجد والجوامع :

فى العصر الإسلامى الأول كان الصغار يجلسون مع الكبار فى حلقات المساجد للتعلم . وممن تعلموا فى المسجد على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس .

وإن للتربية الإسلامية صلة كبيرة بالمسجد ؛ فقد اتخذه المسلمون بيتا لعبادة الله والتقرب إليه ، ومعهدا للثقافة الإسلامية ، والتربية الدينية تدرس فيه قواعد الإسلام وأحكام الدين ، وجعل محكمة للقضاء العادل ، وميدانا لاجتماع الجيش الباسل ، وبيتا لاستقبال السفراء ، ومركزا للحياة الروحية والاجتماعية والسياسية . وقد أطلق على المسجد « بيت الله » ، فلا يحتاج أحد إلى الاستئذان حينما يدخله للعبادة أو الدراسة أو غيرها .

وأول مسجد بنى فى الإسلام هو مسجد قباء[1] ، وكانت تعقد فيه حلقات دينية . وحينما دخل الرسول عليه الصلاة والسلام المدينة المنورة بنى مسجده بالمربد ، ليشجع المهاجرين والأنصار على النشاط والسرعة فى العمل . وكان من عادة الرسول أن يجلس فى مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينهم ودنياهم . وبانتشار الإسلام انتشرت المساجد فى البلاد الإسلامية .

---

(١) موضع بالحجاز .

ولما كان الأطفال لا يتحفظون من النجاسة فقد وصى كثيرون ألا يكون التعليم فى المسجد. وقيل إنه لا يجوز تعليم الأطفال فى المسجد لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين؛ لأنهم يسودون حيطانها، ولا يتحرزون من النجاسات، بل يتخذون للتعليم أمكنة فى الدروب وأطراف الأسواق. وحينما منع المعلمون من التعليم فى المساجد اتخذوا لهم زوايا متصلة بها، أو حجرا ملتصقة بها لتعليم الأطفال. وإن من يقرأ رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة يجد فيهما كثيرا عن الحلقات التى كان الأطفال يجتمعون فيها فى المسجد، ويلتفون حول معلم من المعلمين يعلمهم القرآن الكريم مع الاحتراس من لعب الأطفال فى المسجد.

وللمحافظة على المساجد والجوامع جعلت لتعليم الكبار من الطلبة التعليم الدينى والعربى، الثانوى والعالى بدون أجر، مع منحهم بعض المنح المالية والعطايا لمساعدتهم على الاستمرار فى طلب العلم.

قال العبدرى[١] : « أفضل مواضع التدريس هو المسجد؛ لأن الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تظهر به سنة، أو تخمد به بدعة، أو يتعلم به حكم من أحكام الله تعالى. والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوافرا؛ لأنه موضع لاجتماع الناس رفيعهم ووضيعهم، وعالمهم وجاهلهم »، وهو يقصد بذلك تعليم الكبار من الطلاب تفسير القرآن ودراسة الحديث والفقه والشريعة الإسلامية، مع مراعاة مبادئ التربية فى الإسلام، وهى المساواة و(الديمقراطية) وتكافؤ الفرص، والحرية فى تلقى العلوم واختيار مواد الدراسة والأساتذة، والتحرر من المؤثرات المالية.

وحينما انتشر الإسلام كثرت المساجد، وبنى المسلمون مسجدا أو أكثر فى كل مكان حلوا به، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمر قواده بإنشاء المساجد فى جميع البلاد والمدن التى يفتحونها. وفى القرن الثالث الهجرى امتلأت بغداد بالمساجد، وكانت الحال فى مصر كالحال فى بغداد.

---

(١) فى كتابه المدخل جـ ١ ص ٨٥

١ ـ وأول جامع بنى فى القاهرة هو جامع عمرو بن العاص . وقد بناه سنة ٢١ هـ بأمر من عمر بن الخطاب بعد فتح مصر . ثم جدد ذلك الجامع وزيد فى بنائه بعد ذلك عدة مرات ، وبدأت الدراسة الدينية والخلقية فيه سنة ٣٦ هـ ، ثم اتسع التعليم فيه بالتدريج .

وكان مسجد عمرو مركزا للثقافة ، ومحكمة للقضاء . وكان به أكثر من أربعين حلقة دراسية للتعليم يؤمها الطلبة للدراسة والبحث .

وقد بين المقريزى فى خططه بعض التفاصيل عن ثمانى حلقات كانت تدرس فيها العلوم المختلفة بجامع عمرو بن العاص نذكر قليلا عن حلقتين أو زاويتين منها وهما :

(أ) حلقة الإمام الشافعى ، وقد نسبت إليه لأن الشافعى قام بالتدريس فيها سنة ١٨٢ هـ ، وكانت تسمى بالزاوية ، ولها أرض موقوفة عليها بناحية سنديس . وكان أعيان الفقهاء وجلة العلماء يتولون التدريس فيها . وكانت مملوءة بطلاب العلم والدين .

(ب) الزاوية الصاحبية وقد أعدها الصاحب محمد بن فخر الدين ، وعين لها اثنين من المدرسين ، أحدهما شافعى لتدريس الفقه على مذهب الإمام الشافعى ، والآخر مالكى لتدريس الفقه على مذهب الإمام مالك ، ووقف عليها وقفا خاصا بالزاوية .

وحينما وفد محمد بن جرير الطبرى على مصر قام بالتدريس فى جامع عمرو بن العاص ، وظهر فضله فى تفسير القرآن الكريم ، وتدريس الحديث والفقه ، وعلمه بالفقه واللغة والنحو والشعر . وكان يملى على طلبته ما أرادوا من المباحث فى أى مادة من تلك المواد .

٢ ـ ومن الجوامع التى اشتهرت بالتدريس فيها جامع أحمد بن طولون ، وقد كمل بناؤه سنة ٢٥٦ هـ ، وقام الفقهاء والعلماء بالتعليم فيه . ويروى السيوطى (١) أن دروسا مختلفة قد نظمت ورتبت فيه ، منها : التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة ، والقراءات والميقات والطب .

---

(١) فى كتابه حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣٨

الجامع الأزهر :

وهو مسجد عالى أنشأه القائد جوهر الصقلى بالقاهرة فى عهد المعز لدين الله الفاطمى . وكان الشروع فى بنائه يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ وسنة ٩٧٠ م وكمل بناؤه سنة ٣٦١ هـ وسنة ٩٧٢ م . وفى سنة ٧٦١ هـ فى عصر الملك الناصر قلاوون أنشىء بالأزهر مكتب لتحفيظ اليتامى من المسلمين القرآن الكريم ، ورتب للفقراء من الطلبة طعام يطبخ لهم كل يوم ، ونظمت فيه دروس للفقهاء من الحنفية ، ووقفت عليه أوقاف كثيرة . وفى سنة ٨١٨ هـ بلغ عدد طلبته ٧٥٠ طالبا من مصريين ومغاربة وزيالعة وعجم ، وكان لكل طائفة منهم رواق خاص يعرف بهم .

وكان الجامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن الكريم وتلقينه ودراسته ، والاشتغال بالتفسير والحديث وعلوم الفقه والنحو والبلاغة .

ولا يزال هذا الجامع ملحوظا بالرعاية ، مقصودا للدراسة والاستفادة ، والبركة والعبادة . فحتى العقد الثانى من القرن العشرين كانت عبادة الله لا تنقطع فيه لحظة واحدة ليلا أو نهارا . ففى كل لحظة تقصد الأزهر كنت تجد من يصلى ويعبد الله أو يدرس عند القبلة القديمة أو الجديدة أو غيرها .

وقد استمر الجامع الأزهر يزداد شهرة فى الآفاق ، يقصده الطلبة من جميع البلاد الإسلامية ، لتعلم العلوم الشرعية والعقلية والنقلية على أيدى جهابذة العلماء المتفرغين للدراسة والتعليم ابتغاء مرضاة الله . وازداد الإقبال عليه من المصريين وأهل الحجاز واليمن والشام والسودان والمغرب وبغداد وتركيا وكردستان والسند والهند والعجم والأفغان وجاوه . وتقاطر إليه الطلبة من جميع المذاهب الإسلامية للتبحر فى العلوم الفقهية وغيرها ، وظهر فيه طلبة بارعون ، وعلماء عاملون . فهو الجامع الذى جمع الطلبة من جميع أنحاء العالم الإسلامى ، وهو الأزهر ، والجامعة الإسلامية الكبرى . به زال الجهل فى عصور انتشرت فيها الجهالة ، وصارت حياة العلم خالدة ، وتأدبت نفوس طاهرة ، وكملت قرائح صافية ، وحفظ العلم والعلماء ، وصفت الأفكار ، وظهرت الأسرار ، وكسب الشرف ، وعظم القدر . فكثيرا

بما بزغت فيه شموس وأقمار ، وغردت فيه بلابل المتعلمين والمعلمين فى العشى والأبكار والأسحار .

وفى سنة ١٢٩٣ هـ و ١٨٧٥ م أحصى عدد العلماء والطلبة فى الأزهر فكان عدد العلماء ٣٢٥ وعدد الطلبة ١٠٧٨٠ تقريبا .

وفيما مضى كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة أعمدة معينة لا يجلس للتدريس بجانبها غيرهم . وكان الطلبة إذا جلسوا فى حلقة حول الشيخ قال فى بدء الدرس : « الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين » ، ثم أخذ يشرح الدرس ويوضح ما عينه لهم فى الدرس السابق ، وقرأ لهم التعيين فى الكتاب ، وقابلوا عليه الدرس بكل دقة ، وسألوه عما صعب عليهم من الأسئلة ، وشرح لهم ما بدا أمامهم من الصعوبة . وبعد الانتهاء من الدرس يعين لهم درسا لإعداده لليوم التالى ، ويقبل الطلبة يد شيخهم ، ويطلبون منه الدعاء لهم ولو كانوا كبارا .

فالطلبة كانوا يحترمون أساتذتهم ويجلونهم كل الإجلال ، والأساتذة كانوا من العلماء المخلصين الأجلاء الذين يعاملون الطلبة معاملة الأبناء .

وكان الطالب حرا فى اختيار أساتذته ، يختار من يشاء ، ويجلس فى الحلقة التى يريدها ، ويعتمد على نفسه فى إعداد دروسه ، ويطلب العلم لذات العلم ، وليس لديه امتحان شهرى أو سنوى . ولم يكن هناك من يحاسبه على الحضور أو الغياب ، وتختلف سعة الحلقة باختلاف العلماء ومهارتهم ، وكان الطلبة يحفظون كثيرا من المتون فى المواد المختلفة لاعتقادهم أن من حفظ المتون حاز الفنون .

وقبل أن يحضر الطلبة حلقة الدرس كانوا يعدونه إعدادا تاما ، بحيث يقرءون المتن وشرحه ، وما كتب عليه فى الشرح والحاشية مرة أو أكثر ، جماعات أو فرادى . وإذا وجدوا صعوبة ولم يستطيعوا حلها سألوا الشيخ عنها وقت الدرس . وكان الشيخ يعد درسه فى عدة كتب ، ويطلع على كثير من المراجع ، حتى يستحضر أطراف المسائل ، ويستعد للإجابة عن الأسئلة التى يسألها الطلبة أو الاعتراضات التى يعترضون بها .

وكان من عادة الأذكياء والنابهين من الطلبة أن يطالعوا للباقين درس الشيخ مطالعة بحث وفهم وتدقيق ، حتى يأتوا إلى الشيخ وهم مستعدون كل الاستعداد لما يلقيه عليهم من الآراء والأفكار . وتعد هذه الطريقة الأزهرية القديمة من أحدث الطرق فى التدريس فى القرن العشرين ، وتتفق فى كثير من المبادئ مع طريقة دلتون فى التربية الحديثة .

وكان لا يتصدر للتدريس إلا العلماء المعروفون بسعة الاطلاع وغزارة المادة ، والقدرة على حل المشكلات العلمية ، والإجابة عن كل اعتراض من الطلبة الذين يجتمعون حولهم . وفى النهاية عمل قانون للامتحان بحيث يمتحن كل من يريد التدريس من المستجدين فى أحد عشر علما وهى : التفسير والحديث والأصول والتوحيد والفقه والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق .

ومن أراد الدخول فى الامتحان بعد الانتهاء من حضور (السعد) و (جمع الجوامع) قدم التماسا لشيخ الجامع الأزهر بأنه يريد الدخول فى حومة العلماء المدرسين ، وأنه حضر كذا وكذا من العلوم ، فيسأل الشيخ عن أحـــواله ممن يعرف حقيقة أمره من أساتذته ، ثم يعين له من كل علم درسا ، ويحدد له ميعادا يطالع فيه ، ويجعل لكل علم يوما ، وبعد نهاية الأحد عشر يوما يعقد الامتحان ، ويجعل مريد الامتحان بمنزلة الشيخ ، والعلماء بمنزلة الطلبة له ، فيبدأ بالقراءة وهم يسألونه وهو يجيبهم ، وقد يستمر الامتحان اثنتى عشرة ساعة لا يقوم فيها الطالب إلا لنحو الصلاة أو تناول الطعام . فإذا أجاب إجابة جيدة فى كل علم كتبوه من الدرجة الأولى ، وإذا لم يجب جيدا فى جميع العلوم كتب من الدرجة الثانية ، وإذا أجاب إجابة متوسطة كتب من الدرجة الثالثة . وإذا لم يجب ذلك الممتحن أمر بالقيام من المجلس ، ولم يؤذن له بالتدريس .

وقد حملت هذه الطريقة فى الامتحان الطلبة على الجد والاجتهاد فى التحصيل والقراءة والاطلاع ، وسهر الليل ، حتى ممتعفه ، للتبحر فى العلم . وكانت عنايتهم كبيرة بفهم العبارات ، وحل التركيبات ، وكثرة المناقشات بالاعتراضات والأسئلة والأجوبة

وكان من العادة أن يجعل الصباح المبكر بعد صلاة الفجر للتفسير أو الحديث ، والضحا للفقه، وتجعل الدراسة فى الظهر للنحو أو المعانى أو البيان أو البديع أو الأصول، وبعد العصر تدرس العلوم الحديثة . وبين المغرب والعشاء تدرس مواد اختيارية مختلفة ، ويتمرن كبار الطلاب على التدريس للمبتدئين منهم .

وللأزهر عدة قوانين ، منها قانون سنة ١٣٤٨ هـ ـ ١٩٣٠ م وفيه عد الجامع الأزهر المعهد الديني للعالم الإسلامى الأكبر .

والغرض منه :

١ ـ القيام على حفظ الشريعة الغراء وعلى تعليم اللغة العربية ، لغة القرآن والدين .

٢ ـ تخريج علماء يوكل إليهم تعليم هذه العلوم ، وتولى الوظائف الشرعية فى الدولة .

ويطلق اسم الجامع الأزهر على كليات التعليم العالى وهى : كلية أصول الدين ، وكلية الشريعة ، وكلية اللغة العربية . ويتبع كل كلية قسم للتخصص فى المواد التى تعنى بها هذه الكلية . ويطلق اسم « المعاهد الدينية » على المعاهد الابتدائية والثانوية التى تعد الطلبة للحاق بالجامعة الأزهرية .

ولم يكن فى الأزهر قديما شروط خاصة بالسن أو المؤهلات . وهو حتى وقتنا هذا يعد جامعة من أقدم جامعات العالم ، ومن أولى الجامعات الإسلامية .

ويقول الخطيب البغدادى : إن درسا فى الطب كان يلقى فى الأزهر عند منتصف النهار من كل يوم(١) .

وفى سنة (١٩٦١ ـ ١٩٦٢ م) ، (١٣٨٠ ـ ١٣٨١ هـ) صدر قانون بإنشاء الجامعة الأزهرية ، وبها كليات للطب والهندسة والزراعة والتجارة والعلوم والتربية ، وكلية البنات الإسلامية .

---

(١) عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٢٠٧

جامع المنصور ببغداد :

وقد شيده أبو جعفر المنصور ، وجدده هارون الرشيد ، وزاد فى مبانيه وأصلحه .

وكان ذلك المسجد قبلة أنظار الأساتذة والطلاب ، وكانت له منزلة سامية فى نفوس العلماء والشعراء . وقد قيل : إن الخطيب البغدادي حينما حج شرب من ماء زمزم ، وسأل الله أن يحقق له ثلاثة أمور : منها أن يعطى الفرصة فى أن يملى الحديث الشريف بجامع المنصور . وكان الكسائى يجلس فى ذلك المسجد ليقرأ للطلبة علوم اللغة ، وكان أبو العتاهية يملى شعره فيه .

الجامع الأموى بدمشق :

وكان الجامع الأموى بدمشق يعد من عجائب الدنيا ؛ فقد أنفق الوليد بن عبد الملك على بنائه خراج المملكة سبع سنوات ، وظل العمل فى بنائه ثمانية أعوام . قيل : إنه لو مكث الإنسان فيه مائة سنة لرأى فى كل يوم أعجوبة لم يرها من قبل . وقد وصفه ابن جبير فى رحلته ، فبين أن فيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمالكية زاوية للتدريس يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ومرافقه للغرباء كثيرة وواسعة . وبه مدرسة للشافعية . وفيه عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس ، والبعد عن ازدحام الناس .

وكان للخطيب البغدادى بهذا المسجد حلقة كبيرة سنة ٤٥٦ هـ . وكان الناس يجتمعون إليه فى صباح كل يوم فيقرأ لهم دروسا فى الحديث .

ولم يكن التعليم فى المساجد والجوامع مقصورا على العلوم الدينية ، بل شمل فروعا كثيرة من العلوم ، كالنحو والأدب والشعر والفلك والحساب . وكانت أبوابها مفتوحة للجميع من الراغبين فى الدين والعلم ، والدراسة فى متناول جميع الطبقات من الطلاب لا تقتضى مالا ولا جاها ، وكان لبعض الأساتذة رواتب معينة من الأوقاف ، وبعضهم يكسب معيشته بعرق جبينه ، ويقوم بالتدريس بالمجان ابتغاء الثواب من الله .

فالمسجد أو الجامع لم يكن خاصا بالعبادة ، ولكنه كان أيضا مكانا للتربية والتعليم والنظر فى شئون الدين والدنيا .

٤ — التعليم فى دور الحكمة ودور العلم ، وهى بمثابة الجامعات والمعاهد العالية :

فى عصر الدولة العباسية كان المسلمون قد اختلطوا بالشعوب المختلفة وتأثروا بحضاراتها ، فانتعشت الأفكار ، وتسابق علماء المسلمين فى معرفة علوم الأقدمين ، وترجمة الكتب الأجنبية إلى اللغة العربية ، وخاصة فلسفة الإغريق وعلومهم ، وتنافسوا فى جمع المؤلفات العالمية النفيسة القديمة فى دور الحكمة ودور العلم ؛ لنقلها ودراستها والانتفاع بما فيها من ذخائر .

وقد ترجم عدد كبير من الكتب النادرة ، ونبغ من علماء العرب محمد بن موسى الخوارزمى العالم الشهير المعروف بالنبوغ فى علم الفلك ، وأبو جعفر محمد الذى كان من الفائقين فى علوم الهندسة والحساب والمنطق ، فدور الحكمة ودور العلم هى جامعات بها دور عامة للكتب ، فيها كثير من العلماء فى المواد المختلفة لقراءة تلك العلوم ، وإفادة من يحضر إليها من طلاب العلم والمعرفة ، وإرشادهم إلى المراجع التى يريدون الرجوع إليها فى دراساتهم وبحوثهم ، للتعميق فى الدرس بطريقة تعودهم البحث الشخصى ، والاستقلال الفكرى .

وقد حاكى الفاطميون فى مصر العباسيين فى بغداد فى إنشاء دور الحكمة ودور العلم بالقاهرة لدراسة فلسفة الإغريق وعلومهم مع العلوم الإسلامية . وقد قال المقريزى[١] : إن دار الحكمة فتحت بالقاهرة سنة ٣٩٥ هـ ، وفرشت وزينت وعلقت الستائر على أبوابها ، وجلس فيها الفقهاء والعلماء والأطباء ، لتدريس علوم الفقه والنحو واللغة والطب ، وأقبل عليها الطلبة للدراسة والقراءة ، والاطلاع ، والناس للاستماع ، والنساخ لنسخ ما يريدون من الكتب النفيسة التى زودت بها وحملت إليها من خزائن القصور . وعين لها خدم لخدمة العلماء والطلاب .

وقد زودها الحاكم بأمر الله بكتب نفيسة فى العلوم والآداب ، ومخطوطات نادرة وأهداها إلى دار الحكمة ، وأباح لمن يرغبون فى القراءة الانتفاع بها ودراستها والنظر إليها . وأقبل

---

(١) الخطط للمقريزى ج ٢ طبع مصر ١٣٥٦ ص ٣٣٤ — ٣٣٦ .

الناس عليها لقراءة الكتب أو نسخها أو تعلمها . وزودها الحاكم أيضا بما يحتاج إليه الناس من حبر وأقلام ومحابر وأوراق للكتابة .

واستمرت دار العلم فى القاهرة إلى سنة ٥١٦ هـ حينما أمر الأفضل بإغلاقها .

وإنك تجد فى تاريخ دار الحكمة ببغداد بعض الغموض بعد عصر الخليفة المأمون . والخلاصة أن دور الحكمة ودور العلم كانت بمثابة جامعات أو معاهد عالية للتخصص ، بها دور كتب للدراسة والاطلاع والنسخ ، ولم تنتشر فى جميع البلاد الإسلامية ، بل كانت فى مصر والعراق وبلاد فارس . ولم تكن صبغتها كالمعاهد الإسلامية الأخرى ، فإنها عنيت بدراسة العلوم الدينية ، كما عنيت كل العناية بدراسة العلوم الدنيوية والفلسفية . وفى الوقت الذى كان يؤمها الطلبة للتخصص والدراسات العالية كان يقصدها طلبة آخرون للقراءة والثقافة المختلفة ، ونسخ ما يريدون من الكتب النفيسة .

الفصل السادس

(٥) التعليم فى الحلقات والمجتمعات الأدبية ، وبيوت العلماء .

قصور الخلفاء تقوم مقام الجامعات :

امتاز نظام التعليم الإسلامى بالسهولة والمرونة ، فلم يتقيد بمكان معين فى نشر الثقافة والتعليم ، فكانت تعقد الحلقات العلمية فى بيوت العلماء ، وقصور الخلفاء ، يحضرها الطلاب والراغبون فى العلم للإصغاء ، وكتابة ما يستمعون من الأساتذة والعلماء ، ويحضرها الأطباء والفلاسفة والأدباء ، للانتفاع بما يستمعون من المناظرات والمناقشات الدينية والعلمية والطبية والأدبية .

وكثيرا ما كانت الأديبات من المسلمات يعقدن المجالس الأدبية لدراسة الأدب والشعر ، ونقد الشعراء، والموازنة بينهم ، ومن هؤلاء السيدة سكينة ، والولادة بنت الخليفة المستكفى .

وكان الرئيس ابن سينا يدرّس لطلبته كتاب الشفاء وكتاب القانون فى بيته ليلا ؛ لأنه كان مشغولا بعلاج المرضى نهارا .

وكان أبو سليمان السجستانى مريضا بالبرص ، فلزم بيته وانقطع عن الناس ، فكان طلاب العلم يذهبون إليه للاستفادة منه . وكان بيته مجتمعا لأهل العلم . وقصده الرؤساء والأجلاء وسادة العلماء للاستذكار والمناظرة فى موضوعات مختلفة ، والمناقشة فى آراء الفلاسفة القدماء وشرحها والتعليق عليها . وكانت له الكلمة الأخيرة والقول الفصل .

وقد اعتاد الطلبة والمدرسون الذهاب إلى دار الإمام الغزالى ، ليستفيدوا من علمه وخلقه ودراسة بعض الكتب معه . فقبل انتشار المدارس كانت بيوت العلماء وقصور العظماء تعد أمكنة للحلقات والمجتمعات العلمية والأدبية ، يؤمها الطلاب الراغبون فى البحث والعلم ودراسة بعض الكتب .

وفى قصر سيف الدولة الحمدانى كان المتنبى ينفرد بشعره ؛ فقد انتقل تيار الأدب العربى

إلى شمالى سورية ، وجعل مدينة حلب مقرا له وهى عاصمة الدولة الحمدانية . واستطاع سيف الدولة أن يجمع حوله فى مملكته الصغيرة كثيرين من متعددى النواحى فى العبقرية ، وكان كرمه الفائق سببا فى أن يتصل به أدباء العصر وعلماؤه .

وكان الخليفة حاميا للعلم والدين ، وقصره مركزا ثقافيا للأدب والأدباء ، يلتقى فيه العلماء والشعراء . وكانت المنتديات الأدبية للخلفاء تؤثث تأثيثا جميلا ، ولا يدخلها إلا طبقة خاصة من الأدباء والعلماء ، ولها تقاليد خاصة يجب أن تراعى ؛ فالداخل فى حضرة الخليفة يجب أن يكون نظيف الملبس ، وقور الهيئة ، يجلس فى المكان المناسب له ، لا يضحك ولا يبصق ولا يمخط ، ولا يجيب عن شىء إلا إذا سئل عنه ، ولا يرفع صوته . وعليه أن يتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن الكلام ، ويمهل المتكلم حتى يتم حديثه ، ويتجنب الألفاظ الوحشية ، ولا يكثر القهقهة .

وفى تلك المنتديات كانت الموضوعات تعرض لبحثها ونقاشها والمناظرة فيها .

وقد بنى المعتضد بالله قصره ببغداد ، وفيه دور ومساكن ومقصورات ليرتب فى كل موضع رؤساء لكل مذهب من مذاهب العلوم النظرية والعامية ، ويجرى عليهم الأرزاق السنية ، ليقصد كل من اختار علما من العلوم أو صناعة من الصناعات الرئيس الذى يختاره ليأخذ عنه العلم أو الصناعة .

وكان معاوية بن أبى سفيان يستدعى إلى مجلسه فى قصره بعض العلماء والأدباء والمؤرخين؛ ليقرءوا له تاريخ العرب ، ويحدثوه عن مواقعهم الشهيرة ، وعن تاريخ ملوك الفرس ونظم حكوماتهم وإدارتهم .

وقد جلس عبد الملك بن مروان يوما وعنده جماعة من خاصته فقال : أيكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه مرتبة وله علىّ ما يتمناه ؟

فقام إليه سويد بن غفلة فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين .

فقال عبد الملك : هات .

فقال سويد : أنف ، بطن ، ترقوة ، ثغر ، جمجمة ، حلق ، خد ، دماغ . . .

فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال: يا أمير المؤمنين، أنا أقولها في جسد الإنسان مرتين ..

فقال سويد: أنا أقولها ثلاثا وأنشأ: أنف، أسنان، أذن . . . إلخ . فأعطاه عبد الملك جائزة، وأنعم عليه، وبالغ في الإحسان إليه .

وقد حضر أعرابي مجلس عبدالملك بن مروان أيضا، وكان جرير حاضرا، فسأل عبد الملك الأعرابي: هل لك علم بالشعر ؟

قال العربي: سلني عما بدا لك يا أمير المؤمنين .

قال عبد الملك: أي بيت قالته العرب أمدح ؟

قال العربي: قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطونَ راح

فرفع جرير رأسه وتطاول .

ثم قال عبد الملك: فأي بيت قالته العرب أفخر ؟

قال العربي: قول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهمُ غضابا

فتحرك جرير، ثم قال عبد الملك: فأي بيت أهجى ؟

قال العربي: قول جرير :

فغض الطرف إنك من نُمير فلا كعبا بلغتَ ولا كلابا

فاستشرف جرير لذلك .

ثم قال عبد الملك: فأي بيت أغزل ؟

قال العربي: قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حوَر قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فاهتز جرير وطرب .

ثم قال عبد الملك: فأي بيت أحسن تشبيها ؟

قال العربى : قول جرير :

سَرى نحوهم ليل كأن نجومه   قناديل فيهن الذبال المفتّل

فقال جرير : جائزتى للعربى يا أمير المؤمنين .

فقال له عبد الملك : وله مثلها من بيت المال ، ولك جائزتك يا جرير ، لا ننتقص منها شيئا . وكانت جائزة جرير أربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان والكسوة . فخرج العربى وفى يده اليمنى ثمانية آلاف درهم ، وفى اليسرى رزمة ثياب .

هذا مثل من الأمثلة لمجالس الأدب فى العصر الأموى ، فلما قامت الدولة العباسية ظهرت المنتديات الأدبية بمعناها التام فى العالم الإسلامى ، وصارت تعقد فى أوقات محددة ، وشملت تلك المنتديات قصور الخلفاء ، وقصور الأمراء والعظماء ، ثم تنوعت المنتديات ، فكان منها منتديات للآداب ، ومنتديات للعلوم ، ومنتديات للفنون ، ولكن مجالس العلم والأدب استمرت أرفع المجالس قدرا ، وأعظمها منزلة .

وفى مجلس هارون الرشيد كانت تعقد مناظرات بين الشعراء ، ومناقشات بين الفقهاء ، ومساجلات بين أهل الفنون والأدباء .

وكان عصر المأمون أزهى العصور فى تاريخ النهضة العلمية والأدبية والدينية فى الإمبراطورية الإسلامية ؛ فقد كان المأمون نفسه عالما من كبار العلماء ، أديبا من أساطين الأدباء ، واختار أصحابه ورجال دولته من الأفذاذ فى الشرق والغرب . وكان بجانبه كبار الأساتذة والمفكرين والمستشارين والمترجمين . ويقول سيد أمير على القاضى الهندى : إن معية المأمون كان بها عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء ، والأطباء والفلاسفة الذين استدعاهم المأمون من جهات كثيرة فى العالم المتمدّن ، وشملهم جميعا بعنايته مع اختلاف ميولهم وجنسياتهم .

وكثيرا ما أخذ المأمون نفسه الدور الرئيسى فى المناظرات التى فى مجلسه .

ففى عصر المأمون ارتقت العلوم الدينية واللسانية ، واستفادت هذه المجالس كل الاستفادة من الترجمة والتقدم العلمى .

وكان السلطان محمود الغزنوى يحب العلم والعلماء ، ويكرمهم ويجالسهم ويحسن إليهم ، وتعقد المناظرات الطويلة بين يديه .

فقصور الخلفاء والأمراء والقادة كانت تقوم مقام الجامعات فى عصرنا هذا . وكان الحكام يتنافسون فى حماية الأدباء والعلماء ، والطلبة ، ويعملون على النهوض بالأدب والعلم والدين والحكمة .

وفى تلك الحلقات والمجتمعات كانت تقام البحوث والمناظرات . وكان الباحثون والمتناظرون يعتمدون على المنطق وسلامة التفكير وقوة الجدل والمناقشة ؛ فقد روى أنه اجتمع متكلمان فقال أحدهما : هل لك فى المناظرة ؟

فقال الآخر :على شرائط : ألا تغضب، ولا تعجب ، ولا تشغب ، ولا تحكم ، ولا تقبل على غيرى وأنا أكلمك ، ولا تجعل الدعوى دليلا ، ولا تجوّز لنفسك تأويل آية على مذهبك إلا جوزت لى تأويل مثلها على مذهبى ، وعلى أن تؤثر التصادق ، وتنقاد للتعارف ، وعلى أن كلا منا يبنى مناظرته على أن الحق ضالته ، والرشد غايته .

ومن هذا ترى أنه كان لعلم البحث والمناظرة قواعد يجب أن تراعى ، وكان فى تلك البحوث والمناظرات مجال كبير للثقافة وإبداء الآراء والأفكار ، فالحلقات والمنتديات الأدبية والعلمية كانت بمثابة قاعات واسعة للمحاضرات والمناظرات والتدريس .

وفى القصور المصرية بدأت المنتديات الأدبية منذ ظهرت الدولة الطولونية ، وكانت الدروس تلقى فى قصور الأمراء والوزراء ، وفى بيوت العلماء .

وفى بلاط الإخشيد كانت الأبحاث التاريخية تلقى كل مساء . وقد تربى كافور الإخشيدى فى هذا البلاط ، وترقى حتى جعله الإخشيد معلماً لولديه ، فلما تسلم كافور الإخشيدى الأمر قرب الشعراء منه . وأعطاهم الجوائز . وفى كل ليلة كانت السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية تقرأ عنده. وصار كافور حامياً للعلماء والأدباء، وامتاز قصره بوجود المتنبى بين جماعته لينشد الكثير من شعره .

وكان الفاطميون يعقدون مجالس ومنتديات علمية من وقت لآخر ، وقوام هذه المجالس أساتذة بيت الحكمة الذين كانوا ينقسمون إلى جماعات تبعاً لتخصصهم ومواد دراستهم . فكان يجتمع هنا أساتذة المنطق والجدل ، وهناك الفقهاء والمحدثون ، وفى مكان ثالث علماء الرياضة، ويشغل الأطباء مكاناً رابعاً وهكذا . . وكل واحد من هؤلاء يلبس رداء خاصًّا يشبه الرداء الجامعى الذى يلبسه الحاصلون على الدرجات العلمية والأدبية فى الوقت الحاضر .

وكان بين سلاطين الأيوبيين ووزرائهم سادة نجباء ، وأفذاذ من العلماء ، لهم قدم راسخة فى العلم والأدب ، من أمثال القاضى الفاضل الوزير الشهير الذى كان يجتمع فى مجلسه علية القوم .

الفصل السابع

(٦) التربية الإسلامية العالية

لقد حث الإسلام على التعليم ، فأقبل المسلمون عليه وانتشر في المساجد والجوامع في جميع البلاد الإسلامية ، وكثرت الحلقات التعليمية فيها بجانب الصلاة والعبادة ، وأحس المسلمون أنهم حقاً في حاجة إلى إنشاء مدارس علمية ومعاهد عالية ؛ كي لا يحدث ضجيج في المساجد الضيقة في أثناء الدرس ، بسبب الجدل والمناقشة في الدروس . ويرى المقريزي في الخطط أن المدارس لم تعرف في عهد الصحابة والتابعين ، ولم تنشأ إلا في نهاية القرن الرابع الهجري ، وأن أهل نيسابور أول من بنوا مدرسة في الإسلام وسموها المدرسة البيهقية .

وقد تسابق الخلفاء والمسلمون في إنشاء المدارس الإسلامية العالية ، وأعدوها إعداداً كاملا ، وبنوا في كل مدرسة كبيرة إيواناً ؛ أي قاعة متسعة للمحاضرات ، بحيث تسع عدداً كبيراً من الطلبة المتشوقين لطلب العلم ، وقسما داخلياً ليقيم فيه الطلاب ، ويتفرغوا للدراسة ، ومساكن خاصة بالمدرسين والعلماء الذين يقومون بالتدريس ، وأنشأوا بها جميع وسائل الراحة من المرافق ودورات المياه ، والمطبخ الذى تطهى فيه الأطعمة ، والمطعم الذى يتناولون فيه طعامهم .

وكان لكل مدرسة إيراد خاص يؤخذ من الأوقاف التي وقفت على المدرسة للإنفاق على طلبتها وأساتذتها .

وقد عنيت تلك المدارس بدراسة الدين الإسلامي ، والفقه على المذاهب السنية ، الأربعة ، والتوحيد ، واللغة العربية ، ونشر العلوم والمعارف ، وتقوية مذهب أهل السنة ومقاومة أهل الشيعة وهم أنصار سيدنا علي . وهنا نذكر أهم تلك المدارس العالية :

١ — المدارس النظامية ببغداد :

حينما استولى السلاجقة على بغداد وعلى أغلب العالم الإسلامى ظهر اسم الوزير نظام الملك الذى كان السلطان الحقيقى للدولة الأولى للسلاجقة ، وكان هو نفسه فقيها وعالما[١] ، فكانت تعقد المناظرات فى حضرته . وقد خرج له الغزالى مرة ، وناظر الأئمة والعلماء فى مجلسه ، وقهر الخصوم ، وظهر كلامه على الجميع ، فولاه نظام الملك التدريس بمدرسة من المدارس العالية الشهيرة ، وهى المدرسة النظامية ببغداد التى أنشأها ذلك الوزير العظيم نظام الملك . وقد بدئ فى بنائها سنة ٤٥٧ هـ وتم بناؤها سنة ٤٥٩ هـ ، وتقع على شاطئ نهر دجلة . وقد أنشأ كثيرا من المدارس النظامية التى نسبت إليه. والمدرسة النظامية ببغداد هى المدرسة الأولى منها . وتعد حقا من المدارس العظيمة التى يحق لنا أن نفخر بها . وعين لها الأساتذة والعلماء فانتظمت أحوالها .

ومن أساتذة المدرسة النظامية ببغداد الشيخ أبو إسحاق الشيرازى صاحب كتاب التنبيه[٢] فى الفقه على مذهب الشافعية ، وهو عالم جليل أحيا من العلم ما درس ، وكشف من الحق ما التبس ، وشرح الأصول وفرعها ، وأوضح الأدلة ونوّعها ، وكان لمكتبة المدرسة النظامية ببغداد فهرس واف دقيق يحتوى على نحو ستة آلاف مجلد وهى موقوفة على تلك المدرسة .

وأنشأ فى كل قرية ومدينة مدرسة للعمل على نشر العلم والدين ، وأمدها بالكتب والمال والمدرسين . قال أبو شامة فى كتاب الروضتين : « ومدارس نظام الملك فى العالم مشهورة . لم يخل بلد من شيء منها . » وهى تمثل المدارس فى القرون الوسطى. وقد أنشأ مدرسة فخمة فى كل من البلاد الآتية :

بغداد ، وبلخ ، ونيسابور ، وهراة ، وأصفهان ، والبصرة ، ومرو ، وآمل ، والموصل .

وكان فى كل من مدن العراق ومدن خراسان مدرسة لنظام الملك ، وحاكاه غيره من

---

(١) طبقات الشافعية . (٢) طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٥

المسلمين فى إنشاء المدارس ، فانتشرت فى القرى والبلدان والعواصم الكبيرة فى البلاد الإسلامية .

ولم تنشأ فى مصر مدارس إلا بعد أن انتهت دولة الفاطميين وقامت دولة الأيوبيين . ففى عهد الدولة الأيوبية انتشرت المدارس كثيرا فى مصر، كما انتشرت فى سورية . وظلت تنتشر فى عصر المماليك . وكان لنور الدين زنكى الذى صار مالكا لسورية بعد انتهاء عهد السلاجقة ميل كبير لرعاية الثقافة والعلوم . وكان للعلماء عنده مجلس عظيم ، وكان يجمعهم عنده للبحث والمناظرة ، واستقدمهم إليه من البلاد الشاسعة الأطراف .

والفرق بين المدرسة والمسجد لا يذكر ، فالمسجد كان للعبادة ، والتعليم ، والنظر فى القضايا ومظالم الناس ، وبالمثل كانت المدرسة ، غير أنها كانت معدة للدراسة ، وإقامة الطلبة المتفرغين .

وقد تنافس الخلفاء والأثرياء من المسلمين فى جميع أنحاء العالم الإسلامى فى إنشاء المدارس منذ القرن الحادى عشر الميلادى . ويظهر الفن الإسلامى فى مبانى تلك المدارس ، وخصصت بها أوقاف كثيرة للإنفاق منها على من بها من الفقهاء والطلبة والموظفين . وكان الطلاب يسكنون فى أقسامها الداخلية كما يحدث الآن فى جامعتى (أكسفورد وكمبردج) .

٢ — المدرسة المستنصرية ببغداد :

وتعد المدرسة المستنصرية التى أنشأها الخليفة العباسى المستنصر ببغداد فى القرن الثالث عشر الميلادى سنة ١٢٣٤م من أعظم المدارس الإسلامية . وقد بذل فى تشييدها كثير من المال مما يدل على عناية المسلمين بالتربية والتعليم ، وتقديسهم للعلم والعلماء . وكان بها قاعة للمحاضرات لكل مذهب من المذاهب الأربعة ، ولكل مذهب أستاذ خاص، وكان الطالب يتعلم بالمجان فيها ، ويتسلم دينارا من الذهب كل شهر ، وتزود المدرسة طلبتها باللحم والخبز كل يوم . وكان بها مكتبة غنية تشتمل على كتب كثيرة فى جميع العلوم ؛ كى يتمكن الطلبة من الاطلاع على ما يشاءون منها ، وجعل فيها ما يحتاج إليه من الورق والمداد لاستعمالها ،

وانتفاع الطلمين والناسخين بهما . وكان بها حمامات للاستحمام ، ومستشفى به طبيب لمعالجة الطلاب .

٣ — المدرسة الناصرية بالقاهرة :

وقد ذكر المقريزى ، أن السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصورى بدأ فى بناء المدرسة الناصرية بالقاهرة ، وأتمها السلطان محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ هـ وقال : إنها من أجمل مبانى القاهرة ، وبابها من أعجب ما عملته أيدي بنى آدم . وذكر أيضاً عن المدرسة الطيبرسية أنها أنشئت بجوار الجامع الأزهر سنة ٧٠٩ بالقاهرة ، وقد أنشأها علاء الدين طيبرس ، وتفنن فى تجميلها ، وكان بها مكتبة ، ودرس فيها الفقه للشافعية .

وقد قامت الدولة الأيوبية بإنشاء كثير من المدارس فى مصر ، واشترك المصريون فى إنشائها ، وأسهم السكان حتى الخدم فى بنائها رغبة فى نشر العلم والتعليم بين المسلمين . وكان فى كل مدرسة مكتبة تزود بالكتب كى يسهل على الطلبة الاطلاع .

وانتشرت المدارس فى مصر وسورية وبغداد ، وشجع الخلفاء والمسلمون التعليم بكل وسيلة .

ومن المدارس التى أنشأها الملك الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكى :

٤ — المدرسة النورية الكبرى بدمشق :

وقد زارها ابن جبير ، ونذكر هنا ما وصفها به مع قليل من التصرف : « من أحسن مدارس الدنيا مظهراً مدرسة نور الدين رحمه الله ، وهى قصر من القصور الأنيقة ، ينصب فيه الماء وسط نهر عظيم ، وفيه كل ما يحتاج إليه معهد على للدراسة العالية . وهو مزود بقسم داخلى كامل المرافق ، وتبعد تلك المدرسة عن الجامع الأموى بدمشق بنصف ميل تقريباً . ومساحتها ١٥٠٠ متر مربع بالتقريب . وبها بيت خاص لمدرسى المدرسة ، وأهم مكان بها قاعة المحاضرات ، وهى قاعة كبيرة تسع عدداً كبيراً من الطلاب . . . وبالمدرسة

مسجد مفتوح لمن يرغب فى العبادة . وهناك استراحة للمدرسين ، ومساكن للطلبة المقيمين بالقسم الداخلى ، ومسكن لخـــادم المدرسة ، ودورة للمياه ، ومخزن للأدوات الزائدة بالمدرسة » .

ويعد ظهور المدارس أهم محاولة فى الإسلام لتنظيم الدراسة والتربية والتعليم فى البلاد الإسلامية ، وتوفير وسائل التفرغ لطالب العلم بتقديم المساعدات المالية للطلاب ، وتزويد تلك المدارس بالأساتذة الممتازين ، والـكتب النادرة .

والحق أن الإسلام قد سبق الغرب فى نشر التعليم ، وجعله واجباً دينيًّا . ولم يجد الفقراء من المسلمين أى عقبة فى سبيل التعلم . فإذا وجدت الرغبة فى العلم لدى الطالب وجد أبواب التعليم مفتوحة أمامه ، ووجد وسائل العيش ميسرة ، فهناك من يقوم بتعليمه ، ومن يقوم بكل ما يحتاج إليه من غذاء وكساء ومسكن ، وعلاج ، ونفقة خاصة، ولم يضطر الطالب المسلم إلى العمل فى الفنادق والمطاعم صيفاً ـ كما يفعل الطالب فى الولايات المتحدة الأمريكية ـ كى يستطيع القيام بدفع نفقات الجامعات فى سبتمبر أو أكتوبر . وكانت (الديمقراطية) سائدة فى المعاهد الإسلامية ، فلا تفرقة بين الأغنياء والفقراء فى المدارس ؛ لأن الإسلام يحث على المساواة فى قوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا فضلَ لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

كما يحث على الإخاء فى قوله عز وجل : « إنما المؤمنون إخْوةٌ » .

ويحث على تـكافؤ الفرص ، فى إعطاء الفقير الفرصة التى يعطاها الغنى . فلم تـكن هناك مدارس مقصورة على الأغنياء ، وأخرى خاصة بالفقراء . فالـكل فى نظر الإسلام سواء . ولم تحدث هذه التفرقة بين الغنى والفقير فى المعاملة والتعليم إلا فى عهد الاستعمار الأجنبى . فالناس فى الإسلام سواسية كأسنان المشط . ولم تـكن هناك تفرقة عنصرية . فأسامة بن زيد جعل قائداً للجيش الإسلامى مع أنه شاب فقير ، وكان هناك عدد كبير من عظماء الإسلام .

الفصل الثامن

(٧) التعليم فى دور الكتب

كان لعناية المسلمين بإنشاء دور الكتب والمكتبات أثر كبير فى تيسير وسائل الثقافة والتعلم ، وتشجيع الطلاب على الاستمرار فى الدراسة والبحث العلمى . وقد انتشرت المكتبات فى الإسلام انتشارا عظيما يدعو إلى الفخر والإعجاب ؛ فقد كان فى معظم المساجد والجوامع والمدارس ودور العلم ودور الحكمة مكتبات كبيرة مزودة بالكتب المختلفة والمراجع النادرة ، ليرجع إليها الطلبة والعلماء والقراء والنساخ فى أى وقت شاءوا .

وقد ذكر المقريزى أن المدرسة الفاضلية ألحقت بها خزانة عظيمة للكتب بلغ عدد ما بها ١٠٠٫٠٠٠ كتاب . وهذا كان فى عصر لم تخترع فيه المطابع والطباعة . وأشار ابن القفطى إلى مكتبة كان عدد ما اشتملت عليه من الكتب فى الهندسة وعلم الفلك ٦٥٠٠ كتاب ، كما كان بها كرة أرضية لبطليموس ، وكرة أخرى لأبى الحسن الصوفى اشتريتا بمبلغ ٣٠٠٠ دينار . وهذا كله يدل على تشجيع الإسلام والمسلمين للعلم والبحث العلمى منذ قرون طويلة .

وقد ذكر ياقوت فى كتابه معجم الأدباء أنه كان بكركر [(١)] ضيعة نفيسة لعلى بن يحيى ابن المنجم ، وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة ، يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ، ويتعلمون صنوف العلم ، وتقدم لهم الكتب ، وينفق عليهم من مال على بن يحيى . فهذه مكتبة كان الطلاب يجدون فيها الكتاب والمسكن والطعام وهى كالمدرسة ولا ينقصها إلا المدرس .

كما ذكر ياقوت أيضا أنه كان فى مدينة واحدة من مدن خراسان عشر دور للكتب منظمة ، وتشتمل إحداها على ١٢٠٠٠ مجلد .

---

(١) قرية قريبة من بغداد .

وكان من أشهر دور الكتب في الأندلس خزانة الحكم الثاني التي بلغ عدد ما كان بها من الكتب ٤٠٠٠٠٠ كتاب . وقد تنافس المسلمون بحماسة لا نظير لها في إنشاء دور عامة للكتب ، ولم تسلم النساء من حب اقتناء الكتب وجمعها ؛ إذ كثر بينهن إنشاء المكتبات . ولا نبالغ إذا قلنا إن العبيد لم يسلموا من العدوى ، فكان لبعضهم أثر كبير في إنشاء المكتبات واقتناء الكتب وتزويدها بها مع أنها كانت غالية الثمن ؛ لأنها مخطوطات كتبت باليد ، ولعلو أثمانها كان لا يقتنيها إلا الأغنياء .

وانتشر العلم بين الفقراء المتعطشين الراغبين فيه أنشئت دور الكتب وفتحت للجميع ، وكانت بمثابة معاهد دينية وأدبية وعلمية . وكان بعض الأغنياء من المسلمين ينشئون المكتبات العامة ويعدونها إعدادا كاملا ، ويسمحون للطلبة بالانتفاع بها ، والاطلاع فيها ، والإقامة بها ، وتناول الطعام بالمجان فيها .

فالمكتبات الإسلامية ثلاثة أنواع :

(أ) مكتبات عامة .

(ب) مكتبات بين العامة والخاصة .

(ج) مكتبات خاصة .

ولنتكلم عن كل منهم فنقول :

(١) المكتبات العامة :

هي التي أنشأتها الدولة بالمساجد والجوامع والمدارس لتساعد في دراسة العلوم والآداب والمعارف ، ومنها :

١ — بيت الحكمة ببغداد :

هو بيت أسسه الخليفة هارون الرشيد ببغداد ، وعني به المأمون لحبه للعلوم والآداب . ولا عجب ؛ فقد كان واسع الثقافة ، حر التفكير . وكان في مكتبة بيت الحكمة كثير من

الـكتب والمخطوطات بلغات مختلفة ، منها : الـكتب القبطية ، واليونانية القديمة ، والهندية والفارسية والآرامية . وقد ترجمت إلى اللغة العربية فـكانت تراثا خالدا .

وكان بيت الحـكمة يعد أول مكتبة عامة لها شأن كبير فى العالم الإسلامى ، وأول جامعة إسلامية ، وأول مؤسسة دينية أدبية علمية فلسفية ، اجتمع فيها العلماء البارزون ، وقصد الطلاب المسلمون ، وأعطت الطلبة الفرصة فى التزود بالدراسات ، والتوسع فى الثقافة الأدبية والعلمية والطبية والفلسفية . .

وكان عصر المأمون أزهى العصور الثقافية لبيت الحـكمة ، فقد كان المأمون مثقفا ثقافة عالية ، وأديبا واسع الاطلاع ، ذا ذوق أدبى نادر ، فمنحه كل عنايته ورعايته .

٣ — دار الحـكمة بالقاهرة :

وقد أنشأها بالقاهرة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، فى يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ . وكانت تلك الدار معهدا دراسيا عظيما للدراسة والتعلم ، والقراءة والاطلاع ، ونسخ الـكتب . أعدها الحاكم بأمر الله إعدادا كاملا ، وزودها بكثير من الـكتب النفيسة ، والمخطوطات النادرة فى الدين ، والعلوم والآداب ، وأمدها بما يحتاج إليه الناسخون من أقلام ومحابر وأوراق . وجلس فيها الفقهاء والقراء وعلماء النحو واللغة والأطباء وعلماء الفلك ، وعين للأساتذة مرتبات كبيرة ، وللخدم والفراشين أجورا مناسبة ، وأمر بفتح أبوابها لـكل من يشاء الانتفاع بها ، والاستمتاع بما يلقى فيها من محاضرات ومناقشات علمية وأدبية ودينية . واستمرت دار الحـكمة بالقاهرة مفتوحة الأبواب حتى أوائل القرن السادس الهجرى .

وقد ذكر المقريزى فى خططه[١] أن دار الحـكمة بالقاهرة لم تفتح أبوابها للجماهير إلا بعد أن فرشت وزخرفت ، وعلقت الستور على جميع أبوابها وممراتها . وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم كلفوا خدمتها .

---

(١) جـ ١ ص ٤٥٨ .

٣ — دار العلم أو خزانة الكتب لسابور :

قد أسسها أبو نصر سابور بن أردشير سنة ٣٨٣ هـ ، وابتاع لها دارا بالكرخ ، وبناها أحسن بناء ، وسماها دار العلم ، ووقف عليها أوقافا للإنفاق منها على دار العلم . وقد ذكر ياقوت فى معجم البلدان[١] أنه كان بها ١٠٤٠٠ مجلد فى العلوم المختلفة .

وكانت دار العلم مركزا ثقافيا للبحث والدراسة والاطلاع ، والمناظرات والمحاورات والمجادلات، يجتمع فيها الباحثون والمتناظرون والمحاضرون والعلماء والأدباء . وكان الفيلسوف الكبير أبو العلاء المعرى لا يتركها ولا ينقطع عنها إذا ذهب إلى بغداد .

وكان معظم العلماء والأدباء والفلاسفة يقفون ما عندهم من النسخ والكتب التى يملكونها أو يؤلفونها لدار العلم ببغداد لتخليدها .

٤ — مكتبات المدارس :

حينما دعت الحاجة إلى إنشاء المدارس الإسلامية فى مصر وسورية والعراق وخراسان وغيرها من الإمبراطورية الإسلامية كان فى كل مدرسة مكتبة مزودة بكثير من الكتب الكبيرة والصغيرة فى مختلف العلوم . وأشهر المكتبات المدرسية : مكتبة المدرسة النظامية ببغداد التى أنشأها نظام الملك ، وزوده‍ا بكثير من الكتب الثمينة والمخطوطات النادرة ، ومنها كتاب : « غريب الحديث » لإبراهيم الحزمى فى عشرة مجلدات . وقد ظلت المدرسة النظامية موضع عناية الخلفاء والعظماء كما قلنا .

(ب) المكتبات التى بين العامة والخاصة :

ومن المكتبات التى بين العامة والخاصة مكتبات غنية عظيمة كان يملكها الخلفاء والملوك، ومنها مكتبة الناصر لدين الله ، ومكتبة المعتصم بالله، ومكتبة الفاطميين التى أنشئوها بالقاهرة، ونافسوا بها خلفاء بغداد ، وجعلوها فى القصر الفاطمى ، ويقال إنها كانت من عجائب الدنيا .

---

(١) جـ ٢ ص ٣٤٢

ولم يكن فى جميع البلاد الإسلامية دار كتب أعظم منها . وكان بها ١٫٦٠٠٫٠٠٠ كتاب ، وقيل ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ كتاب فى الفقه والنحو ، واللغة والحديث ، والتاريخ ، وسير الملوك وعلم الفلك ، والروحانيات والكيمياء .

(ج) المكتبات الخاصة :

من المكتبات الخاصة التى أنشأها العلماء والأدباء لاستعمالهم الخاص مكتبة الفتح ابن خاقان ، ومكتبة جمال الدين القفطى ، ومكتبة عماد الدين الأصفهانى .

وكما اهتم المسلمون بالكتب واقتنائها اهتموا بدور الكتب وخزائنها ، وحرصوا عليها وقدروها حق قدرها ، وكتبوا كثيرا عن أثرها فى تهذيب العقول ، وبث البطولة فى النفوس ، وتزويد القراء بالأفكار والآراء .

وقد هجم جنود من خراسان على دار ابن العميد ، وسرقوا ما فيها من أثاث وخزائن ، ولكنه لم يفكر إلا فى خزانة كتبه ؛ فقد كانت ثمينة ، بها كثير من الكتب العلمية والأدبية والدينية تبلغ مائة حمل وزيادة ، فلما رأى ابن العميد ابن مسكويه خازن كتبه سأله عنها ؛ فأجاب : هى بحالها لم تمسها يد . فسُرِّىَ عن ابن العميد ، وزال عنه الهمُّ ، وقال لابن مسكويه : أشهد أنك ميمون النقيبة ، أما سائر الخزائن فيوجد عنها عوض ، وأما هذه الخزانة فهى التى لا عوض لها .

تقدير المسلمين للكتب والمكتبات :

كانت الكتب غالية الثمن فى العصور الإسلامية القديمة ؛ لأنها مخطوطات يكتبها الناسخون الذين يحسنون الكتابة باليد ، ويعرفون بالدقة فى النقل ، والأمانة فى العمل ، فكان لا يقتنيها إلا الأغنياء القادرون على شرائها من المسلمين .

وكان المسلمون الأثرياء فى العصور الماضية يقومون بتعيين ناسخين فى المكتبات لنسخ الكتب التى يريدونها بأجر سخى ، فنفعوا العلم والأدب بما نقل لهم من الكتب النفيسة

وكان النساخ يتبادلون العمل نهارا وليلا ، بحيث لا ينقطع النسخ فى أى وقت من أوقات النهار أو الليل . وهذا أكبر دليل على تقدير المسلمين للعلوم والآداب .

وكان المأمون يعطى حنين بن إسحق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى اللغة العربية مثلا بمثل . وقد عنى الواثق عناية كبيرة بالمترجمين الذين نقلوا الكتب الأجنبية إلى اللغة العربية .

وكان بمكتبة بنى عمار بطرابلس الشام مائة وثمانون ناسخا ينسخون الكتب بأيديهم .

وكانت المكتبات وحوانيت الوراقين فى أوائل العصر العباسى تتخذ للتجارة فى الكتب وبيعها وشرائها ، كما تتخذ للقراءة والاطلاع ، والمناقشات العلمية والأدبية والدينية بين العلماء والأدباء والفقهاء ، الذين يجتمعون فيها كل يوم للبحث والدراسة والجدل والنقاش .

وقد تعددت تلك المكتبات التجارية فى عواصم البلاد الإسلامية ، وكثرت كثرة كبيرة تدل على إقبال المسلمين على العلوم والآداب والبحوث الدينية ، ونشر الثقافة والتربية والتعليم فى جميع أنحاء الإمبراطورية الإسلامية .

وكان بمصر فى أيام الطولونيين والإخشيديين سوق كبيرة لحوانيت الوراقين لبيع الكتب ونسخها ، والمناظرات والمناقشات أحيانا .

وكان بائعو الكتب فى معظم الأحيان مثقفين ثقافة علمية وأدبية ودينية ، يشاركون العلماء والأدباء والفقهاء فى بحثهم واطلاعهم وتأليفهم ونقاشهم . ومن الوراقين الذين شغلوا أنفسهم بالتأليف ابن النديم صاحب كتاب الفهرست ، وياقوت الحموى مؤلف معجم الأدباء ومعجم البلدان .

وكان الوراقون يقومون قبل اختراع الطباعة بنسخ الكتب ونقلها وبيعها لمن يريدها . وكان الجاحظ يكترى حوانيت الوراقين ، ويبيت فيها للنظر والبحث والقراءة ، والاطلاع على ما فيها من كتب متنوعة . وكان الطلبة والعلماء يقبلون عليها كل الإقبال ، ويقرءون ويشتركون فى المناقشات وإنشاء الأشعار .

وكان فى مصر سوق لحوانيت الكتب بين الصاغة والمدرسة الصالحية . وقبلها كان هناك سوق للكتب تجاه الناحية الشرقية من جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة . وقد أنشد بعض الشعراء قديما :

مجالسة السوق مذمومة ومنها مجالس قد تحتسب
فلا تقربن غير سوق الجياد وسوق السلاح وسوق الكتب
فهاتيك آلة أهل الوغى وهاتيك آلة أهل الأدب

وكان فى بغداد فى القرن السادس الهجرى سوق كبيرة للوراقين وتجار الكتب ، هى مجلس العلماء والأدباء والشعراء .

وكان لحوانيت الوراقين أثر علمي وأدبي وعقلي فيمن يتصلون بهم من أسرهم وغيرها . ومن أمثلة تأثير البيئة العلمية والأدبية فى الأسرة زينب وحمدة ابنتا زيد الوراق التاجر فى الكتب ، الذى كان يعيش فى وادى الحمى بالقرب من غرناطة ؛ فقد عرفتا بسعة الاطلاع والتبحر فى العلوم والآداب ، وكانتا على قدم المساواة مع الأساتذة والعلماء والأدباء فى ذلك العصر .

ولم تكن الثقافة العلمية والأدبية والدينية مقصورة على الأساتذة والطلاب وأصحاب المكتبات ، بل كانت عامة بين المسلمين ؛ فقد انتقل النشاط العلمى والأدبى والثقافى من حوانيت بائعى الكتب إلى حوانيت البيع والشراء .

قيل إن شابا رحل وسافر إلى بغداد كى يطلب العلم بها . فقرأ ما شاء الله أن يقرأ ، ودرس ما أراد أن يدرس ، ثم أراد العودة إلى أهله ووطنه . فاستأجر دابة ليركبها ويسافر بها من بغداد إلى بلده ، ولكنه قبل أن يركب وقف ينتظر قليلا حتى يشترى صاحب الدابة شيئا من الأشياء من حانوت أحد التجار ، فسمع الطالب الشاب نقاشا علميا يدور بين اثنين من أصحاب الحوانيت التجارية القريبة ، فأعجب الطالب كل الإعجاب بهذا النقاش بين التاجرين ، وتأثر منه كل التأثر ، وطلب من صاحب الدابة أن يعيده ثانية إلى محل إقامته ببغداد ، وقال له : إن بلدا باعتُه فى هذه المنزلة من العلم لا ينبغى أن يرحل عنه .

فالثقافة بين المسلمين كانت عامة ، والعلم كان منتشراً ، وسوق الأدب كانت رائجة . وكنت تجد علماء وأدباء ومثقفين بين العامة من المسلمين كالتجار وغيرهم . وكان للكتب لدى المسلمين منزلة كبيرة وتقدير عظيم . فقد حدث أن أرسل أحد الخلفاء ليطلب عالما من العلماء ليسامره ويتحدث معه ، فلما جاء الخادم إلى العالم وجده جالسا وحوله كثير من الكتب يقرؤها ويطلع عليها .

فقال له الخادم : إن أمير المؤمنين يستدعيك .

قال العالم : قل له . . . عندى قوم من الحكماء أحادثهم . فإذا فرغت منهم حضرت إليه.

فلما عاد الخادم إلى الخليفة وأخبره بذلك قال له : ويحك : من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده ؟

قال الخادم : والله يا أمير المؤمنين ما كان عنده أحد .

قال الخليفة : فأحضره الساعة كيف كان .

فلما حضر ذلك العالم قال له الخليفة : من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك ؟

قال العالم : يا أمير المؤمنين :

هم جلساء ما نملُّ حديثهم ... أمينون مأمونون غيبا ومشهدا
إذا ما خلونا كان خير حديثهم ... معينا على نفى الهموم مؤيدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ... وعقلا وتأديبا ورأيا وسؤددا
فلا ريبة تخشى ولا سوء عشرة ... ولا نتقى منهم لسانا ولا يدا
فإن قلت : أموات فلست بكاذب ... وإن قلت : أحياء فلست مفندا

فعلم الخليفة أنه يشير بذلك إلى الكتب فأعجب به ، ولم ينكر عليه تأخره .

وقال الجاحظ فى تقدير ما فى الكتاب من العلوم والآداب والمعارف والآراء والتجارب والأفكار : « لا أعلم ما جاء فى حداثة سنه ، ولا قرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع بين السير العجيبة والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة والتجارب الحكيمة ، والأخبار عن القرون الماضية ، والبلاد النازحة ما يجمعه كتاب . ومن لك

زائر إن شئت كانت زيارته رغبا ، وإن شئت لزمك لزوم الظل ، وكان منك كما كان بعضك[١] » .

« والكتاب صامت ما أسكتّه ، وبليغ ما استنطقته ، مسامر لا يبتديك فى حال شغلك ، ويدعوك فى أوقات نشاطك ، ولا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه . وهو جليس لا يطريك ، وصديق لا يغريك ، ورفيق لا يملّك ، ولا يخدعك بالنفاق ، ولا يحتال لك بالكذب[٢] » .

وكان المسلمون — وما زالوا — يقدرون الكتب كل التقدير ، ويعجبون بها كل الإعجاب : فقد اعتكف محمد بن عبد الملك الزيات فترة من الزمن ، ونوى الجاحظ أن يزوره ، فى بيته ، وفكر فى شىء يهديه إليه ، فلم يرقه شىء كما راقه كتاب سيبويه . وتسلم ابن الزيات الهدية قائلا للجاحظ : والله ما أهديت لى شيئا أحب إلىّ منه .

وكان علماء المسلمين يفضلون الجلوس فى مكتباتهم الغنية بالكتب للقراءة والاطلاع ، على أن يتولوا أعظم المناصب والمراكز لدى الولاة والحكام ، وكانوا يرسلون من يجوبون البلاد لشراء الكتب العلمية والأدبية من البلاد الأجنبية ، ليزودوا مكتباتهم بالكتب النادرة والنفيسة والجديدة .

وقد سمع الحكم صاحب الأندلس بكتاب الأغانى ، فأرسل إلى مصنفه أبى الفرج الأصفهانى ألف دينار من الذهب ، فبعث إليه نسخة منه .

وكان وجود المكتبة بالبيت يعد متمما لتأثيثه وزينته ، ولو لم يكن صاحب البيت مطلعا عالما . فقد روى المقريزى فى نفح الطيب[٣] عن الحضرمى أحد علماء الأندلس أنه قال : أقمت مدة بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب به ، لى بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع هو بخط فصيح ، وتفسير مليح ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد فى ثمنه فيرجع إلى المنادى بالزيادة على أن بلغ فوق حده ، فقلت للمنادى : أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى وصل ثمنه إلى ما لا يساويه فأرانى شخصا عليه لباس رياسة ، فدنوت منه ،

---

(١) المحاسن والأضداد ص ٢ (٢) الحيوان ج ١ ص ٥٠ — ٥١ (٣) ج ١ ص ٢١٨

فقلت له : أعز الله مولانا الفقيه ، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت فيه الزيادة بيننا فوق حده .

فقال لي : لست بفقيه ولا أدرى ما فيه ، ولكني أنشأت خزانة كتب لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب . فلما رأيته حسن الخط ، جيد التجليد ، استحسنته ولم أبال بارتفاع ثمنه .

وكان المسلمون في العصور الذهبية للإسلام مثقفين يعنون عناية كبيرة بدور الكتب العامة في القاهرة ، وبغداد ، وقرطبة ، وشيراز ، وغيرها من البلاد الإسلامية . وكان في تلك الدور حُجَر للاطلاع ، وحجر للنسخ ، وقاعات للمحاضرات ، وحلقة للدراسة ، وحجرات للموسيقا ؛ لتجديد نشاط القراء . وأثثت تلك الحجرات بأثاث فخم مريح ، وفرشت أرضها بالسجاجيد والبُسُط والحصر ، ووضعت على الأبواب والنوافذ ستائر جميلة ، وكانت الكتب في المكتبات الإسلامية توزع في الحجرات على حسب موضوعاتها .

وقد كتب ابن سينا يصف مكتبة السامانيين التي انتفع بها في بخارى : « دخلت دارا ذات بيوت كثيرة ، في كل بيت صناديق كتب منضدة ، بعضها فوق بعض ، في بيت منها كتب العربية والشعر ، وفي آخر الفقه ، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد » .

وكانت المكتبات غنية بالكتب ، مملوءة بكثير من الذخائر ، ولها فهارس منظمة . ويحكى ابن سينا أنه رأى من الكتب في مكتبة السامانيين ما لم يقع اسمه قط إلى كثير من الناس ، وما كان رآه من قبل ، ولا رآه أيضا من بعد .

وكانت المكتبات مرتبة ترتيبا حسنا ، وفهارسها منظمة تنظيما دقيقا ؛ كي يسهل الحصول على ما فيها من كتب ، والانتفاع بها من غير تعب .

وكان في كل مكتبة أمين خاص بها ، ونسّاخون لنسخ الكتب ، ومترجمون للترجمة ، ومجلدون للتجليد ، ومناولون لتقديم الكتب للراغبين في القراءة .

وكان أمناء المكتبات يختارون من العلماء والأدباء ، والمؤلفين المشهورين ، والأساتذة المثقفين ، الذين يستطيعون دراسة الكتب والحكم عليها مثل : سهل بن هارون ، وابن مسكويه ، وأبي يوسف الأسفراييني

وفي أرقى الدول الآن يعد أمين المكتبة مرجعا للطلاب والأساتذة ، كما كان أمناء المكتبات في عصر الدولة العباسية .

الفصل التاسع

(٨) التعليم فى البادية

كان العرب فى الجاهلية يعجبون بلغتهم العربية ، ويقدرونها حق قدرها ، ويتأثرون كثيراً بالأدب العربى . فالقصيدة الحماسية أو الخطبة النارية تقودهم للحرب ، وأبيات العفو والصفح تميل بهم إلى الإخاء والسلم . وبعد أن ظهر الإسلام زاد إعجابهم بالعربية الفصحى ؛ فقد كان القرآن الكريم فى أرقى درجات البلاغة العربية ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم عربيًا مبينًا .

وقد استمرت لغة العرب فصيحة خالية من الخطأ ، حتى صدر الإسلام ؛ ولكن اختلاط العرب بغيرهم قد أدى إلى وجود اللحن بينهم . وكان اللحن يعد عيباً كبيراً لا يصح أن يرتكب . فقد روى أن رجلاً لحن فى حضرة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال الرسول لأصحابه :

« أرشدوا أخاكم فقد ضل »

وبانتشار الإسلام اضطر المسلمون من العرب إلى الاختلاط بالفرس والأجانب المختلفين فى اللغة ، فى المدينة ودمشق وبغداد والكوفة والبصرة . وتزوج العرب أجنبيات ، ففسد اللسان العربى فى المدن والبيوت ، ولم يستطع الأجانب معرفة قواعد اللغة العربية كما ينبغى ، فظهرت لغة المولّدين ، وبدأ الخطأ فى الكتابة والتخاطب .

ولم يقتصر اللحن على الأعاجم ، بل تجاوزهم إلى العرب أنفسهم . وكان العرب ينفرون ممن يلحن فى اللغة العربية . وقد قيل إن كاتباً لأبى موسى الأشعرى كتب إلى سيدنا عمر ابن الخطاب « من أبو موسى[١] الأشعرى » ، فكتب عمر إلى أبى موسى أن يضرب كاتبه سوطًا .

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٢ ص ٤ .

ودخل أعرابى السوق ، فسمع الناس يلحنون ، فقال : سبحان الله : يلحنون ويربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح . وممن وقعوا فى اللحن الوليد بن عبد الملك ، والحجاج بن يوسف ، وشبيب بن شيبة وغيرهم . وكان اللحن أكثر خطراً عندما وقع فى القرآن ، فغير المعنى تغييراً يؤدى بصاحبه إلى الكفر لو قصد ، كاللحن الذى وقع فى الآية الكريمة : « هو الله الخالق البارئ المصور » ، فقد قرأها قارئ المصوَّر بفتح الواو . وكالأعرابى الذى أقرأه رجل سورة براءة ولحن فى تعليم الآية الكريمة : « أن الله برئ من المشركين ورسولُه » فأقرأها له : « أن الله برئ من المشركين ورسولِه » بكسر اللام .

فقال الأعرابى : إن يكن الله بريئاً من رسوله فأنا أبرأ منه أيضاً .

وفى الوقت الذى انتشر فيه اللحن فى اللغة العربية فى المدن لاختلاط العرب بالأعاجم فيها بقيت لغة العرب سليمة تماماً فى البادية والصحراء لعدم الاختلاط فيها . فاللغة الصحيحة كانت تؤخذ عن البدو بالمحاكاة والتلقين والاستماع .

وانتهز عرب البادية فرصة انتشار اللحن فى المدن الإسلامية ، فسافروا إلى المدن ، وأخذوا يعلمون الناس اللغة العربية الفصيحة ، واتخذوا التعليم مهنة لهم .

وقد اكتفى بعض الناس بالتعلم من البدو فى المدن والقرى ، ولكن هناك آخرين لم يكتفوا بهذا التعليم ، بل هجروا المدن والعواصم والمدينة ، وذهبوا إلى البادية ، وعاشوا فيها ليتعلموا لغة العرب فى منبعها الأصيل ، ويتجنبوا استماع لغة المولَّدين .

فالبادية كانت تقوم بواجب تعليم النشء اللغة العربية الخالصة فى القرنين الأول والثانى من الهجرة .

وكانت صحراء سورية تتخذ مدرسة للأمراء من بنى أمية ؛ لتعليمهم اللغة الفصيحة الخالية من العجمة ، حتى يكسبوا ذوقاً يتذوقون به فنون الشعر والأدب .

ولم يقصد الصحراء لدراسة اللغة العربية الفصحى الأمراء فحسب ، بل قصدها أيضاً كثير من العلماء والأدباء والفقهاء ، ومنهم :

(١) الخليل بن أحمد[١] ؛ فقد سأله الكسائى مرة : من أين علمك هذا ؟ فأجاب : من بوادى الحجاز ونجد وتهامة .

(٢) وبشار بن برد[٢] ؛ فقد قيل له مرة : ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه ، وإنه ليس فى شعرك ما يشك فيه .

قال : ومن أين يأتينى الخطأ ؟ ولدت ههنا ، ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ . وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت (أى خرجت إلى البادية) إلى أن أدركت . فمن أين يأتينى الخطأ ؟

(٣) والكسائى[٣] خرج إلى البادية وتعلم فيها ، وأنفد خمس عشرة قنينة من الحبر فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظه . وهو إمام الكوفيين فى النحو واللغة . وقد جعله الرشيد مؤدبا لابنه الأمين .

(٤) والإمام الشافعى[٤] قال فى وصف حياته الأولى : « ثم إنى خرجت عن مكة فلزمت هُذَيلا فى البادية أتعلم كلامها ، وآخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة أرحل برحيلهم ، وأنزل بنزولهم . فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار ، وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب » .

وكانت اللغة العربية الفصحى وحدها هى اللغة المستعملة فى البادية . وكان بها حلقات علمية وأدبية يعقدها كثير من المثقفين والأفذاذ من البدو ؛ ليرووا أجود الشعر ، ويقرءوا سيرة العرب ، وتاريخ وقائعهم وحروبهم ، وحياة السابقين من أبطالهم .

---

(١) ولد الخليل سنة مائة من الهجرة ، وتوفى سنة ١٧٤ هـ . وهو أديب نابغة ، ابتكر العروض والمعاجم ، وهو صاحب الشكل العربى المستعمل .

(٢) هو أحد الملفاء المكفوفين ؛ اتهم بالزندقة والتعصب ضد العرب ؛ لأنه فارسى الأصل . وقد قتل سنة ١٦٨ هـ .

(٣) نشأ بالكوفة . وقد توفى سنه ١٨٩ هـ .

(٤) يجتمع الإمام الشافعى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف . وقد ولد بمدينة غزة من أرض فلسطين سنة ١٥٠ هـ ، ثم حمل إلى مكة وهو ابن سنتين ، فنشأ بها . وعرف بالذكاء الفائق ، والذاكرة القوية ، وهو تلميذ للإمام مالك ؛ فقد قرأ الشافعى عليه كتاب الموطأ بالمدينة . وقد كان فقيراً فى طفولته ، فربته أمه وهى أرملة . وجاء إلى مصر سنة ١٩٩ هـ ، وسكن الفسطاط (مصر القديمة) ، وبها أملى مذهبه بجامع عمرو بن العاص . وتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، وقبره بها معروف .

الفصل العاشر

التربية والأخلاق فى الإسلام

إن المثل الأسمى فى التربية الإسلامية هو التربية الخلقية التى تعمل على تكوين رجال مهذبين ، وسيدات مهذبات ، ذوى نفوس أبية ، وإرادة قوية ، وعزيمة صادقة ، وأخلاق عالية ، يعرفون معنى الواجب ويقومون به ، ويقدرون حقـــوق الإنسانية ، ويميزون الغث (الهزيل) من السمين ، والحسن من القبيح ، ويختارون الفضيلة حبًّا للفضيلة ، ويجتنبون الرذيلة لأنها رذيلة ، ويراقبون الله فى كل عمل يعملونه . وحينما أراد الله أن يثنى على نبيه الكريم خاطبه بقوله: «وإنك لعَلَى خُلُقٍ عظيم» ، وقال صلوات الله عليه : « إنما بُعِثْتُ لأتمم مكارمَ الأخلاق » . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه للرسول الكريم: لقد طفتُ العرب، وسمعت فصحاءهم ، فما رأيت ولا سمعت مثلك أحداً . . . فمن أدبك ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

ولله در المرحوم شوقى حيث يقول :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هُمو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وإن الغرض من التربية الخلقية فى الإسلام تكوين رجال كريمى الأخلاق ، أقوياء العزيمة ، مهذبين فى أقوالهم وأفعالهم ، نبلاء فى تصرفاتهم وخلقهم، ديدنهم الحكمة والكمال والأدب والإخلاص والطهارة . فروح التربية الإسلامية هى التربية الخلقية . ولقد أجمع فلاسفة التربية الإسلامية على أن الغرض الخلقى الذى يجب أن يرمى إليه المربى هو الغرض الحقيقى من التربية التى يصح أن نطلق عليها ذلك الاسم ، وليس معنى هذا أن نقلل العناية بالتربية الجسمية أو العقلية ، بل معناه أن نعنى بالناحية الخلقية الإسلامية ، وتكوين الخلق الكامل ، كما نعنى بالناحية الجسمية والناحية العقلية والعلمية والعملية ؛ فالطفل فى حاجة إلى قوة فى الجسم والعقل والخلق ، بحيث يعنى بجسمه ، ويفكر بنفسه، ويبحث وراء الحقيقة

ويعمل بيده ، ويقول الحق ، ويدافع عن الحق ، ويخلص فى عمله الإخلاص كله ، ويضحى بمصلحته فى سبيل المصلحة العامة ، ويتمسك بالفضيلة ، ويتجنب الرذيلة .

وقد اتفق علماء التربية الإسلامية على أن العلم الذى لا يؤدى إلى الفضيلة والكمال لا يستحق أن يسمى علماً ، وأنه ليس الغرض من التربية والتعليم حشو أذهان التلاميذ بالمعلومات، بل الغرض تهذيب الأخلاق مع العناية بالصحة والتربية البدنية والعقلية والوجدانية والعملية ، وإعداد الطفل للحياة الاجتماعية . فالأخلاق الكاملة هى الغرض الأول والأسمى من التربية الإسلامية . فليس الغرض من تعليم الطفل أن نعلمه من العلم مالم يعلم ، بل الغرض أن نبث فيه الفضيلة ، ونعوده الأخلاق الكريمة ، والآداب الإسلامية ، والمعاملة الحسنة ، حتى تكون الحياة طاهرة . . كلها طهارة وإخلاص .

وإن التربية الإسلامية توجب على المدرس أن يذكر دائما أننا لسنا فى حاجة إلى العلم وحسب ، ولكننا فى حاجة دائما إلى الأخلاق الفاضلة ، كما يذكر أن تكوين العادات الخلقية الحسنة فى المتعلمين من التمرن على البر والتقوى ، والصدق فى القول ، والوفاء بالوعد ، والإخلاص فى العمل، وأداء الواجب ، ومساعدة الضعيف ، والاعتماد على النفس ، والمثابرة على العمل ، والمحافظة على الوقت ، ومراعاة العدالة فى كل أمر — أكثر فائدة لهم من حشو أذهانهم بمعلومات نظرية ربما لا يحتاجون إليها فى الحياة العملية . وكما أن الوقاية خير من العلاج فى عالم الطب فالمحافظة على الأخلاق الفاضلة خير من إصلاحها فى عالم الأخلاق .

وتتطلب التربية الإسلامية من المعلم أن يتخذ التعليم والدروس وسائل نافعة فى تكوين العادات الحسنة لدى المتعلم ، وفى تهذيب أخلاقه ، وإحياء ضميره ، وتقوية إرادته ، وتربية حواسه ، وتوجيه ميوله الفطرية إلى الطريق المستقيم ، وتعويده فعل الخير ، واجتناب الشر .

العناية بالتربية الخلقية من الطفولة :

لقد أحس فلاسفة التربية الإسلامية بأهمية المرحلة الأولى من الطفولة فى التربية الخلقية وتعويد الأطفال العادات الخلقية الحسنة من الصغر ، واتفقوا جميعا على ضرورة العناية بتربية

الأطفال تربية كاملة فى أول مرحلة من حياتهم . فقديما قالوا : « التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر ، والتعليم فى الكبر كالنقش على الماء » . ولا عجب ؛ فقد قال فلاسفة التربية الحديثة فى القرن العشرين : إن الطفل يأخذ الطابع الذى يلازمه طوال حياته فى السنوات الخمس الأولى . وفى هذا المعنى قال ابن الجوزى فى كتابه : « الطب الروحانى » : « أقوم التقويم ما كان فى الصغر ، فأما إذا ترك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن كان رده صعبا . » ومعنى هذا أن التربية الخلقية المثلى يجب أن تبدأ فى البيت والأسرة من الصغر ، ولا يترك الطفل من غير تربية وتقويم وتهذيب ، بل يربى فى الطفولة حتى لا يعتاد عادة من العادات القبيحة ، فإنه إذا ترك وطبعه وأهمل ولم يهذب واعتاد عادات سيئة كان من الصعب رده عن تلك العادات ، وحمله على تركها ، فالوقاية خير من العلاج .

وسائل التربية الخلقية فى الإسلام :

إن للتربية الخلقية فى الإسلام وسائل منها :

١ ـ الطريقة المباشرة وهى : طريقة الوعظ والإرشاد والنصح ، وذكر الفوائد والمضار ؛ بأن توضح للمتعلمين الأمور النافعة ، والضارة ، وتعظهم وترشدهم إلى الخير . وتحثهم على التحلى بمكارم الأخلاق ، وتجنب الرذائل . وكثيرا ما يستعمل الشعر للأغراض الخلقية ؛ لأوزانه الموسيقية ، وعباراته الجميلة ، وقافيته المؤثرة ، وقوة تأثيره فى النفوس . ولهذا تجد الكتب الإسلامية فى الأدب والتاريخ مملوءة بالحكم والوصايا والمواعظ . ويتبع الأمريكيون بالولايات المتحدة هذه الطريقة فى التربية . ولنذكر هنا بعض الحكم والوصايا المعروفة فى تربية الأطفال تربية خلقية :

الأدب خير ميراث ، وحسن الخلق خير قرين ، والتوفيق خير قائد ، والاجتهاد أربح بضاعة . ولا مال أعود من العقل . ولا مصيبة أعظم من الجهل . ولا ظهير أوثق من المشورة . ولا وحدة أوحش من العجب .

وقد أوصت أعرابية ابنها وقد أراد سفرا فقالت :

أى بنى، إياك والنميمة ؛ فإنها تزرع الضغينة بين المحبين . وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا . وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام . . . وإياك والجود بدينك والبخل بمالك . وإذا هززت فاهزز كريما يلن لهزتك . ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها . ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فإن المرء لا يرى عيب نفسه . . . والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم . ومن جمع العلم والسخاء فقد أجاد ريطتها « ملاءتها » وسربالها .

٣ ــ الطريقة غير المباشرة فى التربية الخلقية وهى طريقة الإيحاء، كأن يلقن الأطفال أحسن الشعر فى الحكم ، وأحسن النصائح والأخبار ، ويمنعوا النظر فى الشعر السخيف وما فيه من ذكر العشق وأهله . ولا عجب ؛ فقد كان علماء التربية الإسلامية يؤمنون بأثر هذه الحكم والنصائح والقصص فى تهذيب أخلاق الأطفال ؛ لأنها تعتمد على الإيحاء الخارجى . وقد أثبتنا فى علم النفس أن له أثرا كبيرا فى تربية الأطفال ؛ فهم يصدقون كل ما يسمعون ، ويثقون فى كل ما يقرءونه فى كتبهم . ويتأثرون بتلك الأشعار والحكم العربية والوصايا الخلقية . وفى استطاعة المدرس أن يوحى إلى الأطفال كثيرا من الأخلاق الفاضلة ، كالصدق فى القول ، والأمانة فى العمل ، والعدالة فى الحكم ، والصراحة والشجاعة والإخلاص .

٣ ــ الانتفاع بما لدى الأطفال من ميول وغرائز فطرية فى تربيتهم تربية خلقية ، فعندهم مثلا ميل لمحاكاة من يتصلون بهم فى أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم . لهذا كان فلاسفة الإسلام يتطلبون من مؤدب الأطفال أن يكون متحليا بالفضيلة ، معروفا بالأخلاق النبيلة ، متجنبا للرذيلة ، وفى هذا المعنى قال عتبة بن أبى سفيان يوصى مؤدب ولده :

« ليكن إصلاحك ابنى إصلاحك لنفسك ، فإن عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح ما استقبحت . . . » .

وبالمثل أوصى ابن سينا الفيلسوف الطبيب : « أن يكون مع الصبى فى مكتبه صبية ،

حسنة آدابهم، مرضية عاداتهم ، لأن الصبي عن الصبي ألقن ، وهو عنه آخذ ، وبه آنس ». فالتلميذ يحاكي أستاذه وزملاءه قصدا ومن غير قصد فيما يقولون وما يفعلون ، ويأنس بما يأنسون ، ويشاركهم فيما يشعرون . ولهذا يوصي ابن سينا باختيار البيئة التي تتصل بالطفل ويتصل الطفل بها ، واختيار الأطفال المهذبين الذين يختلط بهم في المدرسة . وقد صدق ابن سينا في قوله . وقد ثبت في علم النفس أن الطفل بطبيعته يحاكي ما يحدث في المجتمع الذي يحيط به ، حسنا كان أو قبيحا ، فهو يحاكي من يعيشون معه أو يتصلون به ، من حيث لا يشعر ولا يشعرون . لهذا أوصى ابن سينا بما ينادي به علم النفس اليوم – بأن المقلَّد يجب أن يكون قدوة طيبة ، ونموذجا حسنا ، حتى لا يترك أثرا سيئا في نفس الطفل المقلِّد .

فللمحاكاة أثر كبير لا في التعليم وحسب ، بل في التربية الخلقية والعقلية أيضا . والتقليد عامل رئيسي في المرحلة الأولى لتكوين العادة ، فالطفل يرى الشيء يُفعل أمامه فيحاكيه ، ويكرره حتى يصير عادة له . وإنه في الواقع يحاكي أبويه وأخواته وإخوته الكبار ، ولكنه يكسب عن محاكاة الصغار أكثر مما يكسبه من محاكاة الكبار . وهذا ما يقصده ابن سينا من قوله : إن الصبي عن الصبي ألقن ، وهو عنه آخذ ، وبه آنس .

وقد استعان فلاسفة الإسلام بما لدى الطفل من ميل فطري للاجتماع بغيره من الأطفال، فأعطوه الفرصة في أن يرسل إلى كتَّاب أو مدرسة حيث يجد أطفالا آخرين يشترك معهم في التعلم ، ويختلط بهم ، ويتشجع بما يراه من تقدمهم ، لينافسهم منافسة شريفة ، ويجتهد في أن يصل إلى ما وصلوا إليه من النجاح في دراستهم . وإلى هذا يشير ابن سينا في كتاب السياسة بقوله : « ثم يحادث الصبيان ، والمحادثة تفيد انشراح العقل ، وتحل منعقد الفهم ؛ لأن كل واحد من أولئك إنما يتحدث بأعذب ما رأى ، وأغرب ما سمع ، فتكون غرابة الحديث سببا للتعجب منه ، والتعجب منه سببا لحفظه ، وداعيا إلى التحدث به ، ثم إنهم يترافقون ويتعارضون . . ويتعارضون الحقوق . وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة ، وفي ذلك تهذيب الأخلاق ، وتحريك لهممهم ، وتمرين لعاداتهم » .

فابن سينا قد نادى بما ينادي به علماء النفس والتربية والاجتماع اليوم من أن الإنسان

يميل بطبعه إلى الاختلاط بغيره لأنه اجتماعى بفطرته ، وشخصيته لا تقوى إلا فى بيئة اجتماعية ، حيث يستطيع أن يتصل بزملائه ، ويشترك معهم فى عملهم ولعبهم ، وسرورهم ، وحديثهم العذب ، وحل ما يعترضهم من مشكلات . وهذا مفيد له من النواحى الخلقية والجسمية والعقلية ؛ لأن الأطفال المتقاربين فى السن يشعرون بالحرية فى أقوالهم وأفعالهم ، ويتعلم بعضهم من بعض ويترافقون ويتعارضون . . ويتعاونون ويتبارون ، ويتفاطرون ويتساجلون ، ويحاكى كل منهم الآخر . وفى ذلك كله تهذيب لأخلاقهم ، وتنشيط لهممهم ، وتمرين لعاداتهم ، واتساع لخبرتهم وتجاربهم ، وكسب الكثير من الآراء والأفكار .

وكان المربون من المسلمين يعلمون أن لدى الطفل ميلا طبعيا لحب الثناء والظهور ، فيمدحونه على ما يبدو منه من قول حسن أو فعل جميل ، ويشجعونه على الاستمرار حتى يحافظ على منزلته لديهم ويجتهد فى إصلاح نفسه دائما . ولم يكثروا من اللوم والذم والتوبيخ حينما يظهر حبه لنفسه ورغبته الشديدة فى الأكل والشرب والملابس الجميلة ، لأن الإكثار من التأنيب يميت قلب الطفل . وإن حب النفس والنهم من الصفات المقوية إذا زادت على حدها بعثت الأثرة فى نفس الطفل . ولهذا نصحوا المؤدبين بالتقليل من التوبيخ واللوم ، واستعمال الحكمة فى معاملته ، فإن كلمة صغيرة من المدح والثناء والتشجيع وحسن الظن تصلحه وتهذبه ، وتقوم خلقه ؛ لأنه يحب الثناء بفطرته ، ويكره اللوم وتثبيط الهمم ، وإساءة الظن به .

٤ — تكوين العادات الحسنة فى الأطفال منذ الصغر :

لقد نادى فلاسفة التربية الإسلامية بما ينادى به علماء النفس والتربية والأخلاق اليوم من تكوين العادات الحسنة فى الطفل منذ الصغر ، كأن نعوده التبكير فى النوم ، والتبكير فى الاستيقاظ ، ونشجعه على المشى والحركة والرياضة البدنية ، ونعوده ألا يبصق فى مجلس ، ولا يمخط أو يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يضع رجلا على رجل ، وألا يكذب ولا يحلف البتة ، لا صادقا ولا كاذبا ، وأن يعود طاعة أبويه ومعلميه .

وهي كلها عادات صحية واجتماعية وخلقية يجب على المربين أن يبذلوا جهدهم في بثها في نفوس الناشئين ، من عهد الطفولة ، أي في الوقت الذي يكون فيه المجموع العصبي للطفل أشد مرونة ، وأكثر استعدادا للتكيف . وقد قيل : من شب على شيء شاب عليه . وكما يكون الطفل يكون الرجل .

وتتطلب التربية الإسلامية من المربي أن يتخذ الدروس وسيلة لتكوين العادات الحسنة لدى المتعلم ، وتهذيب أخلاقه ، وتعويده فعل الخير واجتناب الشر ، وتربيته تربية كاملة .

٥ ـ لا يمكننا أن ندعي أن المدرسة الإسلامية وحدها تستطيع أن تقوم بتربية الطفل تربية خلقية كاملة ، فهناك شركاء يشتركون مع المدرسة ، ولهم أثر كبير في تربية الطفل كالبيت والمجتمع . فلكي نصل إلى المثل الأسمى من التربية الخلقية للأبناء والبنات يجب أن يقوم البيت بواجبه نحو هذا النوع من التربية . ويجب أن يكون المجتمع كاملا لا يهدم ما يؤسسه البيت أو تبنيه المدرسة .

ولا يمكننا أن ننسى أن علماء الإسلام قد عنوا بالتربية الخلقية كل العناية ، فعملوا على تقويم المعوج من الأخلاق بالقدوة الحسنة ، والتفاهم على انفراد ، وانتهاز الفرصة الملائمة للتهذيب . وكانوا كالطبيب الذي لا يعطي الدواء إلا عند المرض ، وكالأم الحكيمة التي لا تقدم لابنها الغذاء إلا في وقته حينما يشعر بالجوع .

وإن من يتعمق في التربية الإسلامية يرى أن الغرض الأسمى منها تكوين الأخلاق ، وتربية الروح ؛ فكل درس يجب أن يكون درس أخلاق ، وكل معلم يجب أن يكون معلم أخلاق ، وكل مؤدِّب يجب أن يفكر في الأخلاق الدينية قبل أي شيء آخر .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن التربية الإسلامية كانت تتطلب من المربي دائما أن يكون المثل الأسمى للأخلاق ، كي تثمر العظة ، ويكون قدوة حسنة للمتعلمين . فالخلق الكامل عماد التربية الإسلامية . والغرض من الحياة هو الأخلاق الكاملة .

ولا نبالغ إذا قلنا إن المسلم الكامل هو الرجل المهذب الذي يطيع الله ورسوله ، ويحب

أخاه كما يحب نفسه ، ولا يؤذى جاره ، ولا يمس شعور غيره ، ولا يحقد على أحد ، ويجتهد فى أن يكون عادلا فى حكمه ، ومحال أن يتذكر السيئة وينسى الحسنة . وهو الصبور على تحمل المشاق الذى لا يبالى أبدا بالآلام . يستسلم للموت لأنه مقدر ، ويعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا . يرجع إلى الحق ، ولا يتمادى فى الباطل . يحترم الدين ويعمل به . يوقر رؤساء الدين العاملين وينظر إليهم بعين كلها الإخلاص والإجلال .

المسلم الكامل هو رجل الحق والصدق والوفاء ، والإحسان والإيثار ، سهل الخلق ، مخلص فى عمله ، حسن فى نيته . هو فاعل الخير ، ذو الهمة العالية ، والأخلاق السامية . يتحلى بكل فضيلة ، ويتجنب كل رذيلة .

وإن الغرض الأساسى من التربية الإسلامية أن يحيا الإنسان حياة طاهرة كلها إخلاص وطهارة ، ومن الممكن أن نلخص ذلك الغرض فى كلمة واحدة هى :

« الفضيلة » .

ومجمل القول : قد وفق علماء التربية الإسلامية فى الانتفاع بالعوامل المؤثرة فى التربية الخلقية ، فانتفعوا بما لدى الأطفال من الميول والغرائز الفطرية فى تكوين أحسن العادات الخلقية والوجدانية والعقلية والصحية ، وانتفعوا بالطرق المباشرة وغير المباشرة فى التربية الخلقية ، وكل ما نأخذه عليهم هو أنهم كانوا يميلون إلى الطرق المباشرة كالوعظ والإرشاد ، وحفظ الأشعار ، أكثر من غيرها . ولا يستطيع أحد أن ينكر ما انتفعوا به من الميول الفطرية ، والإيحاء ، والقدوة الحسنة ، والمحاكاة ، والمنافسة الشريفة ، وتكوين العادات الحسنة من الصغر فى الأطفال ، فنجحوا نجاحا باهرا فى التربية المثالية الخلقية .

تأديب الطفل فى نظر الغزالى :

يتفق الغزالى مع ابن سينا فى أن الوقاية خير من العلاج ، والواجب تعويد الطفل العادات الحميدة منذ الصغر حتى يعتادها فى الكبر . يقول الغزالى[1] : « .. اعلم أن الطريق فى رياضة

(١) انظر إحياء علوم الدين للغزالى جـ ٣ ص ٦٢

الصبيان من أهم الأمور وأوكدها . والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ... فإن عُوِّد الخير وعلمه نشأ عليه ، وسعد فى الدنيا والآخرة . وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك . . وصيانته[١] بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السوء . . . ومهما رأى فيه مخايل التمييز « فإنه » ينبغى أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فإنه إذا كان يحتشم ويستحى ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض ، فصار يستحى من شىء دون شىء ، وهذه هدية من الله تعالى إليه ، وبشارة تدل على الأخلاق ، وصفاء القلب ، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ . فالصبي المستحى لا ينبغى أن يهمل ، بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه . . . وإن الصبي إذا أهمل فى ابتداء نشأته خرج فى الأغلب ردىء الأخلاق ، كذابا حسودا سروقا ، نماما لحوحا ، ذا فضول وضحك وكيد ومجانة ، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب، ثم يشغل فى المكتب، فيتعلم القرآن وأحاديث الأخيار، وحكايات الأبرار وأحوالهم ؛ لينغرس فى نفسه حب الصالحين، ويُحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله . . . ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فإنه ينبغى أن يكرم عليه ، ويجازى عليه بما يفرح ، ويمدح بين أظهر الناس . فإن خالف ذلك فى بعض الأحوال مرة واحدة ينبغى أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه . . ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد فى إخفائه . . . وإن عاد ثانية ينبغى أن يعاتب سرا . . . ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا . . . فتفتضح بين الناس .

ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين ؛ فإنه يهون عليه سماع الملامة ، وركوب القبائح ، ويسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن حافظا هيبة الكلام معه ، فلا يوبخه إلا أحيانا ، والأم تخوفه بالأب ، وتزجره عن القبائح . . . ويعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة ، حتى لا يغلب عليه الكسل ، ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والده . . بل يعود التواضع ، وإكرام كل من عاشره ، والتلطف فى الكلام معهم . . .

(١) يقصد صيانة الأب لابنه .

ويعلم أن الرفعة فى الإعطاء لا فى الأخذ ، وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة ، وإن كان من أولاد الفقراء يعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة ، وأن ذلك من دأب الكلب ، فإنه يبصبص فى انتظار لقمة والطمع فيها . . .

وينبغى أن يعود ألا يبصق فى مجلسه ولا يتمخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده ؛ فإن ذلك دليل الكسل ، ويعلم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام ، ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة . . . ويمنع الحلف رأسا ، صادقا كان أو كاذبا حتى لا يعتاد ذلك من الصغر .

ويمنع أن يبتدئ بالكلام ، ويعود ألا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويوسع له المكان ، ويجلس بين يديه ، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ، ومن اللعن والسب ، ومن مخالطة من يجرى على لسانه شىء من ذلك ، فإن ذلك يسرى لا محالة من قرناء السوء . وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء . . .

وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبى . ومهما بلغ سن التمييز ينبغى ألا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة ، ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان .

فأوائل الأمور هى التى ينبغى أن تراعى ؛ فإن الصبى بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا ، وإنما أبواه يميلان إلى أحد الجانبين قال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

وإنى أقول صراحة من غير تعصب للغزالى بأن هذه الآراء كلها ثمينة فى عالم التربية الخلقية الحديثة اليوم ، فهو ينصح بإبعاد الطفل عن قرناء السوء ، ويقول إن الوقاية خير من العلاج . والتربية والتهذيب من أهم الأمور وأوكدها . ومن الذى يشك فى أن الطفل أمانة عند والديه ، وأثمن شىء فى الحياة ؟ ومن الواجب المحافظة على هذه الأمانة . وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة قابل للخير والشر ، فإن عود الخير وعلمه من الصغر نشأ عليه واعتاده فى

الكبر ، وكان سعيدا فى الدنيا والآخرة . وإن عود الشر وهو صغير وأهمل بدون تربية وتهذيب كما تهمل البهائم شقى وهلك فى حياته . ولصيانة الطفل والمحافظة عليه تحت تأديبه وتهذيبه وتعويده الأخلاق الكريمة ، وحفظه من القرناء الذين ساءت أخلاقهم ، وأهملت تربيتهم . وينبغى أن يراقب مراقبة حسنة مهما يكن ذكيا مفكرا ، يستطيع التمييز بين الخير والشر ، والحسن والقبيح . ومما يدل على تمييزه وتفكيره ظهور الحياء على وجهه والاحتشام والاستحياء ، وترك بعض الأفعال لقبحها ، ويرى الغزالى أن الحياء نعمة من الله عليه ، وهدية إليه تدل على اعتدال خلقه وصفاء قلبه ، وبشارة تبشر بكمال عقله عند بلوغه . فالصبى المستحى ينبغى ألا يهمل ، بل يستعان على تأديبه وتهذيبه بحيائه وتمييزه وحسن تفكيره .

وإن أهم مرحلة فى التربية فى اعتقادنا هى مرحلة الطفولة ، فإذا أهمل الطفل فى بدء حياته خرج فى الأغلب فاسد الأخلاق كذاباً حسودا سروقا ، نماما لحوحا فضوليا ، يميل إلى المؤامرات والكيد والإساءة لغيره . ومن السهل أن يحفظ من جميع هذه الصفات الذميمة بحسن التربية والتأديب ، وشغل أوقات فراغه ، وتكليفه فى المكتب تعلم القرآن الكريم ، ودراسة حياة العظماء ، وحكايات الصالحين والأبرار وأحوالهم ، ليقتدى بهم ويحذو حذوهم ، ويغرس فى قلبه حب الأتقياء والصالحين . وفى الكتّاب والبيت يجب أن يحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأصحابه ، كى لا يتأثر بها ، ويضيع وقته فى عبث ومجون . وإذا ظهر من الطفل خلق جميل ، وفعل حميد وجب أن يكرم ويكافأ عليه ، ويشجع بالمدح عليه بين الناس ليفرح ويدخل السرور فى نفسه . وإذا أخطأ مرة واحدة فالأفضل أن نتغافل عنه ، ونتجاهل هذا الخطأ ، ولا نهتك ستره ، ولا نكاشفه ولا نتحدث معه فى هذا الأمر ، وخاصة إذا ستره الصبى واجتهد فى إخفائه . وإن الغزالى حكيم كل الحكمة فى قوله : « وإن عاد ثانية ينبغى أن يعاتب سرا ، ويحذر من العودة إلى خطئه » . وحكيم أيضا فى نصيحته للمربى بعدم الإكثار من عتاب الطفل ، كى يكون للعتاب أثره ، وفى إرشاده للأب بقلة توبيخ ابنه .

ولم ينس الغزالى أثر الرياضة البدنية كالمشى والحركة فى تربية الطفل ونشاطه ، ونصحه له بالتواضع وعدم الافتخار على الأقران ، والإعطاء لا الأخذ . ولم يترك الغزالى شيئا من الآداب العامة كآداب الجلوس والكلام والاستماع ومعاملة غيره من كبار السن ، وإطاعة والديه ومربيه ، والمواظبة على الصلاة ، وأمره بالصوم أياما فى رمضان حتى يعتاد الصلاة والصوم فى الكبر .

وخير نصيحة نصح بها الغزالى فى تربية الطفل وتهذيبه ، العناية بتأديبه فى المرحلة الأولى من حياته ، فكما يكون الطفل يكون الرجل . فإذا عنينا بتربيته وهو صغير كان مهذبا وهو كبير . ويمكننا أن نقول بحق إن ما قاله الغزالى هنا خير دستور لتربية الطفل تربية خلقية مثالية كاملة ، وبعبارة أخرى أحسن دستور للتربية الإسلامية .

وإننا نأسف أشد الأسف إذا قلنا : إن التربية الخلقية الكاملة ـ وبعبارة أخرى التربية الإسلامية ـ مهملة كل الإهمال فى البيت والمدرسة والمجتمع ، فى الوقت الذى نقول فيه إن سعادة الأمم لا تتوقف على كثرة دخلها ، أو جمال مبانيها ، ولكنها تتوقف على عدد المهذبين والمهذبات من أبنائها وبناتها ، فبكمال الأخلاق تكون سعادتها وقوتها ونهضتها .

ولا يمكننا أن ندعى أن المدرسة وحدها تستطيع أن تقوم بتربية النشء تربية إسلامية خلقية كاملة . فهناك المنزل والبيئة الاجتماعية يشتركان مع المدرسة ، ولهما أثر كبير فى التربية الخلقية . فلكى نصل إلى الخلق الإسلامى الكامل يجب أن يقوم البيت بواجبه ، وتؤدى المدرسة واجبها ، ويكون المجتمع كاملا لا يهدم ما يؤسسه البيت أو تبنيه المدرسة ، حتى نستطيع أن نؤدى رسالتنا الخلقية كاملة .

وإن التربية الإسلامية توجب علينا أن نذكر دائما أننا لسنا فى حاجة إلى العلم وحسب ، ولكننا فى حاجة إلى كثير من الأخلاق الفاضلة ؛ فالعلم كثير ، والكتب لا نهاية لها ، ولكن الأخلاق النبيلة اليوم نادرة ، وهى التى تنادى بها التربية الإسلامية ، وتطالب ببثها فى نفوس النشء فى كل نوع من أنواع التعليم ، حتى نستطيع أن نؤدى رسالتنا وواجبنا خير أداء .

وإننا لا نقصد بالتربية الخلقية أن نلقن أبناءنا وبناتنا الفضائل ومحاسنها ، والرذائل ومساويها ، بل نريد التفكير فى تهذيب أخلاقهم حينما تبدو الفرصة عرضا فى أى مكان يحلون به . نريد العمل على تقويم المعوج من الأخلاق بالقدوة الحسنة ، والمثل الكامل ؛ والتفاهم برفق ، والتكلم على انفراد ، فيكون المربى مثل الطبيب الذى لا يعطى الدواء إلا عند المرض ، والأم الحكيمة التى لا تقدم لابنها الغذاء إلا فى وقته حينما يشعر بالجوع .

ويجب أن يضع الآباء والأمهات والمعلمون والمعلمات التربية الخلقية والروحية نصب أعينهم دائما ، ويفكروا فى التربية الكاملة ، والأخلاق الإسلامية قبل أى شىء آخر . ولكى تثمر العظة يجب أن نكون قدوة حسنة ومثلا عاليا لأولادنا ، لأن فاقد الشىء لا يعطيه . وأعتقد مخلصا أن أكبر أمر يجب أن نفكر فيه فى الوقت الحاضر هو إيجاد رجال مهذبين ، وسيدات مهذبات ، وتكوين شباب مهذب مثقف ، كريم الأخلاق ، ونصل بالمجتمع إلى الكمال الخلقى الذى نرجوه وننشده ، فليست مشكلاتنا هى الجهل والفقر والمرض وحسب ، ولكن مشكلة المشكلات هى الأخلاق وتهذيبها ، بين أطفال اليوم ورجال الغد ، من الطفل فى المهد إلى الطالب فى الجامعة .

وإذا أردنا أن ننهض ونعيد مجدنا الإسلامى القديم وعظمتنا التليدة فعلينا أن نفكر فى العلم ونشره ، والتربية وتعميمها ، والأخلاق وتهذيبها ؛ فالأمم لا ترقى بالمال أو الحصون ، ولكنها ترقى بالعلم والأخلاق .

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

فبالعلم والتربية الخلقية نستطيع أن نعيد مجد المسلمين فى عصورهم الذهبية ، والحضارة الإسلامية والعربية ، ونقود العالم فى الحاضر والمستقبل كما كنا نقوده فى الماضى .

الفصل الحادى عشر

الإسلام وتعليم المرأة

لقد فرض طلب العلم على المرأة كما فرض على الرجال فى الإسلام ؛ فقد سوّى الدين الإسلامى بين المرأة والرجل فى الأمور الروحية والواجبات الدينية ، ولم يفرق بينهما فى العلم والتعلم . قال الرسول الكريم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، من غير تفرقة بينهما فى طلب العلم . فالعلم مقدس فى الإسلام ، وطلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة .

وقد كان للمرأة العربية فى الجاهلية الحق فى التعلم . وكان بين النساء كاتبات وشاعرات. وحينما ظهر الإسلام بدأت الحياة العقلية تنشط وتحيا لدى العرب ، وكسبت المرأة حقوقا اجتماعية لم تكن لها قبل الإسلام ، فنهض التعليم بين النساء . ووضع الكتّاب والمؤرخون أسماء المسلمات المتعلمات اللاتى كن يعرفن القراءة والكتابة فى صدر الإسلام . فأثبت (البلاذرى) أن السيدة حفصة زوج النبى كانت تقرأ وتكتب ، وعائشة بنت سعد كانت تعرف القراءة والكتابة ، والسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق كانت تقرأ المصحف وتعلم الكثير . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » أى البيضاء . وقد قال فى شأنها عروة بن الزبير : « ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة . » وقد روت عن النبى صلى الله عليه وسلم ألف حديث .

ومن النساء المسلمات النابغات :

الخنساء واسمها تماضر ، وهى شاعرة عرفت بجودة الشعر ، والوطنية الصادقة ، والوفاء والتضحية .

وقد عاشت فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم . واعترف لها بالتفوق فى الشعر . وأكثر شعرها فى رثاء أخويها ، وهما : معاوية وصخر .

قالت الخنساء ترثى أخاها صخرا :

ألا ياصخرُ إن أبكيتَ عينى ... فقد أضحكتنى زمنًا طويــلا
إذا قبحَ البكاء على قتيــل ... رأيت بكاءك الحسنَ الجميلا

وقالت :

أعينىّ جُــودا ولا تجمدا ... ألا تبكيان لصخر الندى
ألاَ تبكيان الجرىء الجميل ... ألا تبكيان الفتى السيّدا ؟
إذا القوم مدّوا بأيديهم ... إلى المجــد مدّ إليه يــدا
فنال التى فوق أيديهم ... إلى المجــد ثم انتمى مُصعِدًا

وقد قابلتها السيدة عائشة زوج المصطفى عليه الصلاة والسلام ، بعد موت أخيها صخر ، وهى حزينة كل الحزن عليه، تسير معتمدة على عصا لضعفها وكبر سنها . فسألتها السيدة عائشة : ما الذى بلغ بك ما أرى ؟ فأجابت : موت أخى صخر .

فقد كان زوجى متلافا للأموال ، يقامر حتى يتلف ماله . فأذهب إلى صخر ، فأشكو إليه حالنا ، فيعطينى نصف ماله . فيقامر به زوجى ، فأعود إلى أخى ، وأشكو إليه ، فيقدم لى نصف ماله . وقد لامته زوجته ، ونصحت له أن يعطينى خمس ماله ؛ لأن زوجى لا يبقى شيئا . فلم يرض صخر بإعطائى الخمس ، بل قسم ماله قسمين ، وأعطانى أحسنهما . فلما مات صخر أصبحت كما ترين ، وحق لى البكاء والرثاء .

ولما ذهبت الخنساء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم دعاها إلى الإسلام فأسلمت ، وطلب منها أن تنشد شعرا فأنشدت ، فأعجب بشعرها وهو يقول : هيه يا خنساء ، ثم انصرفت ، واستمرت تبكى أخويها ، وتقص شعرها كعادة العرب فى الجاهلية ، وتلبس ثوبا باليًا أسود .

وذات يوم رآها سيدنا عمر بن الخطاب تطوف بالكعبة ، وهى على حال محزنة ، فتقدم إليها ونصح لها بالصبر .

فقالت : لم تُصب امرأة بمثل ما أصبت به . فكيف أتحمل آلام فراق فارسين قد فقدتهما ؟

فأجابها عمر : لو اطلعت على مصائب الناس لهان عليك الأمر . وذكر لها أن هذا النوع من الحداد بدعة من بدع الجاهلية التى حرمها الإسلام ، فسمعت نصيحته ، وامتثلت أمره .

ولوطنيتها وشجاعتها وإقدامها انضمت إلى الجيش العربى حينما سار لفتح بلاد الفرس ، وكان معها أبناؤها الأربعة . وفى الليلة التى حدثت فيها وقعة القادسية نصحت لأبنائها قائلة :

« يابنى إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين . فاعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية . اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون. فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، فيمموا وطيسها[1] تظفروا بالغنم والكرامة ، فى دار الخلد والمقامة .

فلما أقبل الصباح أسرعوا إلى مراكزهم ، وتقدموا واحدا بعد آخر ينشدون شعرا وطنيا ، ويذكرون وصية أمهم العجوز لهم ، حتى قتل أبناؤها الأربعة . فلما عرفت الخبر قالت :

« الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم . وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر الرحمة » .

وقد استمر أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يعطيها ما يخص أبناءها الأربعة إلى أن توفيت إلى رحمة الله . وصارت يضرب بها المثل فى الصبر وضبط النفس .

والسيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنه ، وهى شاعرة أديبة عالمة بضروب الإيقاع ، وسيدة الناقدين . وكان الشعراء يفدون على دارها من كل حدب وصوب للمباراة بالأشعار فى حضرتها .

وقد خطت عائشة بنت طلحة خطوات السيدة سكينة ، فاشتهرت بنقد الشعر والغناء ، واجتمع لديها الأدباء والشعراء والرواة للمنافسة فى الأدب والشعر والرواية .

وإن الكتب العربية مملوءة بأسماء المسلمات النابغات فى العلوم الدينية والأدبية والطبية، وأسماء الجوارى الشهيرات فى الآداب والفنون .

وقد اشتهرت المرأة المسلمة بالصدق فى عملها ، والأمانة والدقة فى روايتها ، وأخذ أفاضل العلماء رواياتها . وقد قال الحافظ الذهبى ــ وهو محدث عظيم ــ (وما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها) . ومن النساء الشهيرات فى عالم الحديث : كريمة المروزية

(١) الوطيس : التنور : موضع النيران .

وسيدة الوزراء، وكانت من أهم راويات الأحاديث التي جمعها البخاري . وقد ذكر الحافظ ابن عساكر ـ وهو أحد رواة الحديث ـ أن عدد شيوخه وأساتذته من النساء كان بضعا وثمانين أستاذة .

وقد سرقت مرة امرأة من قريش من ذوات الحسب والنسب ، فعوقبت عقاب من يسرق في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فحاول أحد المسلمين أن يشفع لها ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب فقال : يا أيها الناس ، إنما أضل من قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم الله[1] لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

ففي الإسلام مساواة بين الرجل والمرأة في الثواب والعقاب ، ولا يتميز عليها إلا في أنه مطالب بالإنفاق عليها ورعايتها والدفاع عنها .

قال تعالى في موقف المرأة : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » .

وحينما بدأ النبي صلى الله عليه وسلم ينشر قواعد الإسلام ومبادئه نشرها بين الرجال والنساء من غير تفرقة .

تعليم المرأة في الإسلام :

وإن من يدرس هذا الموضوع وهو : تعليم المرأة في الإسلام يجد رأيين متناقضين فيه

الرأي الأول : رأى من يقول بتعليم المرأة القرآن الكريم والدين الإسلامي ليس غير . وينهى عن تعليمها الكتابة والشعر . وقد بالغ أنصار هذا الرأي ، وادعوا أن المرأة ناقصة العقل والدين ، وأن نقصها لا يشجع على تعليمها العلوم . وفي هذا المعنى يقول شاعرهم :

النساء ناقصات عقل ودين ... ما رأينا لهن رأيا سنيا
ولأجل الكمال لم يجعل الله تعالى من النساء نبيا

---

(١) صيغة قسم .

ومنهم القابسي الفقيه القيرواني[١]، فهو لا يرى بأساً من تعليم المرأة القرآن والدين لا « الترسل والشعر . . . وإنما تتعلم ما يرجى له سلامة ، ويؤمن عليها من فتنته ، وسلامتها من تعلم الخط أنجى لها » . وهو رأي يسيء الظن بالمرأة ، ولا تقول به أكثرية المسلمين .

الرأي الثاني : رأي من ينادي بتعليم المرأة من المسلمين ، وهو رأي سديد يستمد قوة عظيمة من إسناده إلى أحاديث نبوية تشجع على تعليم المرأة ، منها الحديث الذي ذكرناه في بدء الموضوع وهو : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « وأيما رجل كانت عنده وليدة[٢] فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » .

وقد حض النبي صلى الله عليه وسلم على تعليم أزواجه الكتابة ، فقال للشفاء العدوية ـ وقد كانت تجيد القراءة والكتابة في الجاهلية قبل الإسلام ـ : « ألا تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة ؟ » .

وقد انتصر الرأي القائل بتعليم المرأة المسلمة القراءة والكتابة حتى وصلت المرأة إلى أسمى درجات العلم والثقافة ، ونالت أكبر قسط من التربية والتعليم في العصور الذهبية للإسلام ، فكان من النساء المسلمات : الكاتبة ، والشاعرة ، والطبيبة ، والمعلمة ، والقاضية ، ولم يستطع المترددون الوقوف في سبيل تعليمها إلا في البلاد الضعيفة بسبب الاحتلال الأجنبي ؛ ففي تلك البلاد حرمت المرأة العلم والنور ، وحجبت عن الأعين ، وتركت في دارها جاهلة لا تقرأ ولا تكتب .

وفي كتب الأدب العربي والتاريخ الإسلامي عدد كبير من النساء المسلمات الشهيرات نذكر منهن :

١ — السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد :

السيدة زبيدة هي ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور ، عميد الدولة العباسية . أحبها جدها كل الحب ، وعني بتربيتها كل العناية ، وعلمها القراءة والكتابة ، وشجعها على حفظ الأخبار

---

(١) صاحب كتاب « المفصلة لأحوال المتعلمين » . (٢) أمة .

والسير والشعر . فنشأت مولعة بالشعر ، محبة للأدب ، حتى كانت تزين حيطان حجرتها بالسجف (الستائر) الموشاة بالأبيات الجميلة من الشعر البديع .

وابنها (محمد الأمين) . عاشت مع زوجها هارون الرشيد فى قصر (دار القرار) على شاطئ نهر دجلة . وكان من بين جواريها مائة جارية يعرفن القراءة والكتابة ، وقول الشعر ، ويحفظن القرآن الكريم ، ويقرأنه ليل نهار .

تمسكت الأميرة زبيدة بالإسلام ، وكانت تحب أن تسمع القرآن الكريم من جواريها اللاتى يحفظنه .

ولصفاتها النبيلة ، وعقلها الراجح ، وذهنها الحاضر ، وأخلاقها النبيلة كان هارون الرشيد يستشيرها فى كل عمل يعمله ، ويحبها حبا جما .

كانت محبة للخير ، بارة بالفقراء ، محسنة إلى المساكين . ولها أثر كبير فى إنشاء المدارس والمكاتب والمستشفيات ، والملاجئ ، والمساجد والمنازل والمشارب .

وقد توفيت وسنها تسع وستون سنة ببغداد فى جمادى الأولى سنة ٣١٦ هجرية .

٢ — علية بنت المهدى :

وهى شاعرة معروفة بالنبوغ الشعرى والمعانى الرقيقة والعبارة الجزلة .

٣ — عائشة بنت أحمد بن قادم :

وقد نشأت بقرطبة ، ولم يكن فى زمانها فى الأندلس من يماثلها فى فهمها وعلمها وأدبها وشعرها وفصاحتها وعفتها . وكانت تجيد الخط ، وتكتب المصاحف ، وتجمع الكتب الثمينة فى خزانتها ودارها . وقد توفيت سنة ٤٠٠ هـ .

٤ — ولّادة بنت الخليفة المستكفى بالله :

وهى أديبة شاعرة ، ناظرت الأدباء والشعراء . وكان قصرها منتدى متسعا يأوى إليه رجال الأدب والشعر ، والوزراء والعلماء والقضاة .

٥ — لُبنى :

وهى الكاتبة فى ديوان الخليفة الحكم بن عبد الرحمن ، المجيدة للكتابة ، والشاعرة العالمة بالنحو ، المتينة فى الحساب والعلم . وقد توفيت سنة ٣٩٢ ﻫ .

٦ — فضل :

وهى جارية تعلمت فنون الأدب والشعر والغناء . وقد اشتريت وأهديت إلى الخليفة المتوكل ، وعرفت بالذكاء وحضور البديهة ، والنبوغ فى الشعر الغنائى ، الذى يحتاج إلى رقة الطبع والعاطفة ، وقوة التأثير . وقد ظهرت فى عصر تميز بفحول الشعراء كالبحترى وابن الرومى وعلى بن الجهم ، فلم تقصر عن هؤلاء جميعا .

٧ — وقد أشار ابن أبى أصيبعة فى كتابه « طبقات الأطباء » إلى طبيبتين مسلمتين درستا الطب واشتغلتا به . منهما الطبيبة زينب طبيبة بنى أود التى عرفت بعلاج أمراض العيون .

وكانت النساء المسلمات فى الحروب الإسلامية يقمن بمداواة الجرحى وخدمتهم ومعاونتهم ، كما تعمل سيدات الهلال الأحمر والصليب الأحمر فى الحروب اليوم .

روى أن أمية بنت قيس الغفارية قالت : أتيت رسول الله فى نسوة من بنى غفار وهو سائر إلى غزوة خيبر فقلن : يا رسول الله ، قد أردنا أن نخرج معك ، فنداوى الجرحى ، ونعين المسلمين بما استطعنا . فقال : على بركة الله .

وتقول الربيع بنت معوذ : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسقى القوم ونخدمهم ، ونداوى الجرحى ، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة .

ومن الطبيبات المسلمات أيضا الطبيبة أم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطنجالى ، وقد كانت طبيبة مبرزة شهيرة فى الطب ، كثيرة الاطلاع ، وأجادت علوما كثيرة مع الطب .

وأخت الحفيد بن زهر وابنتها كانتا عالمتين بالطب والمداواة ، ولها خبرة كبيرة بعلاج أمراض النساء[١] .

وفى العصر العباسى فى عهد الخليفة المقتدر أشارت كتب التاريخ إلى امرأة مسلمة تولت القضاء ، واطمأن الناس إلى عدالتها فى الحكم ، واعترفوا بفضلها ومقدرتها القضائية .

ومع أن الميدان السياسى صعب وليس بسهل ، نجد بين المسلمات نساء اشتغلن بالسياسة ، وناصرن طائفة على أخرى معتمدات على فصاحتهن ، وعاطفتهن المؤثرة ، وبديهتهن الحاضرة ، ومقدرتهن الخطابية الملتهبة ، كما حدث وقت القتال بين على ومعاوية ، فقد ناصرت نساء كثيرات عليا مثل هند بنت يزيد الأنصارية ، والزرقاء بنت عدى بن قيس ، وأم الخير البارقية ، وعكرشة بنت الأطروش . وقد أعجب معاوية بن أبى سفيان بالنساء اللاتى خاصمنه وخطبن ضده . فبعث وطلب بعض الخطيبات منهن لمناقشتهن ومساجلتهن ، ومعرفة ما عسى أن يقلنه بعد أن قتل على ، وتولى معاوية الخلافة[٢] . وفى العصور التى تلت عصر معاوية لعبت الخيزران وشجرة الدر دورا كبيرا فى سياسة الدولة الإسلامية .

ومما سبق يتبين أن المرأة المسلمة لم تكتف بالدراسة وتحصيل العلم ، ولكنها انتفعت بعلمها وذكائها وذوقها الأدبى ، ونشاطها العقلى ، فى النواحى التى اشتغلت بها كالأدب والسياسة والاجتماع والطب والقضاء والتدريس ، ولكن عدد المشتغلات بمهنة التعليم من المسلمات كان أكثر ممن اشتغلن بالمهن الأخرى كما هو حادث الآن . وكان العلماء من الرجال يقومون بالتدريس للنساء ، وكانت النساء يقمن بالتدريس للرجال .

وقد اعترف بعض العلماء والأدباء بفضل النساء المسلمات ، فقد ذكر ابن خلكان أن أم المؤيد زينب بنت الشعرى كانت عالمة ، وأخذت العلم عن كبار العلماء وروته عنهم ، ومنحوها إجازة علمية أدبية ، وقال : إنها منحته إجازة كتبتها له فى سنة ٦١٠ هـ .

وقد قيل : إن طرفة بنت عبد العزيز بن موسى قد تلقت العلم عن العلماء المشهورين فى

---

(١) « طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة » ج ٢ ص ٧٠

(٢) «صبح الأعشى للقلقشندى » ج ١ ص ٢٤٨

عصرها بالأندلس ، وأخذت عنهم كثيرا من كتبهم . وكان النساء مدرسات منقطعات لتدريس العلوم الدينية للنساء وللعبادة . هذا وصف موجز لما نالته المرأة المسلمة من التعليم العالي ، وهذا حظها منه في وقت حاول فيه دعاة التردد فرض قيود عليها في التعلم . ولم يقل نصيبها من التعليم الأولي عن نصيبها من التعليم العالي . ولكننا لا نستطيع أن ننكر أو نتناسى أن تعليم الأبناء كان أسهل من تعليم البنات ، وأن تعليم البنات كان فيه شيء من الصعوبة ، وأن عدد المتعلمين من المسلمين أكثر من عدد المتعلمات من المسلمات . والسبب في القلة هو ما كان يوضع من العقبات في سبيل تعليم النساء تعليما مدنيا ، وفي سبيل تعليمهن الخط . والكتابة . وقد رأى بعض المتشددين ألا يعلم البنون والبنات في مكتب واحد أو مدرسة واحدة خوفا من أثر الاختلاط ، ومع هذا كان الذكور يتعلمون أخيرا مع الإناث في كتّاب واحد ، وخاصة في البلاد الريفية والنائية حتى وقتنا هذا . وكانت البنات يتعلمن في بيوتهن في البدء على أيدي بعض المؤدبين أو الأقارب .

والحق أن الإسلام قد اعترف بحق البنات في التعلم إلى أقصى حدود العلم — إن كان للعلم نهاية — فتعلمت البنت التعليم الابتدائي ، واستمرت في التعلم وطلب العلم ، حتى وصلت إلى التعليم العالي والجامعي . فدرست المرأة المسلمة الأدب والدين والطب واشتغلت بالقضاء ، واشتركت في الشئون السياسية ، وكان من النساء الأديبات والكاتبات والشاعرات والخطيبات والفقيهات ، والطبيبات والقاضيات والسياسيات . وبلغت كثيرات منهن منزلة علمية رفيعة ، فكان منهن الأستاذات والمدرسات للإمام الشافعي ، وابن خلكان ، وأبي حيان ، وجميعهم من الفقهاء والعلماء والأدباء المشهورين . ويكفيهن هذا فخرا بين النساء في جميع الأديان . وهذا أكبر دليل على ما تمتاز به التربية الإسلامية من الحرية في التعلم ، والديمقراطية في التعليم ، واليقظة الروحية في الإسلام .

موازنة بين المرأة المسلمة والمرأة المسيحية فى القرون الوسطى :

إذا قلبنا صفحات التاريخ فى القرون الوسطى وجدنا أن المرأة الأوربية المسيحية كانت غارقة فى بحار الجهل ، وأن الإغريق القدماء ـ ما عدا الإسبرطيين وأفلاطون ـ مع ما كان لهم من حضارة ومدنية ـ عدوا المرأة جزءا من المتاع الذى يلهو به الرجل ويتمتع به ، وبخلوا عليها بحقها فى التعلم وفى المساواة بالرجل من الناحية الاجتماعية ، وألفينا أن الألمان كانوا يقولون : إن خزانة الملابس هى مكتبة المرأة ، وأن الفرنسيين كانوا يعتقدون أن المرأة يجب أن تكون بين أربعة جدران ، ورأينا أن المرأة المسلمة قد بلغت فى العصور الوسطى منزلة سامية من الناحية العلمية ، والنهضة العقلية ، والسمو الروحى ، واشتركت فى الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية للمجتمع الإسلامى فى عصوره الذهبية ، ووصلت إلى درجة كبيرة من الثقافة والعلم كانت تحسد عليها . من هذا كله يتضح أنه لا صحة للرأى المنتشر بين المتعصبين من الغربيين بأن جهل المرأة المسلمة راجع إلى أسباب دينية ، وتقاليد إسلامية ؛ فالإسلام دين علم ونور لا دين جهل وظلمة . وقد أوجب طلب العلم على كل مسلم ومسلمة . ولكن روح التعصب هو الذى نشر هذه الفكرة الخاطئة عن الإسلام . وإن من يقلب الصفحات الماضية للمرأة المسلمة سيجد فيها صورا للعظمة الروحية ، والعناية بالقيم المعنوية التى يرمز إليها تعليم المرأة فى عصر النهضة الإسلامية . وللنساء المسلمات ماض مجيد تستطيع المرأة اليوم أن تفخر به أو تبنى فوقه لنفسها مجدا علميا وروحيا آخر .

والحق أننا لسنا فى حاجة إلى ذكر الفوائد التى تعود على الأمـــة الإسلامية من تعليم البنات ؛ فقد مضى الوقت الذى كان يعد فيه تعليم المرأة المسلمة عارا . وإننا ننتظر من كل أب مسلم أن يقوم بتعليم أبنائه وبناته من غير تفرقة ؛ لأننا إذا قمنا بتعليم الابن فالتعليم لا يتعدى فردا واحدا ، ولكننا إذا علمنا البنت فكأننا قمنا بتعليم أسرة مسلمة وتثقيفها ؛ لأن بنت اليوم أم فى المستقبل تقوم بتربية أبنائها وبناتها . ولو ألقينا نظرة واحدة إلى التاريخ لوجدنا للأمهات فضلا عظيما فى تكوين العظماء من الأبناء .

وأعتقد أنه قد مضى الوقت الذى كانت فيه المرأة المسلمة منكودة الحظ ، مهضومة الحق ، مهملة فى التعليم . ولا ينكر أحد من المسلمين اليوم فضل تعليم البنت . وإنى أقصد بالتعليم التعليم الذى يؤدى إلى الفضيلة والرقى والكمال فى كل ناحية من نواحى الحياة . وليس هناك مضرة ولا منقصة ولا عار ، فى تعليم الفتاة المسلمة التعليم الذى يمكنها من كسب عيشها ، والاعتماد على نفسها إذا ابتليت بيوم أسود ، أو أصيبت بفقر ، أو فقد زوج أو أب .

أمِنَ العيب أن تجعل المرأة حية بالعلم ، قادرة على العمل ، هل العار فى العمل والقدرة على كسب العيش من طريق شريف أو فى الاستجداء من الناس والالتجاء إلى وسائل غير شريفة ؟ ماذا تستطيع المرأة المسلمة أن تفعل إذا تركت وحولها خمسة أطفال لا دخل لهم ولا معين ؟

فيا أيها المسلمون علموا بناتكم ، ولا تعطلوا نصف الأمة الإسلامية ؛ فمحال أن ترقى ما دام نصفها الذى يقوم بالتربية المنزلية متعطلا جاهلا لا يعرف عن الحياة شيئا . ساعدوها بالتربية الكاملة ، ورقوها بالعلم والتعليم ، واحترموها ؛ فما هى إلا مخلوق مثلكم . ولا تتركوها جاهلة مهملة . وفكروا فى تربية بناتكم كما تفكرون فى تربية أبنائكم .

إن المرأة ضعيفة القوة فقووها بالعلم وحسن الخلق . ولا تقبروها بالجهل وهى حية . افتحوا سبل التعليم أمامها ؛ فإن المرأة إذا تعلمت استطاعت أن تقوم بما يقوم به الرجل ، استطاعت أن تكون معلمة وأستاذة وطبيبة للنسا والأطفال والعيون والأمراض الباطنية ، والأسنان ، والأنف والأذن والحنجرة ، والأمراض النفسية والعصبية ، وجراحة المخ والأعصاب ، والتخدير ، وممرضة للمرضى ، ومربية ، وكاتبة ومؤلفة ، وباحثة وعالمة ، ومهندسة معمارية ، وكيميائية ، ومحامية ومدافعة عن حقوق المرأة . واستيقظوا من سباتكم إن كنتم نائمين . ورحم الله حافظ إبراهيم إذ قال :

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الأعراق

ورحم الله شوقى حيث قال :

وإذا النساء نشأن فى أمية ... رضع الرجال جهالة وخمولا

ليس اليتيم من انتهى أبواه من هم الحياة وخلفاه ذليـــلا
إن اليتيم هو الذى تلقى له أمًّا تخلت أو أبا مشغولا

وليس الذكاء مقصورا على الأبناء أو خاصا بالبنات ، بل هو شركة بين النوعين . ومن النقص أن نوجه العناية إلى نوع ونهمل الآخر . ومن الحكمة أن ننتفع بذكاء البنات فى دائرة حياتهن كما ننتفع بذكاء البنين ؛ حتى نجد شعبا مسلما كاملا جمع بين الحسنيين ، ينهض ببلاده الإسلامية ، ويعيد إليها تراثها الخالد فى عصورها الذهبية .

وقد أباحت الشريعة الإسلامية للمرأة أن تتجر ، ومنحتها الحق فى التجارة ، والحق فى التملك والبيع والشراء ، والتصرف فيما تملك من غير رجوع إلى زوجها . وجعلت لها الحق فى أن ترث وهى زوجة ، وترث وهى أم أو أخت . فالإسلام أعطى المرأة حقها فى التعلم ، وحقها فى التملك ، وحقها فى الميراث . وهو دين العلم و (الديمقراطية) والعدالة الاجتماعية .

الفصل الثانى عشر

المعلم والتلميذ فى الإسلام

لقد عنى فلاسفة الإسلام بالكتابة عن العالم والمتعلم أو المعلم والتلميذ وما لهما من حقوق، وما عليهما من واجبات، وكتبوا كثيرا عن الصفات التى يجب أن يتحلى بها كل منهما. فقد كتب النمرى القرطبى فى كتابه (جامع بيان العلم وفضله) عن «آداب العالم والمتعلم»، وكذلك فعل الغزالى فى كتابيه: (فاتحة العلوم) و (إحياء علوم الدين). وقد خص المعلم بالتقديس والتبجيل، وجعله فى منزله تلى منزلة الأنبياء. قال الرسول الكريم: (إن مداد العلماء لخير من دماء الشهداء.) فالعالم العامل خير من المتعبد الذى يصوم النهار، ويقضى الليل فى التعبد والصلاة. وقد وصف الغزالى منزلة العلم والعلماء فى قوله[1]: (فمن علم وعمل بما علم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السماء، فكأنه كالشمس تضىء لغيرها وهى مضيئة فى نفسها، وكالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب. ومن اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما. فليحفظ آدابه ووظائفه.)

وقد اعترف الشاعر أحمد شوقى بفضل المعلم فقال:

قم للمعلم وفه التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولا

فهو الأب الروحى المتعلم، وهو الذى يقوم بتغذية النفس بالعلم، وتهذيب الأخلاق وتقويمها، فتبجيله تبجيل لأبنائنا، وتقديره تقدير لهم. به يحيون، وبه ينهضون، إذا أدى رسالته خير أداء.

وقد وصف أبو الدرداء المعلم والمتعلم بأنهما زميلان فى الخير، ولا خير فيما عداهما.

وفى العصور الوسطى كان الأستاذ فى معاهد الغرب يعامل بكل قسوة وشدة؛ فكان يحلف لعميد الكلية بأداء فروض الطاعة له، وتنفيذ النظام الذى تفرضه الجامعة عليه.

---

(١) «إحياء علوم الدين» للغزالى ج ١ ص ٥٢

ويعد غائبا ويعرض لغرامة محددة إذا لم يحضر محاضرته خمسة من الطلبة على الأقل . وكان الطالب يكلف التبليغ عن أستاذه إذا غاب عن درسه بغير إذن ، فى حين أن الأستاذ فى المعاهد الإسلامية كان يتمتع فى ذلك الوقت بكل رعاية وتقديس ، ويعامل بكل إجلال وتقدير . وكانت له مكانة سامية وحرية مطلقة فى التدريس ، واختيار المادة ، والوقت الذى يدرس فيه ، والعدد الذى يؤديه من المحاضرات .

الصفات التى يجب أن تتوافر فى المعلم فى التربية الإسلامية :

١ — الزهد ، والتعليم ابتغاء مرضاة الله :

كان للمعلم منزلة سامية مقدسة ، وعليه واجبات تلائم مكانته ؛ فقد كان زاهدا كل الزهد ؛ يقوم بالتعليم ابتغاء مرضاة الله ، ولا ينتظر أجرا أو راتبا أو مكافأة مالية . ولا يريد من مهنة التعليم سوى إرضاء الله ، ونشر العلم والتعليم . وكان الأساتذة يستعينون على المعيشة والحياة بنسخ الكتب ، وبيعها لمن يريدها ، ويكسبون عيشهم بهذه الوسيلة . وقد استمر علماء المسلمين عدة قرون وهم لا يقبلون أى أجر على تدريسهم . ولكن بمضى الزمن أنشئت المدارس ، وحددت المرتبات للمعلمين ، فعارض هذا النظام كثير من العلماء ونقدوه ، ووقفوا ضده لزهدهم وورعهم . وفى اعتقادنا أن قبول المرتبات لا يتعارض مع إرضاء الله والزهد فى الدنيا ، لأن العالم — مهما يكن زاهدا متقشفا — يحتاج الى شىء من المال يستعين به على مطالب الحياة ، وهى كثيرة .

٢ — طهارة المعلم :

يجب أن يكون المعلم طاهر الجسم والجوارح ، بعيدا عن الذنوب والآثام ، طاهر الروح ، بريئا من الكبر والرياء والحسد والعداوة والبغضاء وغيرها من الصفات الذميمة . قال الرسول الكريم : (هلاك أمتى رجلان : عالم فاجر ، وعابد جاهل ، وخير الخيار خيار العلماء ، وشر الأشرار الجهلاء) .

٣ — الإخلاص فى العمل :

إن إخلاص المدرس فى عمله أكبر وسيلة لنجاحه فى مهنته ونجاح تلاميذه. ومن الإخلاص أن يعمل بما يقول، وتتفق أعماله مع أقواله، ولا يخجل من قوله: لا أدرى، إذا كان لا يدرى. فالعالم حقا هو الذى يشعر على الدوام بحاجته إلى الاستزادة من العلم، ويضع نفسه موضع تلاميذه فى البحث عن الحقيقة، ويخلص لهم ويحافظ على أوقاتهم. ولا مانع يمنع التعلم منهم؛ لأنه يتحلى بالتواضع فى التربية الإسلامية. ويكون حكيما حازما فيما يقول وما يفعل، يلين فى غير ضعف، ويشتد فى غير عنف.

٤ — الحلم :

يجب على المدرس أن يكون حليما مع تلاميذه، يستطيع أن يضبط نفسه، ويكظم غيظه، ويكون رحب الصدر، كثير الصبر، لا يغضب لأتفه الأسباب.

٥ — الهيبة والوقار :

لكى يكون العالم كاملا يجب أن يتصف بالهيبة والوقار، ويكون ذا كرامة، يربأ بنفسه عن الدنايا، ويستنكف من القبيح، ولا يصخب ولا يغلو حتى يكون مرفوع الرأس، وموضع التبجيل والاحترام.

٦ — يجب أن يكون المدرس أبا قبل أن يكون مدرساً :

يجب أن يحب تلاميذه محبته لأبنائه، ويفكر فيهم كما يفكر فى أولاده. وعلى هذا المبدأ الإسلامى تبنى التربية الحديثة اليوم. وينبغى أن يكون التلميذ أحب إلى المعلم من الولد الصلبى. وإن الأب الذى يضع أبناءه فى قلبه أب عادى جدا، ولكن الأب الذى يضع أبناء غيره فى قلبه يعد من الآباء الطاهرين المثاليين. وإن أولى التلاميذ بالعطف والشفقة أولئك الفقراء الذين يأتون من منازل حكم عليها بالشقاء، ولا يحبون أحدا لأنهم لم يشعروا بحب أحد وهنا الفرصة أمام المدرس فى أن يعمل للوصول إلى قلوب هؤلاء البائسين لينقذ حياتهم،

وينجى أرواحهم من الموت والشقاء ، ويجتهد فى مساعدتهم وتسهيل الأمور فى سبيلهم ، بحيث يكون أبا شفيقا يعطف عليهم ، ويقوى ضعيفهم ، ويشاركهم فى شعورهم .

٧ ـ يجب أن يكون عالما بطبائع الأطفال وميولهم وعاداتهم وأذواقهم وتفكيرهم؛ كى لا يضل فى تعليمهم. وهذا ما ينادى به علماء التربية فى القرن العشرين. ففى التربية الإسلامية كان المدرس مطالبا بالعلم باستعدادات الأطفال وطبائعهم ، ومراعاتها فى أثناء التدريس لهم ؛ كى يختار لهم الموضوعات الملائمة التى فى مستواهم العقلى ، « ولا يرقيهم من الجلى إلى الدقيق، ومن الظاهر إلى الخفى دفعة وفى أول مرتبة ، بل على قدر الاستعداد »؛ فلا ينتقل من السهل إلى الصعب ، ومن الواضح إلى الخفى مرة واحدة ، بل يتدرج معهم على قـــدر استعدادهم وإدراكهم وفهمهم .

٨ ـ يجب أن يتمكن المدرس من مادته ، ويستمر فى البحث والاطلاع ؛ حتى لا يصير تعليمه سطحيا لا يسمن ولا يغنى من جوع . وقد كان للمعلم منزلة كبيرة فى المرحلة العالية من التعليم . وكان موضع ثقة وتقدير لدى الطلاب والآباء . ويختلف عن المعلم فى المرحلة الأولى كثيرا ، ولا يتمتع بالمنزلة التى كان زميله يحظى بها فى تعليم الكبار . فقد نظر بعض الكتاب إلى المعلم الأولىّ نظرة لا تبجيل فيها ولا احترام ، فالجاحظ مثلا ينصح . . « ألا تسترشد عن يكثر الاختلاط بالأطفال والنساء » ، فى حين أن كثيرا من العلماء المشهورين كانوا معلمى أطفال مثل : الكميت[1] ، والضحاك بن مزاحم ، وعبد الله بن الحارث ، وأبى عبيد القاسم الذى ولى قضاء خراسان .

وقد عير الحجاج بأنه معلم أطفال فى الطائف ، وكان اسمه وقتئذ كليبا ، فقال الشاعر فى ذمه مشيرا إلى أنه كان يأخذ الخبز على سبيل الأجر :

أينسى كليبٌ زمانَ الهزال ... وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ما ترى ... وآخر كالقمر الأزهر

وفى الكتب الإسلامية إرشادات كثيرة خاصة بالمعلم الأولىّ نختار منها النصائح الآتية :

(١) كان يعلم الأطفال فى مسجد الكوفة .

ألا يقتسم الطعام مع الأطفال ، ولا يكتب إعلانات ويلصقها على باب الكتّاب ليجتذب التلاميذ إليه ؛ لأن مثل هذا العمل لا يصدر إلا عن السوقة من الناس، ولا يفرق فى المعاملة بين الأغنياء والفقراء من التلاميذ ، ولا يستخدم الأطفال فى شئونه المنزلية ، وأن يعامل الجميع بروح العدل والإنصاف ، ويقوم بتعليم الأطفال بنفسه ، وإذا صعب عليه ذلك أمكنه أن يكلف بعض الكبار من الطلبة تعليم الصغار من التلاميذ . وهو نظام العرفاء فى التربية ، وهو نظام يسمح بإشراك التلاميذ فى أن يعلم بعضهم بعضا ، ويعلى بعضهم على بعض .

وقد لخص أبو شامة الشافعى فى كتابه : « مجموعات الرسائل » آداب معلم الصبيان ، فيما يلى :

يبدأ بإصلاح نفسه ؛ فإن أعينهم إليه ناظرة ، وآذانهم إليه مصغية ، فما استحسنه فهو عندهم الحسن ، وما استقبحه فهو عندهم القبيح ، ويلزم الصمت فى جلسته . . ويكون معظم تأديبه بالرهبة . ولا يكثر الضرب والتعذيب . . ولا يمازح بين أيديهم أحدا . . ويقبح عندهم الغيبة ، ويوحش عندهم الكذب والنميمة . ولا يكثر الطلب من أهلهم . وكلها توجيهات قيمة لا اعتراض عليها فى التربية .

المؤدب أو المدرس الخاص :

والمؤدِّب هو مدرس خاص يقوم بتعليم طفل « أو أكثر » من أبناء العظماء والخلفاء ، وتأديبه وتثقيفه فى بيته أو قصره ، ويشترك الأب مع المؤدب فى اختيار المواد التى يدرسها الابن ، ويستمر المتعلم فى دراسته حتى يصل إلى المستوى المنشود من التعليم . ولكى يشرف المؤدب على تلميذه من الأمراء إشرافا تاما كان يخصص له جناح فى قصر الأمير ليعيش فيه ، ويتناول طعامه وشرابه وينام فيه . وكان المؤدب يعطى تلميذه أربع ساعات أو أكثر كل يوم من وقته ، ويمكث معه سنوات يقضيها فى تعليمه وتهذيبه .

وكان الآباء من الخلفاء يحترمون المؤدبين لأبنائهم ، ويعنون بهم عناية كبيرة ، حتى

كان لهم مركز أدبي كبير في المجتمع . ولم يرفض هذه الوظيفة إلا قليل من الزاهدين لعزة أنفسهم وزهدهم في المال ؛ كالخليل بن أحمد وعبد الله بن إدريس ؛ فإنهما كانا يفضلان التدريس للجماعة ، لا لأبناء الطبقة الخاصة .

ولنذكر هنا جزءا من وصية عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده ؛ لنعرف الأغراض التي كان يرمى إليها من تربيتهم : « علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة ، فإنهم أسوأ الناس ورعا[1] ، وأقلهم أدبا ، وجنبهم الحشم[2] فإنهم لهم مفسدة . . . وأطعمهم اللحم يقووا ، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا[3] ، ومرهم أن يستاكوا عرضا ، ويمصوا الماء مصا ، ولا يعبوه عبا ، وإذا احتجت إلى أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في ستر لا يعلم به أحد من الغاشية فيهونوا عليه » .

فعبد الملك ينصح للمؤدب بأن يعود أبناءه الصدق ، ويعنى بالناحية الخلقية عنايته بالقرآن الكريم وحفظه وفهمه ، ويبعدهم عن السافلين الساقطين من الناس ؛ حتى لا يحاكوهم في أقوالهم البذيئة ، وأفعالهم الذميمة . ولا يتشبهوا بهم في قلة ورعهم ، وسوء أدبهم ، ويجنبهم الحشم والخدم ؛ فإنهم مفسدون لأخلاقهم وأدبهم . وعليه أن يعتنى بإعطائهم اللحوم والاهتمام بتغذيتهم ؛ كي تقوى أبدانهم ولا تضعف أجسامهم ، ويعلمهم الشعر وأوزانه وقوافيه ، حتى يتذوقوا ما فيه من الجمال ، ويصيروا من العظماء ، ويرتفعوا في مراكزهم في الحياة . ولا تهمل العناية بأسنانهم وتنظيفها بالسواك ؛ لأنها موصلة إلى المعدة ، والمعدة تتأثر بما يصل إليها من طعام وشراب . وعودهم أحسن العادات الصحية عند شرب الماء ، وإذا أردت أن توبخهم أو تؤدبهم أو تعاقبهم فاجتهد أن يكون ذلك كله سرا ، لا يعلم به أحد ممن يفشون الأسرار ويذيعونها ، كي تحافظ على مركزهم ومنزلتهم ، ولا يحتقرهم أحد .

وفي هذه الوصية لم يفكر عبد الملك بن مروان في التربية العلمية والدينية والأدبية وحدها ، ولكنه فكر أيضا في التربية الخلقية والجسمية واللسانية والتربية الصحية والتربية الاجتماعية .

---

(١) أقل الناس ورعا . (٢) الخدم . (٣) ينجد : يرتفع .

وتختلف النصائح والوصايا باختلاف الآباء وآرائهم فى تعليم أبنائهم . ولا يفوتنا هنا أن نذكر شيئا منها .

قال عمرو بن عتبة لمؤدب ولده : ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحُك لنفسك ؛ فإن عيونهم معقودة بك ؛ فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت . علمهم كتاب الله ، ولا تملهم فيه فيتركوه . ولا تتركهم منه فيهجروه . روّهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه . ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يُحكموه . فإن ازدحام الكلام فى القلب مشغلة لفهم . وعلمهم سنن الحكماء ، وجنبهم محادثة النساء . ولا تتكل على عذر منى لك ؛ فقد اتكلت على كفاية منك . وفى رواية أخرى : وعلمهم سِير الحكماء ، وأخلاق الأدباء ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء .

فهو ينصح لمؤدب أولاده بإصلاح نفسه أولًا ليكون قدوة حسنة لهم ؛ فإنه فى نظرهم مثلهم العالى ، ينظرون إليه بعيونهم ، ويحاكونه فى أقواله ، يستحسنون ما يفعل ، ويستقبحون ما يترك . وعليه أن يعلمهم كتاب الله ليهتدوا بهديه ويستضيئوا بنوره . واحذر أن تصل السآمة والملل إلى قلوبهم فيتركوه ، وشجعهم على فهمه وحفظه ، والاستمرار فى الانتفاع به . ولا تتركهم منه فيهجروه ويتركوه . وكما تعنى بالقرآن الكريم يجب أن تعنى برواية الحديث الشريف . واختر لهم من الشعر العربى أعفه وأبعده عن الغزل والهجاء ؛ كى لا يتأثروا بما يدرسون وما يقرءون . ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يجيدوا العلم الأول ويتقنوه : فإن إتقان المادة تسهل على المتعلم تذكرها ، وكثرة المواد الدراسية فى المناهج تشغل الطالب عن الفهم . وعلمهم طرق الحكماء فى حياتهم وأعمالهم وتصرفاتهم حتى يقتدوا بها ، وأبعدهم عن محادثة النساء خوفا عليهم من الفتنة والوقوع فى الضلال . ولا تتكل على عذر منى لك ؛ فقد اتكلت على كفايتك ، ووثقت بإخلاصك وأمانتك . وكن لهم كالطبيب الماهر الذى يشخص المرض ويعرف كنهه أولاً ثم يعمل على معالجته .

وهى نصيحة ثمينة يجب أن ينتفع بها كل مؤدب أو معلم ، حيث يجب أن يكون مثلا عاليا فى الأخلاق ، ماهرا فى التدريس ، يشجع طلبته على حفظ القرآن ، ودراسة الحديث

ويرغبهم فيهما ، ويختار لهم من الشعر أعفه وأحسنه ، ويعمل على أن يجيدوا كل مادة ، ويقتدوا بالحكماء فى حياتهم ، ويبتعدوا عن النساء ، ويتفرغوا للعلم والدراسة .

قال هشام بن عبد الملك لسليمان الكلبى مؤدب ابنه : « إن ابنى هذا هو جلدة ما بين عينى . وقد وليتك تأديبه . فعليك بتقوى الله . وأد الأمانة . وأول ما أوصيك به أن تأخذه بكتاب الله ، ثم روه من الشعر أحسنه ، ثم تخلل به فى أحياء العرب ، فخذ من صالح شعرهم ، وبصره طرفا من الحلال والحرام ، والخطب والمغازى » .

فهشام يقول لمؤدب ولده : إن ابنى أعز شىء لدى . وقد تركت لك تعليمه وتهذيبه . وقد وصاه بتقوى الله وأداء الأمانة ؛ فإن لصلاح المعلم أثرا فى نفس المتعلم . والرجل الصالح ينتفع بعلمه وتقواه . وأول وصية يوصى بها هشام العناية بالقرآن الكريم وحفظه ودراسته ، ثم رواية أحسن الشعر ، حتى يكسب ابنه ذوقا فى الشعر يمكنه من أن يقدر ما فيه من روعة الأسلوب ، وجمال الخيال ، وصواب الفكرة ، ثم الرحيل معه والانتقال بين أحياء العرب ، ليروى عنهم أحسن الشعر ، ويتلقى منهم أجمله ، وتفهيمه ما أحله الله وما حرمه ، حتى يكون بصيرا بدينه ، ويعرف حلاله من حرامه ، يفعل الأول (لله) ويجتنب الثانى . وشجعه على دراسة خطب الخطباء وحفظها ، والانتفاع بما فيها من حكم رائعة ، وآراء سديدة ، ونصائح ثمينة ، وأساليب بليغة ، ومعرفة مغزى كل خطبة ، وما يرمى إليه الخطيب من خطبته .

وفى عصر الدولة الفاطمية أنشأ الفاطميون فى قصورهم مدارس خاصة لتعليم أبناء الولاة ، وسراة المسلمين ، وتربيتهم تربية تمكنهم من ملء المناصب الهامة فى الدولة .

حقوق الطلبة وواجباتهم فى التربية الإسلامية :

عنيت التربية الإسلامية بحقوق الأساتذة وواجباتهم ، كما عنيت بما للطلبة من حقوق ، وما عليهم من واجبات ، وما يجب أن يتمسكوا به من آداب .

فمن حقوقهم :

تيسير سبل العلم لهم ، وإعطاؤهم كل فرصة فى أن يتعلموا ، من غير تفرقة ، بين الغنى والفقير

منهم . وقد وصف الرحالة ابن جبير السبل التى يسرت لطلبة العلم والتعلم ، والمدارس العظيمة التى أنشئت لهم ، والأوقاف التى رصدت لهم وللمدرسين ، والقصور التى شيدت لسكناهم ، والربط التى أعدت وجهزت لهم ، وعدها كلها فخرا عظيما من مفاخر الإسلام والمسلمين . فمن أراد الفلاح فليرحل إلى بلاد المغرب . ويتغرب فى طلب العلم ، فيجد كثيرا من المساعدات ، ولا عجب ؛ فقد كان المسلمون ينظرون إلى طلاب العلم بعين الإجلال والتقدير ؛ لأنهم يسعون فى طلب أسمى شىء فى الوجود وهو العلم والمعرفة . وكانوا يقولون : إن من يسعى فى طلب العلم يسير فى طريق الجنة .

ومن الواجبات التى يجب أن يؤديها كل طالب ويجعلها نصب عينيه دائما :

١ ـ قبل أن يقبل الطالب على العلم ينبغى أن يبدأ بتطهير قلبه من الرذيلة ؛ لأن التعلم والتعليم يعدان من العبادة . ولا تصح العبادة إلا مع طهارة القلب ، والتحلى بالأخلاق الكريمة : كالصدق ، والأمانة ، والإخلاص ، والتقوى ، والتواضع ، والزهد ، والرضا ، والبعد عن الصفات الذميمة ، كالحقد والحسد ، والكراهية ، والكبرياء ، والغش ، والفخر ، والخيلاء .

٢ ـ أن يقصد من تعلمه تجميل روحه بالفضيلة ، والقرب من الله ، وليس الظهور بين الناس والمباهاة والجاه .

٣ ـ أن يثابر على تحصيل العلم ، ويبعد عن الأهل والوطن ، ولا يتردد فى الرحيل إن استدعى الأمر الذهاب إلى أقصى المعمورة للبحث عن أستاذ من الأساتذة .

٤ ـ ألا يكثر من تغيير مدرسيه ، بل يجب عليه أن يتريث قبل أن يقدم على التغيير .

٥ ـ أن يحترم أستاذه ويجله ويوقره لله ، ويعمل على إرضائه بكل وسيلة من الوسائل .

٦ ـ ألا يضايق الأستاذ بكثرة الأسئلة ، ولا يعنته فى الجواب ، ولا يمشى أمامه ، ولا يجلس مكانه ، ولا يبدأ بالكلام حتى يؤذن له .

٧ ـ ألا يفشى لأستاذه سرا ، ولا يغتابن عنده أحدا ، ولا يطلبن عثرته ، وأن يقبل معذرته إن زل .

٨ ـ الجد والدأب فى الدرس ، ووصل الليل بالنهار فى إحراز المعرفة ، مبتدئا بتحصيل الأهم من العلوم .

٩ ـ أن تسود روح المحبة والمودة بين الطلبة ، حتى يصبحوا كأنهم أبناء رجل واحد .

١٠ ـ أن يبدأ الطالب أستاذه بالسلام ، ويقلل بين يديه الكلام ، ولا يقول له قال فلان خلاف ما قلت ، ولا يسأل جليسه فى مجلسه .

١١ ـ وأن يواظب على الدرس والتكرار فى أول الليل وآخره ؛ فإن ما بين العشاء ووقت السحر مبارك . وإن هذا يذكرنا بقول الشاعر :

يا طالب العلم باشر الورعا ... واترك له النوم واترك الشبعا

١٢ ـ أن يوطن النفس على التعلم إلى آخر العمر ، وألا يستهين بشىء من العلوم ، بل يجعل لكل واحد منها حظه الذى يستحقه ، ولا يحاكى ما سمعه من بعض أسلافه من الطعن فى بعض العلوم ، كالمنطق وعلوم الحكمة .

وأهم المبادىء التى قيلت فى التربية الإسلامية عن « العالم والمتعلم » :

١ ـ الخلق الكامل أفضل من العلم :

لقد عد المسلمون الأخلاق الكاملة أفضل من العلم ، وجعلوها أساسا لنجاح العالم والمتعلم على السواء . فكما أن الوضوء يجب أن يسبق الصلاة كذلك ينبغى أن يبدأ المعلم والطالب بتطهير نفسيهما من الرذائل والنقائص؛ لأن العلم أيضا نوع من العبادة. ولا ريب أن فى ذلك لب الحكمة ، ونهاية الرشد ، فكل تربية لا تؤسس على الخلق الكامل تعد تربية فاشلة . وكل مدنية لا تؤسس على الخير والفضيلة تعد مدنية خداعة زائفة كالسراب .

٢ ـ تقديس العلم والعلماء :

إن من أروع مبادىء التربية الإسلامية تقديس العلم والمعرفة ، وتقديس العلماء والمعلمين، فالعلم كان مقدسا ، والمعلمون كانوا مقدسين لدى الإسلام والمسلمين . لهذا أخلص العالم والمتعلم الإخلاص كله فى الدراسة والبحث ، وثابرا عليهما ، فوجد بين المسلمين أفذاذ لا نظير لهم من العلماء والمعلمين ، ولكن المغالاة فى هذا التقديس قد أدت إلى إضعاف روح النقد بينهم .

٣ ـ العناية التامة بتقوية الروابط الشخصية والألفة والمحبة بين العلماء والمعلمين :

فالعالم مطالب بالشفقة على المتعلمين ، ومعاملتهم كما يعامل الأب أبنـــاءه . والمتعلمون مطالبون بإرضاء أساتذتهم واحترامهم وتبجيلهم . وفى تقوية الرابطة والألفة والمحبة بين العلماء والمتعلمين دعم لأسس النجاح فى التربية والتعليم .

فإن نجاح المربى يتوقف على غرس روح الثقة والمودة بينه وبين تلاميذه . فإذا أخلص المدرس لتلاميذه وأحسوا بعطفه عليهم وحبه لهم كان العسير من المواد ميسرا ، والصعب سهلا . وقد ينفر الطالب من علم من العلوم لنفوره من مدرس ذلك العلم . وقد يحب المتعلم مادة من المواد ، ويتعلق بها كل التعلق ، لحبه لمدرس تلك المادة وتعلقه به . ولقد تنبه فلاسفة التربية الإسلامية إلى أثر حسن الصلة بين المدرس وتلاميذه فى التربية والتعليم ، فعنوا كل العناية بهذا المبدأ ، ودرسوا ميول الطلاب ومستواهم العقلى والعلمى ، وبحثوا عن خير السبل لإفادتهم والنهوض بهم ، واستعملوا فى تعليمهم الترغيب والتشويق ، لا الإرهاب والتخويف . وشجعوا استعمال المدح والثناء ، وتركوا التوبيخ والتأنيب ، فنجحوا كل النجاح فى أداء رسالتهم العامية ، وكانت التربية الإسلامية تربية مثالية تتمثل فيها الناحية الإنسانية .

واجبات المعلم فى نظر الغزالى :

ولنذكر هنا الواجبات التى يجب على المعلم مراعاتها فى رأى الغزالى :

١ ـ أن يشفق على المتعلمين ويجريهم مجرى بنيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده . » فيعاملهم المعلم كما يعامل أبناءه .

٢ ـ ألا يقصد بالتعليم جزاء ولا شكرا ، بل يقصد به وجه الله والتقرب إليه .

٣ ـ ألا يدع من نصح المتعلم شيئا ، بل ينتهز كل فرصة لنصحه وإرشاده .

٤ ـ أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فالغزالى ينصح بالزجر بالإشارة والتلميح، لا بالتصريح إذا حدث من المتعلم ما ينافى الأخلاق ، مع مراعاة الرأفة والرحمة فى زجره .

٥ ـ أن يراعى مستوى الأطفال من الناحية العقلية ، ويخاطبهم على قدر عقولهم ، ولا يلقى إليهم أشياء فوق مستوى إدراكهم ، حتى لا ينفروا من التعلم ، ويتخبطوا فيما يفهمون . وهذا خير مبدأ فى التربية الحديثة اليوم .

٦ ـ ألا يقبح فى نفس المتعلم علوم غيره . وينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غير علمه . ومعنى هذا يجب ألا يتعصب لمادته .

٧ ـ ينبغى أن يلقى إلى المتعلم القاصر (الضعيف) الجلىَّ اللائقَ به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه ؛ حتى لا تفتر رغبته ، ويضطرب عقله . ويقصد بهذا مراعاة مستوى الضعفاء من المتعلمين ، واختيار المادة السهلة الواضحة التى تناسبهم . ويجب ألا يشعرهم بأنهم ضعفاء أو أغبياء ؛ حتى لا يؤثر فى نفوسهم تأثيرا سيئا ، فإن هذا النوع من الإيحاء مضر بهم .

٨ ـ أن يعمل العالم بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله . قال الله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ؟ » « كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا » .

وقال أيضا : « من ازداد علما ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله إلا بعدا » .

الصفات التى يجب أن يتحلى بها طالب العلم ، وخاصة فى نظر الغزالى :

وقد جمع الله جل شأنه الصفات التى يجب أن يتحلى بها طالب العلم فى قوله تعالى : «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[1].» فالله يأمر بالتقوى، وهى التحلى

---

(١) سورة البقرة ٢٨٢

بكل فضيلة ، واجتناب كل رذيلة ، والخوف من الله فى السر والعلانية ، وسلامة الروح والجسد بالبعد عن الشهوات ، والمفاسد حتى يعلمه الله ، ويمنحه نورا ربانيا يلهمه العلم والمعرفة ونور البصيرة .

وقد وضح الإمام الغزالى فى الجزء الأول من كتابه : «إحيا علوم الدين» الصفات التى يجب أن يتحلى بها المتعلم أو طالب العلم ، ونحن نوجزها هنا فيما يلى :

١ ـ يجب على طالب العلم التحلى بمكارم الأخلاق ، والبعد عن مذموم الصفات . قال صلى الله عليه وسلم : « بنى الدين على النظافة » ، نظافة الروح والجسم . والصفات الذميمة التى يجب أن يتجنبها الطالب كالغضب ، والشهوة ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب . كل هذه ظلمات تحجب نور العلم . وليس العلم كثرة الرواية ، وما تعيه الحافظة ، وإنما هو نور البصيرة ، بها نميز بين الحق والباطل ، والضار والنافع ، والخير والشر ، والهدى والضلال .

٢ ـ يجب أن يقلل طالب العلم من شواغله ، وما يصرفه عن التحصيل وتكريس الوقت ؛ إذ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

ومعنى هذا أن الطالب يجب أن يتفرغ لطلب العلم ؛ لأن العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كل وقتك وتفكيرك .

٣ ـ ألا يتكبر المتعلم على العلم ، ولا يتآمر على المعلم ، بل يذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق . وينبغى أن يتواضع لمعلمه ، ويطلب ثواب الشرف بخدمته . قال الشعبى (١) : صلَّى زيد بن ثابت (٢) على جنازة ، فقربت إليه بغلة ليركبها . فجاء ابن عباس فأخذ بركابه ، فقال زيد : خلِّ عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال ابن عباس : هكذا أُمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء .

فقبَّل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم .

---

(١) هو عالم من علماء الكوفة . (٢) هو عالم من علماء الصحابة .

فلا ينبغى لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ، ويجب أن تكون الصلة حسنة بين المعلم والمتعلم . والحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها .

ولا ينال العلم إلا بالتواضع ، والانتباه وإلقاء السمع . قال تعالى: « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ، أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ[١] . » ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلا للعلم فهما ، ثم لا تعنيه القدرة على الفهم حتى يلقى السمع وهو شهيد ، حاضر القلب ، ليستقبل كل ما ألقى إليه بحسن الإصغاء ، والضراعة ، والشكر والفرح .

قال على ـ كرم الله وجهه ـ : من حق العالم ألا تكثر عليه بالسؤال ، ولا تعنته فى الجواب ، ولا تلح عليه إذا كسل ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشى له سرا ، ولا تغتابن أحدا عنده ، ولا تطلبن عثرته . وإن زلَّ قبلت معذرته . وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ، مادام يحفظ أمر الله تعالى .

٤ ـ ألا يدع طالب العلم فنًّا من العلوم المحمودة ، ولا نوعا من أنواعها إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته . ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه ، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاهُ ، فإن العلوم متعاونة ، وبعضها مرتبط ببعض . . . والناس أعداء ما جهلوا . قال تعالى : « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ[٢] قَدِيمٌ[٣] » .

قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مُرٍّ مريض ... يجد مُرًّا به الماء الزلالا

٥ ـ ألا يخوض المتعلم فى فن من فنون العلم دفعة واحدة ، بل يراعى الترتيب ، ويبتدئ بالأهم ، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبا ، فالحزم أن يأخذ من كل شىء أحسنه . . . أو على الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجلّ ، وهو بحر لا يدرك منتهى غوره .

٦ ـ ألا يخوض المتعلم فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ، فإن العلوم مرتبة ترتيبا

(١) سورة ق : ٣٧ (٢) كذب من جنس أساطير الأولين .
(٣) سورة الأحقاف : ١١

ضروريا ، وبعضها طريق إلى بعض . والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج ، قال الله تعالى : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ(١) » أى لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا . وليكن قصده فى كل علم يتحراه الترقى إلى ما هو فوقه .

٧ ـ أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله ، والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم . فإياك وأن ترغب إلا فيه ، وأن تحرص إلا عليه .

٨ ـ أن يكون قصد المتعلم فى الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفى المآل القرب من الله سبحانه وتعالى ، . . . ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ، ومباهاة الأفراد . . . قال الله تعالى : « يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ(٢) » وقال تعالى : « هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ(٣) » . . . والرتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ، ثم العلماء الراسخين فى العلم ، ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم . وبالجملة من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . ومن قصد الله تعالى بالعلم ـ أى علم كان ـ نفعه ورفعه لا محالة .

هذه هى الصفات التى يجب أن يتمسك بها الطالب كى ينجح فى دراسته وحياته . والحق أن المسلمين قد عرفوا الحياة حق المعرفة ، وعنوا بالناحية الروحية عنايتهم بالناحية الجسمية ، فأعطوا الروح غذاءه من العلم والدين والفضيلة ، وأعطوا الجسم مايحتاج إليه من غذاء صحى ، ومسكن صحى ، وهواء طلق ، وحثوا الطالب على صيانة روحه وجسمه وعقله ، وقراءة ما يفيده فى الحياة ، وتخير الأصحاب من الفضلاء .

---

(١) سورة البقرة : ١٢١ (٢) سورة المجادلة : ١١ (٣) سورة آل عمران : ١٦٣

الفصل الثالث عشر

العقوبة فى نظر علماء الإسلام

قبل أن نتكلم عن العقوبة فى نظر فلاسفة الإسلام نقول : إن الغرض منها فى التربية الإسلامية . . . الإرشاد والإصلاح ، لا الزجر والانتقام[1] . ولهذا حرص المربون من المسلمين على معرفة طبيعة الطفل ومزاجه قبل الإقدام على معاقبته ، وشجعوه على أن يشترك بنفسه فى أن يصلح الخطأ الذى أخطأه ، وتناسوا غلطاته وهفواته بعد إصلاحها .

وإن روح الرفق والعطف والشفقة تظهر بوضوح فى التربية الإسلامية عند معاقبة الطفل ؛ فقد اشترط للعقوبة البدنية شروط وهى :

١ ـ ألا يضرب الطفل قبل أن يبلغ العاشرة من السن .

٢ ـ ألا يزيد الضرب على ثلاثة أسواط . (وأعتقد أن المقصود بالأسواط هنا العصى لا الأسواط النوبية) .

٣ ـ أن يعطى الطفل الفرصة فى أن يتوب عما فعل ويصلح الخطأ ، دون الالتجاء إلى ضربه أو التشهير به .

ومن هذا يتضح بعد النظر فى التربية ، والشفقة والرأفة فى معاملة الطفل ، وأن روح العطف والشفقة فى معاقبة الطفل لم يمنع من استعمال الحزم والشدة وأساليب القوة معه لزجره . . . إذا اقتضت الضرورة ذلك .

وقد عنى فلاسفة التربية الإسلامية بموضوع العقوبة عناية كبيرة ، سواء أكانت عقوبة معنوية أم كانت بدنية . وأجمعوا على أن الوقاية خير من العلاج . ولهذا نادوا باتخاذ كل وسيلة لتأديب الأطفال وتهذيبهم من الصغر ، حتى يعتادوا أحسن العادات فى الكبر ، فلا نحتاج إلى أن نعاقبهم .

---

(١) ارجع إلى الفصل العاشر « العقوبة قديما وحديثا » من كتاب (الاتجاهات الحديثة فى التربية) المؤلف .

ويرى ابن سينا أنه يجب البدء بتربية الطفل ، وتعويده الخصال الحميدة قبل أن ترسخ فيه العادات القبيحة ؛ لأن من الصعب أن يتخلص منها إذا اعتادها وتمكنت من نفسه . وإذا اضطر المربى إلى الالتجاء إلى العقوبة وجب عليه أن يحتاط كل الحيطة ، ويتخذ الحكمة فى تحديدها . وقد نصح ألا يعامل المعاقب بالشدة والعنف فى البدء ، بل باللين واللطف ويستعمل معه الترغيب تارة والتخويف تارة أخرى . ويستخدم العبوس والتوبيخ والتأنيب إذا اقتضى الأمر . وأحيانا يكون النصح والتشجيع أو المدح أجدى أثرا فى الإصلاح من التوبيخ والتأنيب . ومعنى هذا أنه يجب أن يعامل كل طفل المعاملة التى تناسبه ، وأن تدرس كل حالة على حدة ، ويعالج كل داء بما يصلح من الدواء .

وإذا اضطر المربى إلى معاقبة الطفل فإن ابن سينا يرى ألا يلجأ إلى العقوبة إلا عند الضرورة ، ولا يلجأ إلى الضرب إلا بعد التهديد والوعيد وتوسط الشفعاء .. لإحداث الأثر المطلوب فى نفس الطفل[1] ، على أن تكون الضربات الأولى موجعة ، حتى تحدث فى نفس الطفل الأثر اللازم ، وتجعله ينظر إلى عقابه بعين الجد . وإذا كانت الضربات الأولى غير موجعة فإن الصبى يعد الضربات كلها هينة ، وينظر إلى العقاب نظرة استخفاف .

وإننا نتفق مع ابن سينا فى جميع آرائه فى العقوبة إلا فى النقطة الأخيرة وهى أن تكون الضربات الأولى موجعة ؛ لأن إيلام الطفل قد يؤثر فى نفسيته ، وقد يضر جسمه . ومن الخير أن نبحث عن الباعث الذى دفع الطفل إلى ارتكاب الذنب ، ونتدارك هذا الباعث ، ونعمل على إصلاحه بطريقة أخرى غير الضرب الموجع .

العقوبة فى نظر الغزالى :

يرى الغزالى أنه يجب على المربى أن يعرف نوع المرض وسن المريض ، فى حالة تأديب الأطفال وتهذيبهم ؛ لأن المعلم فى نظره كالطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم وأمات قلوبهم . ومعنى هذا فى نظرنا أن يعامل كل طفل المعاملة التى تلائمه ،

---

(١) ابن سينا فى كتاب السياسة صفحة ١٢

ويبحث عن الباعث الذى أدى إلى الخطأ وعن سن المخطئ ، ويفرق بين الصغير والكبير فى التأديب والتهذيب ، ويكون المربى كالطبيب الماهر الذى يفحص عن علة المريض ، ويشخص مرضه ، ويصف له العلاج الذى يناسبه .

وينبغى إذا ضربه المعلم ألا يكثر من الصراخ والشغب ، ولا يستشفع بأحد ، بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال ، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان .

وكان الغزالى ضد الإسراع فى معاقبة الطفل المخطئ ؛ فقد نادى بإعطائه فرصة ليصلح خطأه بنفسه ؛ حتى يحترم نفسه ، ويشعر بالنتيجة . . . ومدحه وتشجيعه إذا قام بأعمال حميدة تستحق المكافأة والمدح والتشجيع . ولم يقل باللوم والزجر والتوبيخ ؛ لأن التشجيع يدخل السرور على النفس فتتشجع وتتقدم ، فى حين أن التوبيخ يؤدى إلى الحزن والخوف وقلة الثقة بالنفس .

العقوبة فى نظر العبدرى :

ويرى العبدرى(١) أن من الواجب التفكير فى طبيعة الطفل المخطئ ، فإن نظرة عابسة إليه قد تكون كافية لزجره وإصلاحه . وقد يحتاج طفل آخر إلى استعمال التوبيخ والتأنيب فى عقوبته . وقد يستدعى الأمر مع نوع آخر من الأطفال ضربهم وتحقيرهم . ويجب ألا يلجأ المربى إلى استعمال العصا إلا فى حالة اليأس من نجاح طريقة الإصلاح واللين والشفقة . ومن الخير دائما أن يقلل المربى من اتباع الشدة والعنف . وإذا اقتضت الضرورة توقيع عقاب على الطفل فإنه يكفى ثلاث ضربات خفيفة . وعلى أية حال لا ينبغى أن يتجاوز عدد الضربات عشرا ، وهذا كثير فى نظرنا .

وقد نقد العبدرى بشدة الطريقة التى بها تستعمل عصا أغصان شجر اللوز ، وسيقان النخل ، والسياط « الكرابيج » النوبية ، والفلقة فى ضرب الطفل وعقوبته . والواقع أن استعمال العصا كان عاديا فى تربية النشء فلم ينج منها أبناء الخلفاء والأمراء . . . وإننا

---

(١) فى الجزء الثانى من كتاب المدخل ص ١٦٤

توافق ابن العبدرى فى آرائه فى عقوبة الطفل ؛ لأنها تتفق مع العقل والمنطق ، والتربية وعلم النفس ، والخبرة والتجربة .

ابن خلدون والعقوبة :

كان ابن خلدون ضد استعمال الشدة والقسوة فى تربية الأطفال حيث قال : « من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيّق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه إلى الكسل ، وحمله على الكذب والخبث خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة . ولذلك صارت له هذه عادة وخلقا ، وفسدت معانى الإنسانية التى له » .

وإننا نتفق معه فى رأيه ، وليس لدينا أى اعتراض عليه . وقد أسهب ابن خلدون فى توضيح ما ينشأ من الأثر السيء بسبب القهر واستعمال الشدة والعنف فقال : « إن من يعامل بالقهر يصبح حملا على غيره ؛ إذ هو يصبح عاجزا عن الذود عن شرفه وأسرته لخلوه من الحماسة والحمية ، على حين يقعد عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل . . . وبذلك تنقلب النفس عن غايتها ومدى إنسانيتها » .

وقد صدق ابن خلدون فى رأيه ، فالقسوة مع الطفل تعوده الجبن ، وتبعده عن الحماسة والشجاعة ، وتشعره بالظلم دائما .

وفى النهاية لخص ابن خلدون آراء فلاسفة التربية الإسلامية فى العقوبة حينما اقتبس نصيحة هارون الرشيد لمؤدب ولده الأمين ، فذكر أن الرشيد طلب إلى الأحمر مؤدب ولده ألا يدع ساعة تمر دون أن يغتنم فائدة تفيده من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، وألا يمعن فى مسامحته ، فيستحلى الفراغ ويألفه ، ويقومه ما استطاع بالقرب والملاينة ، فإن أباها فعليه بالشدة والغلظة[1] .

فالتربية الإسلامية تتفق كثيرا مع التربية الحديثة التى تعمل للإصلاح ، وتفكر فى

---

(١) ارجع إلى مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٤ — ٤٩٥

الإصلاح ، وتبتعد بقدر الاستطاعة عن القهر والقسوة ، مع استعمال اللين والشفقة فى العقوبة.

« انظر موضوع العقوبة فى كتاب « الاتجاهات الحديثة فى التربية » للمؤلف .

نحن والعقوبة المدرسية :

نعتقد أن العقوبة المدرسية لم توضع للقصاص أو الانتقام ، بل وضعت لإصلاح المعاقب ، وحماية بقية التلاميذ . فالطفل الذى يعبث بنظام حجرة الدراسة يجب أن يُحمى زملاؤه من شره بوضعه بعيداً عنهم ، لعدم احترامه حقوق الجماعة ورعاية مصلحتها .

وإن العقاب البدنى ليس بعلاج ناجع يحسم الداء ، ويبرئ العلة ، بل قد يكون سببا لتفاقم المرض ، وتطاول العلة . والعقاب الأدبى يؤثر فى التلميذ تأثيرا بالغا ، لا يبلغه تأثير أى عقاب بدنى . فالتلميذ الذى ينتخب لمراقبة حجرة الدراسة ، ثم يرتكب ما لا يتفق وشعار المدرسة ، فيفصل ، وينتخب آخر لرياسة الفصل ـ يؤثر فيه هذا النوع من العقاب الأدبى تأثيرا نفسيا شديدا ، ويود أن تعود إليه ثقة زملائه .

ويجب على المربى أن يذكر أن هناك فرقا بين طفل وآخر فى طبعه ومزاجه وميوله وأخلاقه ، ويعرف تلاميذه معرفة حقة ، ليعامل كلا منهم المعاملة التي تليق به . فمن التلاميذ من تكفيه الإشارة ، ومن لا تروعه المقالة ، ومن يتألم إذا عوقب بالحجز آخر اليوم المدرسى ، ومن يجد مسرة فى هذا الحجز ، ومن يحزن كل الحزن لطرده يوما من المدرسة ، ومن يسر كل السرور لغيابه عنها .

والحق أن كل تلميذ يعد قضية مستقلة قائمة بذاتها يجب أن ننظر إليه نظرا خاصا ؛ إذ أن ما يلائم هذا الطفل من العقاب ربما لا يلائم الآخر .

فإذا أردنا أن ننجح فى تعليمنا وجب علينا أن نفكر فى كل تلميذ ، ونعاقبه بما يناسبه بعد أن نزن ذنبه ، ونعرف الحافز عليه . وإذا شعر المخطئ بذنبه وكان واثقا بعطف المدرس نحوه مد يده طالبا تنفيذ العقوبة ، شاعرا بالعدالة ، ملتمسا الرحمة ، مصمما على التوبة وعدم العودة إلى ما فعل . وبذلك نصل إلى الغرض من العقوبة وهو الإصلاح . وما أجمل قول المتنبى :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف فى موضع الندا
وما قتل الأحرار كالعفو عنهمو ... ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا ؟

ويجب ألا يمس نوع العقوبة كرامة الطفل ، وألا يكون فيها إهانة له ، كأن تقول : إن هذا التلميذ سرق كذا وتعلن هذا أمام المدرسة . فإن للطفل شخصية يجب أن تراعى ، وكرامة يجب أن نحافظ عليها .

وكثيرا ما أخطأ المربون الغرض من العقوبة فضلوا السبيل ، وظنوا مخلصين أن الشدة على البنين والبنات ، قد تأتى فى ظنهم بخير ما يرجون . وكان ذلك لجهلهم بالحقيقة المؤلمة ؛ فقد أدت الشدة إلى كثير من البلايا التى ولدت بعض المشكلات الاجتماعية التى يتألم منها المجتمع الإنسانى، فجعلت الطفل كائنا ميت النفس، ضعيف الإرادة ، نحيف الجسم ، مضطرب الأعصاب ، خائر العزيمة ، قليل النشاط والحيوية .

وفى عالم التربية اليوم ثورة عنيفة ضد مأساة التربية التى كان الطفل ضحية من ضحاياها فى البيت والمدرسة والمجتمع .

ولا ريب أن الأطفال الصغار يقدرون الكبار ، ولكنّ هناك نزاعا مستمرا ، فى الرغبات والميول والأذواق بين هؤلاء وأولئك . وقد أدى هذا النزاع إلى كثير من الظلم الذى قاساه الأطفال .

وقد يضرب المعلم التلميذ ، فيدافع عن نفسه بعضّ يد المعلم . وقد يعاقَب فصل يحتوى على خمسين تلميذا بالضرب بالعصا ؛ لأنهم أخطئوا فى هجاء كلمة بترك حرف منها .

وفى اعتقادنا أن العقوبة البدنية يجب أن تكون آخر وسيلة يلجأ إليها المربى ، إذا لم تنجح لديه كل الوسائل الأخرى لإصلاح الطفل . ويجب أن يشعر المدرس تلميذه بذنبه الذى عوقب من أجله ، وبعدالة العقوبة ، وألا يعاقب المعلم المتعلم وهو فى حالة الغضب ؛ بل عليه أن ينتظر حتى تهدأ ثائرته ، وتتاح للمعلم وللتلميذ المخطىء فرصة للتفكير .

وإن عقوبة الضرب لا تزيد البليد إلا تبلدا وجمودا . على أن الطفل إذا وجد بجانبه من يبصره بالواجب ، ويستميله دائما إلى العمل ، لم تكن هناك حاجة إلى هذه العقوبات القاسية .

وإذا كان الغرض من العقوبة الإصلاح فالضرب ليس بوسيلة للإصلاح . وإن التفاهم على انفراد يؤدى إلى نتيجة أحسن من نتيجة العصا والسوط .

ومن الخطأ أن تهدد الطفل بعقاب لن تقوم بتنفيذه ؛ كأن تقول له : « إذا فعلت كذا مرة ثانية قتلتك » ؛ فقد يكرر الطفل هذا الفعل ، ومحال أن تقتله . فيجب أن تستعمل الحزم فى معاملة الطفل ، وألا تقول شيئا لا يمكنك تنفيذه .

الفصل الرابع عشر

المبادئ الأساسية فى مناهج التربية الاسلامية

لم تكن المناهج محدودة مقيدة بساعات معينة لكل مادة فى الأسبوع ، كما هى اليوم فى مدارسنا ، ولكنها كانت عامة ، بحيث يترك للمعلم أو للمؤدب الحرية فى اختيار الكتب والمواد التى يدرسها للناشئين .

ذات مرة رأى المفضل بن زيد . . . ابن أعرابية مسلمة ، فأعجب بمنظره ، فسألها عنه ، فقالت : « إذا أتم خمس سنوات أسلمته إلى المؤدب لحفظ القرآن فتلاه ، فعلمه الشعر فرواه ، ورغب فى مفاخرة قومه ، وطلب مآثر آبائه وأجداده . فلما بلغ الحلم حملته على أعناق الخيل فتمرس وتفرس ، ولبس السلاح ، ومشى بين بيوت الحى ، وأصغى إلى صوت الصارخ » .

ومن إجابة تلك الأم العربية المسلمة نرى أن الطفل كان يسلم للمؤدب وعمره خمس سنوات ــ وليس معنى هذا أن التعليم يبدأ فى الخامسة من العمر ــ فيحفظه القرآن الكريم بعد أن يعلمه طبعا القراءة والكتابة ، وبعد إجادة حفظه يعلمه الشعر ورواية الشعر ، ويرغبه فى دراسة تاريخ آبائه وأجداده وقومه ، والبحث عن مآثرهم ومفاخرهم حتى يبلغ الحلم ، فيتمرن على ركوب الخيل ، ويتعلم الفروسية واستعمال السلاح ، فإذا أجاد هذه الفنون الحربية ومهر فيها مشى بين بيوت حيه وقبيلته ، وأصغى إلى صوت الصارخ ليعمل على إنقاذه وإغاثته .

وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه المنهاج الآتى ، وأرسله إلى الولاة من المسلمين ، وقال لهم :

« أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ، ورووهم ما سار من المثل ، وحسن من الشعر . » فعمر يأمر بتعليم الأولاد السباحة والفروسية والرماية ، وما سار من المثل وحسن

من الشعر . ونعتقد أنه حث على دراسة السباحة والعوم ، والرياضة البدنية ، والأمثال العربية المشهورة ، والشعر العذب الجميل ، بعد معرفة مبادئ الدين الإسلامى ، وحفظ القرآن الكريم ، ودراسة الحديث الشريف .

وقد ذكر ابن سينا فى كتاب السياسة آراء ثمينة فى تربية الأولاد ، ونصح بالبدء بتعليم الطفل القرآن الكريم ، بمجرد استعداده جسميا وعقليا للتعليم . وفى الوقت نفسه يتعلم حروف الهجاء والقراءة والكتابة ، ويدرس قواعد الدين ، ثم يروى الشعر ، ويبتدئ بالرجز ثم القصيدة ؛ لأن رواية الرجز أسهل ، وحفظه أيسر ؛ إذ أن أبياته أقصر ، ووزنه أخف . على أن يختار له أحسن الشعر مما قيل فى فضل الأدب ، ومدح العلم وذم الجهل ، وما حث فيه على بر الوالدين ، واصطناع المعروف ، وقرى الضيف . . . فإذا فرغ الصبى من حفظ القرآن الكريم ، وألم بأصول اللغة العربية ، نظر عند ذلك فى توجيهه وإرشاده إلى ما يلائم طبيعته واستعداده .

وفى تلك النصيحة الأخيرة وهى توجيه المتعلم إلى ما يناسب ميوله وطبيعته واستعداده تتمثل روح التربية الحديثة فى عصرنا هذا . فإن علماء التربية اليوم ينادون بمراعاة استعداد المتعلم ورغبته فى الدراسة ، بحيث يوجه إلى الناحية العلمية ، أو العملية ، أو الأدبية ، أو الرياضية ، أو الدينية ، أو الاجتماعية ، أو الفنية التى يميل إليها ويرغب فيها ؛ حتى ينجح نجاحا باهرا فى دراسته .

وكان ابن التوام يقول : « من تمام ما يجب على الآباء من حفظ الأبناء أن يعلموهم الكتاب (أى الكتابة) والحساب والسباحة » . وكان تحفيظ القرآن الكريم نقطة رئيسية فى التعليم الأوّلى بالكتاتيب .

وقد أوصى الغزالى بتعليم الطفل القرآن ، وأحاديث الأخيار ، وحكايات الأبرار وأحوالهم ، ثم بعض الأحكام الدينية ، والشعر الخالى من ذكر العشق وأهله[1]

وأضاف ابن مسكويه[2] مبادئ الحساب ، وقليلا من قواعد اللغة العربية .

---

(١) الإحياء للغزالى جـ ٣ ص ٥٧ م (٢) فى كتاب تهذيب الأخلاق صفحة ٢٠

وقد وضع الجاحظ منهاجا مفصلا (١) ذكر فيه : « ولا تشغل قلب الصبى بالنحو إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام فى كتاب إن كتبه ، وشعر إن أنشده ، وشىء إن وصفه ، ما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به كرواية الخبر الصادق ، والمثل الشاهد ، والمعنى البارع . ويعرف بعض الحساب دون الهندسة والمساحة ، ويعلم كتابة الإنشاء بلفظ سهل ، وعبارة حلوة ، ويحذر التكلف ، ويحثه — فى قراءة البلغاء — أن يستفيد المعانى « للألفاظ » .

وتعد كلمة الجاحظ ثمينة فيما اشتملت عليه من آراء نعدها اليوم حديثة فى عالم التربية ، فهو يقصد من دراسة النحو القدرة على القراءة الصحيحة ، والكتابة الصحيحة ، والكلام الصحيح ، ولا يريد التوسع فى دراسته ، حتى لا يشغل الصبى عن دراسة التاريخ والأمثال العربية ، ويرى الاكتفاء بالحساب للاحتياج إليه فى الحياة العملية . وفى الإنشاء ينصح بمراعاة العبارة العذبة السهلة ، الخالية من التكلف ، وفى المطالعة يحثه على الاستفادة من المعانى والآراء والأفكار .

منهج المرحلة الأولى من التعليم الإسلامى :

إن المواد الأساسية التى كانت تدرس للأطفال فى المرحلة الأولى من تعليمهم هى بوجه عام : القرآن الكريم ، ومبادىء الدين ، والقراءة والكتابة ، والحساب ، ودراسة اللغة العربية ، ورواية الشعر الخلقى ، وإجادة الخط ، ومعرفة القصص العربية ، والتمرن على السباحة والفروسية .

وكان لأبناء الأمراء منهج يختلف بعض الاختلاف عن هذا المنهج العام ، فكانت هناك عناية خاصة بإعدادهم للحياة التى تنتظرهم ، فتعلموا الخطابة ، ودرسوا التاريخ — وخاصة تاريخ الملاحم — وأدب مجالسة الناس ، مع العناية بمواد الأساسية التى ذكرناها من قبل .

وقد نصح هشام بن عبد الملك لمؤدب ولده أن يعلمه كتاب الله ، والشعر الجيد والخطابة ،

(١) فى رسالة المعلمين ص ١٣ — ١٤

وتاريخ الملاحم ، ويعنى بتعليمه الأخلاق ، وروضه على مخالطة الناس لكسب التجارب ، وفهم مختلف الطبائع .

وليس فى هذا المنهج الخاص ما ينافى (الديمقراطية) ، ولكن فيه عناية بإعدادهم للحياة ، وتربيتهم تربية تنمى ذوقهم الأدبى ، وتعودهم الارتجال والمناظرة ، وتبث فيهم الشجاعة والخلق الكامل ، وتعودهم الاختلاط بالشعب والاتصال به ، ودراسة أحواله الاجتماعية ، وفهم طباع الناس وميولهم ورغباتهم . وهذه هى (الديمقراطية) الحقة فى الإسلام ؛ فالحاكم ليس فى عزلة عن الشعب ، ولا يعيش بعيدا عنه ، ولكنه متصل بأفراده كل الاتصال ، ويعرف كل شىء يتعلق بهم ، يفرح لأفراحهم ، ويحزن لأحزانهم ، ويعمل لإزالة ما يلحقهم من أذى أو ضرر .

وقد أشار ابن خلدون إلى أهمية تحفيظ الأطفال القرآن الكريم ، وأوضح أن تعليم القرآن هو أساس التعليم فى جميع المناهج الدراسية فى مختلف البلاد الإسلامية ؛ لأنه شعار من شعائر الدين يؤدى إلى رسوخ الإيمان .

ففى الوقت الذى تنوعت فيه المناهج الدراسية ، واختلفت باختلاف البلاد ، واختلاف مراحل التعليم ، فعنى بعضها بتدريس الحساب ، والألعاب الرياضية : كالعوم والسباحة والفروسية ، واهتم بعضها بإجادة الخط ، ودراسة الأدب والشعر والنحو ، وبعضها بدراسة الحديث الشريف ، وقوانين العلوم ـ أجمعت البلاد الإسلامية كلها وأجمع المسلمون على العناية بتعليم القرآن وحفظه فى كل منهج من المناهج .

بماذا يمتاز المنهج فى المرحلة الأولى من التعليم الإسلامى :

إن من يدرس المناهج التى كانت متبعة فى الأمة الإسلامية العظيمة المختلفة البلدان يلحظ أنها فى المرحلة الأولى كانت تمتاز بما يأتى :

١ ــ كان الاتجاه فى المنهج دينيا ؛ فقد كان الطفل يتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، ثم يبدأ بحفظ القرآن الكريم ومعرفة قواعد الإسلام . وقد كان غرض فلاسفة الإسلام من

تحفيظ القرآن التبرك بأثمن كنز إلهى، وأعظم ثروة روحية فى هذا العالم. وقد ساعد الأطفال فى حفظه التأثر بأسلوبه العذب الجميل، وعباراته الموسيقية المعجزة القوية، وحكمه وآدابه المنطقية، وقصصه المؤثرة، ووصاياه الثمينة النادرة. ولو أنهم لم يستطيعوا فهم معنى السور التى يحفظونها من القرآن لصغر سنهم وقلة إدراكهم. وانتفعوا بالذاكرة القوية والحفظ الآلى فى الصغر. ولا عيب فى هذا؛ ففى استطاعتهم أن يعرفوا تفسيره حينما تكبر سنهم، ويزداد إدراكهم، ويقوى عقلهم. ولو وجد عدد كاف من المدرسين الماهرين الممتازين فى الكتاتيب والمدارس الإسلامية لاستطاعوا بسهولة تفهيم الأطفال المعانى المقصودة من الآيات القرآنية قبل أن يحفظوها حتى يسهل عليهم الحفظ والتذكر.

٢ — العناية التامة بالتربية الخلقية فى تلك التربية، وقد وفق علماء التربية من المسلمين كل التوفيق فى هذا الاتجاه، وتركوا أثرا تربويا خالدا فى التربية الإسلامية، وبرهنوا بأقوالهم وأفعالهم على بعد نظرهم وسداد آرائهم. وهى آراء لا نبالغ إذا قلنا إنها تتفق مع آراء علماء النفس المحدثين فى القرن العشرين، وقد وضحنا هذا فى الفصل الخاص بالتربية الخلقية فى الإسلام.

٣ — كما عنى المسلمون بالناحيتين الدينية والخلقية فى المرحلة الأولى من التعليم لم ينسوا العناية بالنواحى النفعية فى المنهج، فعنوا بالشعر واللغة العربية، وحسن الكلام، والحساب والتاريخ، والسباحة والرماية والرياضة البدنية، ولكنها لسوء الحظ لم تكن عامة فى جميع المناهج بالبلاد الإسلامية.

٤ — خاف المسلمون من التربية الجمالية والفنون الجميلة فى مرحلة الطفولة؛ فقد عدوا الموسيقا والرسم والحركات التوقيعية وأشعار الغزل والعشق مضرة بأخلاق الأطفال، ولهذا حاولوا إبعادها عنهم فى طفولتهم، ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر ما خلقه الإسلام من الأثر فى النواحى الدينية والخلقية والثقافية والرياضية والعلمية والمثالية فى منهج التعليم الإسلامى بالمرحلة الأولى، وهى مرحلة تشمل التعليم الابتدائى والمتوسط أو الابتدائى والثانوى معا.

كيف كان منهج التربية فى المرحلة العالية ؟

من ينظر إلى التربية والتعليم فى تلك المرحلة فى العالم الإسلامى يجد أن المنهج نوعان :

(١) منهج دينى أدبى . و (٢) منهج علمى أدبى . ولنتكلم عن كل منهما فنقول :

١ ـ فى الوقت الذى اختير فيه المنهج الأول ـ وهو الدينى الأدبى ـ كان العالم الإسلامى يفكر فى معرفة الدين الإسلامى وحفظه ونشره ، فعنى العلماء بدراسة الدين والمواد التى لها صلة به كالحديث والتفسير وعلوم اللغة العربية ، والشعر العربى ، وعلم التاريخ ؛ لأنها تساعد فى فهم معانى القرآن الكريم ودراسته ، وتعين على تذوق الأدب العربى ، ومعرفة المواد الاجتماعية الإنسانية .

١ ـ المنهج الدينى الأدبى :

لتوضيح هذا المنهج نذكر هنا بعض الأمثلة للدراسات الدينية الأدبية :

(ا) فى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينورى (ص ١٢٠ ـ ١٢١) قيل إن رجلا من ثقيف دخل على الوليد ، فقال له الوليد : أقرأت القرآن ؟

قال الأعرابى : لا يا أمير المؤمنين ، شغلتنى عنه أمور وهنات .

قال الوليد : أفتعرف الفقه ؟

قال الأعرابى : لا

قال الوليد : أفرويت من الشعر شيئا ؟

قال الأعرابى : لا .

(وكان الوليد يلعب الشطرنج مع عبد الله بن معاوية ، وكان قد أخفى الشطرنج بالمنديل عند دخول الأعرابى) ، فكشف الوليد المنديل عن الشطرنج وقال : (شاهك) . فقال عبد الله بن معاوية : يا أمير المؤمنين .

قال الوليد : « اسكت فما معنا أحد » .

ومعنى هذا أن من لم يقرأ القرآن ولم يعرف الفقه ، ولم يرو الشعر ، ولم يدرس الدين والأدب لا يعتد به ، ولا يفكر فيه أحد ، ويعد كالعدم لا وجود له .

(ب) وفي معجم الأدباء لياقوت[١] : قال ابن عتاب : يكون الرجل نحويا عروضيا حسن الكتاب (أي الكتابة)، جيد الحساب ، حافظا للقرآن ، راوية للشعر ، وهو راض بأن يعلم أولادنا بستين درهما . ويقصد بهذا أن الرجل قد يكون مثقفا عالما بالنحو والعروض ، جيد الكتابة ، مجيدا للحساب ، حافظا للقرآن الكريم ، راوية للشعر العربي ، مثقفا ثقافة دينية أدبية ، ثم يرضى أن يقوم بالتدريس لأولادنا بستين درهما ؛ لأن المعلمين كانوا يعدون مهنة التعليم روحية مقدسة ، يعلمون النشء ابتغاء مرضاة الله ، لا يقصدون أجــــرا ، ولا يفكرون في مال ؛ لزهدهم وتقواهم . وقليل منهم كان يأخذ أجرا زهيدا كستين درهما ليستعين بها على الحياة .

(جـ) وقد وضح المقري في كتابه « نفح الطيب » الدراسات التي اهتم بها المسلمون في الأندلس فقال :

« وقراءة القرآن عندهم بالسبع ، ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة . وسمة الفقيه عندهم جليلة . . وقد يقولون للكاتب النحوي واللغوي فقيه ؛ لأنها عندهم أرفع السمات . وعلم الأصول عندهم متوسط الحال ، والنحو عندهم في نهاية من علـــو الطبقة . . وكل عالم في أي علم لا يكون متمكنا من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق ، فليس عندهم بمستحق للتمييز ، ولا سالم من الازدراء . . وعلم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستطرفات الحكايات أنبل علـــم عندهم ، وبه تتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم ، والشعر عندهم له حظ عظيم » .

ومن هذا النص نرى أن المسلمين في الأندلس كانوا يعنون كل العناية بالثقافة العالية ، ويشجعون الطلبة على التعمق في البحث ، وقراءة القرآن بالسبع ، ورواية الحديث، ودراسة الفقه والنحو واللغة والأصول والأدب ، ويشمل معرفة التاريخ والنظم والنثر والقصص الطريفة ، وهي كلها دراسة دينية أدبية ترفع صاحبها ، وتجعل له منزلة سامية بين الملوك والأعلام .

---

(١) جـ ٤ ص ٢٣ طبعة مصر ١٩٢٣ .

(د) وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه : من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن نظر فى الفقه نبل قدره ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر فى اللغة رق طبعه ، و نظر فى الحساب جزل رأيه .

(هـ) وقد درس ابن قتيبة النحو وعلم المفردات ، والقرآن والتفسير والشعر .

(و) ولخص محمد بن موسى الخوارزمى — فى كتابه « مفاتيح العلوم » — المنهج الدينى الأدبى فيما يأتى :

١ — علم الفقه .

٢ — علم النحو .

٣ — علم الكلام .

٤ — الكتابة .

٥ — العروض .

٦ — علم الأخبار وخاصة تاريخ الفرس والتاريخ الإسلامى وما قبل الإسلام، وتاريخ الإغريق والرومان .

٧ — الحساب فى كثير من الأحوال .

المنهج العلمى الأدبى فى المرحلة العالية من الدراسة :

يختص هذا المنهج بالمراحل التى تقدم فيها التفكير الإسلامى ، وظهرت الحرية فى التفكير ، واتسع مجال البحث ، ونهضت العلوم فى جميع النواحى العلمية والأدبية ، وازداد النشاط العلمى والفلسفى فى الأمة الإسلامية العظيمة ، فأنشئت دور العلم ، وأسست دور الحكمة فى القاهرة وبغداد ، ودرس مع العلوم العربية — من دين ولغة وتاريخ — العلوم الرياضية والطبيعية والطبية والفلسفية ، وترجمت العلوم من اللغات الإغريقية والفارسية والهندية إلى اللغة العربية . وانتشرت تلك العلوم التى ترجمت إلى لغة العرب فى بلاد العالم الإسلامى القريبة والبعيدة ، وحدثت نهضة علمية وفكرية كبيرة ، وازداد نشاط

العلماء فى الترجمة والتأليف والبحث فى المواد العلمية المختلفة . وتمتد تلك المرحلة من منتصف القرن الثانى الهجرى إلى نهاية القرن الرابع الهجرى، حيث بلغت النهضة ذروتها فى التقدم .

قال (مونرو) فى كتابه تاريخ التربية ص ٣٣٣ : « ففى الطب والجراحة وعلم الأدوية والفلك وعلم وظائف الأعضاء ـ وصل المسلمون إلى ابتكارات هامة . . . واخترعوا ساعة البندول . . . وعلموا أوروبة استعمال البوصلة والبارود . فأثر علماء الإسلام فى النهضة العلمية لا يستطيع أن ينكره إلا كل مكابر متعصب » .

ومن الأمثلة الآتية تتضح مميزات المنهج العلمى الأدبى :

١ ـ فقد درس أبو إسحاق الكندى فيلسوف الإسلام الطب والرياضة والشعر والمنطق والفلسفة والموسيقا فى القرن الثالث الهجرى .

٢ ـ ودرس ابن سينا القرآن والعلوم الإسلامية والعلوم الفلسفية والعلوم الطبيعية والطب والمنطق والشعر والحساب والهندسة والجبر .

٣ ـ ودرس أبو على الحسن بن الهيثم ـ الذى كان يقيم بمصر ـ علم الإلهيات والحساب والهندسة والجبر والطب والفلسفة وفروع العلوم المختلفة ، وهو العالم الطبيعى ، والمهندس الرياضى ، ومؤسس علم الضوء[1] .

قال ابن الهيثم : « اشتهيت إيثار الحق ، وطلب العلم ، واستقر عندى أنه ليس ينال الناس من الدنيا شيئا أجود ولا أشد قربة من الله من هـذين الأمرين . فخضت لذلك فى ضروب الآراء والاعتقادات وأنواع العلوم والديانات ، فلم أحظ من شىء منها بطائل . . فرأيت أننى لا أصل إلا عن آراء يكون عنصرها الأمور الحسية ، وصورتها الأمور العقلية . فلما تبينت ذلك أفرغت وسعى فى طلب علوم الفلسفة وهى ثلاثة : علوم رياضية ، وطبيعية . . وإلهية . . . » .

٤ ـ وفى الأندلس كانوا يجمعون بين العلوم الرياضية والطب والمواد الأدبية مع الإقلال من الاهتمام بالعلوم الطبيعية .

---

(١) ٣٥٤ هـ ـ ٤٣٠ هـ .

٥ ـ وقد بين محمد بن موسى الخوارزمى العالم فى كتابه (مفاتيح العلوم) فى القرن الرابع الهجرى أنواع العلوم غير الإسلامية ولخصها فيما يأتى :

(ا) العلوم الطبيعية : وتشمل الطب بفروعه : التشريح ، وعلم تشخيص الأمراض وعلم العقاقير والعلاج ، والتغذية . . . ثم علم المعادن والمناجم ، والنبات والحيوان ، وكيميا تحويل المعادن إلى ذهب .

(ب) العلوم الرياضية : وتشمل الحساب والهندسة والجبر وعلم الفلك والموسيقا والميكانيكا وعلم الآلات الرافعة . . .

(جـ) المنطق .

٦ ـ وإن من يطلع على رسائل إخوان الصفا وما فيها من الرسائل الرياضية التعليمية ، والرسائل الجسمانية الطبيعية ، والرسائل النفسانية العقلية ، والرسائل الناموسية والإلهية والشرعية والدينية ـ يرى بوضوح مقدار العظمة الفكرية والنشاط العقلى لدى علماء الإسلام فى القرن الرابع الهجرى .

وقد أشار الأستاذ (براون) فى كتاب «الطب العربى»[1] إلى قصة « تودد الجارية » التى دونت فى كتاب ألف ليلة وليلة ، وهى حقا تدل على التعمق فى البحث ، والتوسع فى العلم ، أيام عظمة الأمة الإسلامية . فاطلع عليها فإنها جميلة .

وإن نظرة واحدة إلى تراجم علماء المسلمين كالفهرست لابن النديم ، وتاريخ الحكماء لابن أبى أصيبعة ، وتراجم القفطى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ومعجم الأدباء لياقوت ـ تريفا بوضوح أن كثيرين من المسلمين قد درسوا المواد العلمية فى جميع البلاد الإسلامية ، ولكن عدد من درسوها كانوا أقل ممن درسوا العلوم الدينية والأدبية .

وباستعراض المناهج فى المرحلة العالية نستنبط ما يأتى :

١ ـ إن عناية المسلمين بالدراسات الدينية كانت كبيرة وسابقة للدراسات الأخرى .

وكان من رأى الفارابى وابن سينا وإخوان الصفا أن الكمال الإنسانى لا يتحقق إلا بالتوفيق بين الدين والعلم .

(١) Arabian Medicine

٢ ـ إن الميل إلى دراسة الأدب والعلوم الإنسانية كان أكثر من الميل إلى الدراسات العلمية .

٣ ـ إن المنهج العلمى الأدبى فى المرحلة العالية كان يمتاز بالتوسع فى معرفة كثير من العلوم والمواد الإنسانية . فكان الغرض الأول من التربية الإسلامية وجدانيا قبل أن يكون عقليا . وكان طلبة الطب يدرسون مع فروعه المختلفة العلوم الطبيعية والرياضية والمنطق والنحو والشعر العربى ، وبعض العلوم الإسلامية ؛ لأن التخصص كان قليلا .

المواد الدراسية الحديثة التى كان المسلمون يعلمونها فى مدارسهم :

قد قام المسلمون بتعليم المواد الآتية فى مدارسهم : علوم الفلك ، والجغرافية ، والمنطق ، والنحو ، والهندسة والجبر ، والطبيعة ، والتاريخ الطبيعى ، والكيمياء الطبية ، والطب .

وعُنُوا بالمكتبات كل العناية ، فترجموا إلى اللغة العربية الكتب النفيسة التى ألفها فلاسفة الإسكندرية وعلماؤها ، والكتب التى ألفها اليونان القدماء ، حتى إن البابا (جوبرت) الذى تولى البابوية فى آخر القرن العاشر الميلادى كان قد أخذ بعض العلوم عن العرب (المسلمين) ، وأظهرها لمن كانوا يعاصرونه ، فأعجبوا بها الإعجاب كله ، واتهموه من أجلها بالسحر .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الأمة الإسلامية العظيمة قد أحيت العلوم من ركودها ، والفنون بعد إهمالها . وأيقظت البشرية والإنسانية من سباتها العميق ، وبعثت فيها الحياة ، ودفعتها فى سبيل الحضارة والنهضة . وإن من يقرأ القرآن الكريم يجد فيه كثيرا من الآيات القرآنية التى تحث على التعلم ، وتشجع على طلب العلم ، والاستزادة منه ، كى تبقى الأمة عالية الشأن ، عظيمة بين الأمم . فأول آية نزلت على المصطفى صلى الله عليه وسلم فيها أمر بالقراءة ، وتكرار لهذا الأمر ، وتشجيع على العلم والتعليم ، : « ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ . ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

ولم يكتف الإسلام بتعلم القراءة والكتابة ، فقد أمر الله نبيه بطلب الزيادة من العلم ، وقال له : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » ؛ لأن العلم هو السبيل إلى معرفة أسرار هذا الكون ، وما فيه من العجائب الدالة على قدرة الخالق وعظمته ، وحكمته وفضله ، وجمال تدبيره .

وفى بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم قال جل شأنه : « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١) . »

والتزكية هى التربية بالقول والعمل والقدوة الحسنة .

والكتاب : هو تعلم الكتابة التى تزيل الأمية وتمحوها بين العرب . والحكمة : هى العلوم المفيدة التى تؤدى إلى الأعمال الصالحة ، والحضارة والمدنية والفلسفة . فجميع مقاصد القرآن مؤسسة على هذه الأسس الثلاثة وهى : التربية ، وتعلم الكتابة ، والحكمة .

---

(١) سورة الجمعة : ٢

الفصل الخامس عشر

المبادئ التى روعيت فى التربية الإسلامية عند اختيار المناهج الدراسية

فى التربية الحديثة اليوم روعيت ميول الأطفال ورغباتهم فى الطفولة ، فلختير لهم من المواد الدراسية القصص الخرافية ، وحكايات عن الحيوان والطيور ومشاهد الطبيعة ، والتعبير بالرسم والأشغال اليدوية ، والحركات التوقيعية ، وأناشيد الطفولة ، كما روعيت الفروق الفردية بينهم ، والمواد المتصلة بالبيئة المدرسية ، والنواحى المهنية التى تعد الإنسان إعدادا كاملا ، وتربيه تربية اجتماعية وجسمية وعقلية ووجدانية وعملية وخلقية ، وتجعله قادرا على كسب عيشه ، وتكون منه إنسانا كاملا . ولهذا حفل المنهج بكثير من المواد الدراسية .

وإذا نظرنا إلى التربية الإسلامية لحظنا أنها عند اختيار المناهج الدراسية قد راعت المبادئ الآتية :

١ ـ أثر المادة فى تربية النفس وكمالها ، فدرست العلوم الدينية والإلهية ؛ لأن أشرف العلوم معرفة الله وصفاته اللائقة به . فالفارابى فيلسوف القرن الرابع الهجرى يضع علم الإلهيات فى مرتبة الشرف الأولى ، ويعده أسمى العلوم وأعظمها . وما سواه من العلوم خدم وتبع له . ولذلك كان بعض العلماء يسمونه أحيانا العلم الأعلى ، كما يسمون الرياضة بالعلم الأوسط ، والطبيعة بالعلم الأدنى .

وقد ذكر النمرى القرطبى فى كتابه : « جامع بيان العلم وفضله[1] » أن العلوم عند أهل الديانات ثلاثة : علم أعلى ، وعلم أدنى ، وعلم أوسط . فالعلم الأعلى عندهم هو علم الدين . والعلم الأوسط : هو معرفة علوم الدنيا . . . كعلم الطب والهندسة . . . والعلم الأدنى كالصناعات والفنون العملية مثل السباحة والفروسية والخط ، وهى المواد التى تكتسب فيها المهارة

(١) ج ١ ص ١٧٦

بتدريب الجوارح والمرانة . ففلاسفة الإسلام كانوا يعتقدون أن العلوم الدينية أفضل العلوم وأشرفها وأسماها وأرقاها . وقد اشترطوا لدراستها البعد عن الأغراض المادية والدنيوية ، فلم يتعلموها لكسب مال أو جاه أو نفوذ أو إرضاء حاكم أو سلطان ، ولكنهم كانوا يقصدون من يعلمها وتحصيلها إرضاء الله . وقد أثر عن الرسول الكريم أنه قال : « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا لتجاروا به السفهاء ، ولا لتحيزوا به المجالس ، ولكن تعلموه لوجه الله وللدار الآخرة . » كما اشترطوا لكسب العلم والمعرفة تطهير النفس من الرذائل والنقائص .

قال الإمام الغزالى فى كتابه : « فاتحة العلوم » صفحة (٥) : وكمال الآدمى فى قربه من الله تعالى . وإنما يقرب بصنعة العلم . فما دام علمه أكثر وأكمل فهو إلى الله أقرب ، وبملائكته أشبه » .

وأهم العلوم الدينية : القرآن الكريم ، والتفسير ، والحديث الشريف ، والفقه ، والإلهيات . ولم تمنع دراسة العلوم الدينية الطلاب من دراسة المواد الأخرى ، كالحساب والهندسة والجبر . . . وكان لهم الحرية فى دراستها بشرط ألا تعوقهم عن دراسة الدين .

وقد قسم الغزالى العلوم إلى ثلاثة أقسام :

(ا) قسم مذموم قليله وكثيره كالسحر .

(ب) وقسم محمود قليله وكثيره ، محمود إلى أقصى غايات الاستقصاء ، وهو العلم بالله وسنته فى خلقه ، وهو علم مطلوب لذاته وللتوصل لسعادة الآخرة .

(حـ) وقسم يحمد منه مقدار الكفاية كالنجوم[1] .

فالمثل العالى للمنهج فى العصر الذى عاش فيه الغزالى هو وضع العلوم الدينية فوق جميع العلوم .

٣ ــ أثر المادة فى النصح والإرشاد باتباع طرق الحياة الفاضلة الكاملة ، كعلم الأخلاق وعلم الحديث والفقه الإسلامى . . وإن اختلج فى صدرك . . أن الأغراض مختلفة فى أمر العلوم . وأردت أن تعرف الأفضل (منها) فاتبع قول الشاعر المتصوف :

(١) الإحياء للغزالى جـ ١ ص ٣٦ . بتصرف .

كل العلوم سوى العـــلوم مشغلة إلا الحديث وإلا الفقه فى الدين
والعـــلم ما كان قال حـــدثنا وما سواه فوسواس الشياطين

ولكن هذا القول لم يمنع طلاب العلم من الدراسة والبحث فى جميع العلوم مع التعمق فى دراسة الدين .

وقد عنيت التربية الإسلامية بالتربية الخلقية فى المرحلتين الأولى والأخيرة من التعليم ، كما عنيت بدراسة العلوم الدينية ـ وخصة الفقه ـ لأنها أساس الفضائل والأخلاق الكاملة .

قال أحد تلاميذ الإمام الشافعى : كنت يوما عند الإمام الشافعى أسائله عن مسائل بلسان أهل الكلام (علماء التوحيد) . فجعل الإمام الشافعى يسمع منى ثم يجيبنى عنها بأخصر جواب . فلما اكتفيت قال : يابنى ، هل أدلك على ما هو خير لك من هذا ؟

قلت : نعم .

قال : يابنى ، هذا علم إن أصبت أنت فيه لم تؤجر ، وإن أخطأت كفرت . فهل لك فى علم إن أصبت فيه أجرت (أثبت) ، وإن أخطأت لم تأثم ؟

قلت : ما هو ؟

قال : الفقه .

ومن علماء الإسلام من عد دراسة معظم العلوم سواء أكانت دينية أم فلسفية مؤدية إلى تحقيق الغاية الروحية والخلقية ، فأقبلوا على دراستها بقلوبهم . لتحقيق هذه الغاية الروحية والخلقية قبل أى أمر آخر . وهذه النزعة تظهر بوضوح فى إخوان الصفاء ورسائلهم .

وقد شجع بعض فلاسفة الإسلام دراسة علم الجغرافيا الطبيعية ؛ لاعتقادهم أن دراسة علم النفس تشوق النفس إلى الصعود إلى عالم الأفلاك والأرواح . وشجع آخرون دراسة علم الأخبار وهو علم التاريخ ، وله منزلة كبيرة فى منهج التربية الإسلامية . فقد ذكر ياقوت فى كتابه : « معجم البلدان » أن القرآن يستمد من التاريخ حوادث معينة للعظة والعبرة . وقال المقريزى عن علم التاريخ : « إنه من أجل العلوم قدرا وأشرفها عند العقلاء مكانة

وخطرا ، لما يحويه من المواعظ . . . والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها ، واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى (أصحاب العقول) » .

وقال ابن خلدون فى مقدمته : « إن التاريخ يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم ؛ حتى تتم فائدة الاقتداء بهم فى أحوال الدين والدنيا معا » ص ٧٦ .

٣ ـ هناك مواد كان المسلمون يدرسونها لما فيها من لذة فكرية ولذة علمية ، وهذا هو ما يقصده المثاليون من علماء التربية اليوم من دراسة العلم لذات العلم . كما أن هناك مواد كان علماء الإسلام ينادون بدراستها لفائدتها العملية المباشرة فى الحياة . فالمنطق كان يدرس لأن مراعاته تعصم الذهن عن الخطأ فى الفكر ، والحساب والهندسة يدرسان ليعتاد المتعلم عادات عقلية ووجدانية خاصة ؛ كالدقة فى التفكير ، والدقة فى القول والعمل ، ومعرفة المواريث ، ومواعيد الصيام والمعاملات التجارية . والفقه يدرس لفهم أحكام الشريعة الإسلامية فى العبادات والمعاملات . والنحو يعلم ليعصم اللسان عن الخطأ فى القول ، والقلم عن الخطأ فى الكتابة ، ويقرأ المتعلم قراءة صحيحة ، ويكتب كتابة صحيحة . والطب يدرس للوقاية من الأمراض وعلاج المرضى .

٤ ـ دراسة العلم لأنه ألذ شىء فى نظر المسلمين . إن الإنسان محب للاطلاع بفطرته ؛ لهذا عنى فلاسفة الإسلام بدراسة كثير من العلوم والفنون ؛ ليشبعوا ما لدى الإنسان من ميل فطرى إلى الاطلاع والمعرفة . وهذا هو النوع المثالى من التعليم حيث يدرس الطالب العلم لذات العلم ؛ لأن فيه لذة علمية لا نظير لها .

قال الحاجى خليفة فى كتابه : « كشف الظنون » ص ١٦ : « والعلم ألذ الأشياء وأفضلها . وشرف العلم إما لذاته أو لغيره . والعلم حائز للشرفين جميعا ؛ لأنه لذيذ فى نفسه فيطلب لذاته ، ولذيذ لغيره فيطلب لأجله . أما الأول فلا يخفى على أهله أنه لا لذة فوقها ؛ لأنها لذة روحانية ، وهى اللذة المحضة ، أما اللذة الجسمانية فهى دفع الألم فى الحقيقة » .

وقال أيضا : « ليس الغرض من الدرس تحصيل الرزق فى هذه الدنيا ، ولكن الغرض الوصول إلى الحقيقة ، وتقوية الخلق » .

فالتربية الإسلامية كانت مثالية تطالب بالعلم لما فيه من لذة روحية ، وللوصول إلى الحقائق العلمية ، والأخلاق النبيلة ، ولم تكن فى أساسها مادية ، بل كانت المادة أو كسب الرزق أمرا عرضيا فى الحياة ، لم يقصد الكسب لذاته ، بل كان أمرا ثانويا فى التعليم . وإن من ينظر إلى ما تركه المسلمون من التراث الأدبى الخالد والتراث العلمى العظيم يجد أمامه ثروة لا نظير لها فى العالم ، تدل دلالة واضحة على شدة تعلق المسلمين فى عصورهم الذهبية بالأدب لذاته والعلم لذاته ؛ لأنهم كانوا يعيشون فى عالم روحى لا عالم مادى ، حيث طغت الناحية الروحية على الناحية المادية .

وقد ادعى الدكتور (مكدونالد) خطأ فى كتابه « الحالة الدينية والحياة فى الإسلام[1] » أن التعليم الإسلامى مادى (نفعى) تماما لا يعنى بميول الأفراد ، فالمعرفة لابد أن تكون ذات فائدة بالنسبة لهذه الدار أو للدار الآخرة . والحق أن الدكتور (مكدونالد) لا يعرف روح التربية الإسلامية ، ولو عرفها حقا بدون تعصب للمس ما فيها من التربية الروحية المثالية ؛ فقد كان العلماء من المسلمين يجدون لذة فى العلم والبحث ، ويتفرغون للدراسة لما فيها من لذة علمية ، يقومون بالتدريس من غير أجر ، ولا يقصد الطالب من التعلم ناحية مادية أو نفعية ، ولا يفكر فى التعلم للحصول على وظيفة أو عمل أو نيل مركز أو جاه . فالأساتذة كانوا يهبون حياتهم للعلم والتعليم . والطلبة كانوا يجعلون حياتهم كلها للدراسة والتعمق فى العلم . فقد كانوا يسافرون ويغتربون ويحتملون مشاق السفر والانتقال من بلد إلى آخر لتلقى العلم من الأساتذة المشهورين والبحث عنهم ، وأخذ العلم من مناهله الأولى حبا للعلم . وكانوا متفرغين للعلم ، مقبلين عليه ، يجدون لذة كبيرة من التعب فى سبيل طلب العلم والإنتاج العلمى .

(1) B. Mc. Donald : Religions Attitude and life in Islam, University of Chicago, P. 12

فالتربية الإسلامية كانت تميل إلى الناحية المعنوية الروحية لا إلى الناحية المادية النفعية، لا يشك فى ذلك من يطلع على أى كتاب قديم فى التربية الإسلامية، ولم تنس الناحية المادية وكان التعليم الإسلامى يعنى كل العناية بميول الأفراد الطبيعية ، استعداداتهم الفطرية ، ويوجههم ويرشدهم إلى النواحى التى يميلون إليها بطبيعتهم .

فالدكتور (مكدونالد) كان مغاليا فى دعواه ، متعصبا فيما رآه . لم يقرأ شيئا من آراء الغزالى أو الفارابى أو ابن سينا أو العبدرى أو الزرنوجى أو ابن خلدون فى التربية الإسلامية والتعليم . ولو قرأ أى كتاب لأحد هؤلاء الفلاسفة لاقتنع كل الاقتناع بأن التربية الإسلامية ما كانت فى يوم من الأيام مادية كما هى اليوم فى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية . والرأى الحق أن المسلمين كانوا شغوفين بالعلم لذات العلم ، والأدب لذات الأدب ، والفن لذات الفن ، معتنين بالناحية المعنوية للعلوم ، مراعين ميول الأفراد فى الدراسة والتعلم ، والتوجيه والإرشاد .

وفى استطاعة كل باحث أن يرى هذا الروح واضحا فيما تركه المسلمون من تراث خالد فى العلوم والفنون والرياضة .

وإن الروح المثالى فى التربية الإسلامية يبدو فيما ذكره الحاجى خليفة فى كتابه (كشف الظنون) صفحة ١٧ قائلا : « إن العلوم ليس الغرض منها الكسب ، بل الاطلاع على الحقائق وتهذيب الأخلاق . وإن من تعلم للاحتراف لم يأت عالما ، وإنما جاء شبيها بالعلماء » . فليس الغرض من التربية الإسلامية ماديا صرفا كما يدعى الدكتور (مكدونالد) ، ولكن الغرض الأساسى معرفة الحقائق العلمية، وتهذيب الأخلاق الإنسانية . وإن من تعلم ليكون ماهرا فى حرفة من الحرف أو مهنة من المهن فلن يكون عالما ، ولكنه سيكون شبيها بالعلماء كما قال الحاجى خليفة . هذه هى التربية الإسلامية المثالية . وليس معنى هـذا أن المسلمين أهملوا التعلم لكسب الرزق كلية .

وسنوضح هذه الفكرة فى التعليم المهنى لكسب الرزق فى المبدأ التالى .

٥ — التعليم المهني والفني والصناعي لكسب الرزق :

كانت عناية التربية الإسلامية بالتربية الروحية والدينية والخلقية تامة ، يلمس ذلك كل من اطلع على ما كتبه فلاسفتها وعلماؤها ، ولكنها في الوقت نفسه لم تهمل توجيه المتعلمين لدراسة بعض المواد أو التدريب على بعض المهن والفنون والصناعات بعد الانتهاء من حفظ القرآن ودروسهم الدينية ، لإعدادهم لكسب عيشهم ورزقهم في الحياة التي تنتظرهم . انظر إلى ابن سينا حيث قال : « إذا فرغ الصبي من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك إلى ما يراد أن تكون صناعته فيوجه لطريقه . فإن أراد الكتابة أضاف إلى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناقلات الناس ومحاوراتهم ، وما أشبه ، وطورح الحساب ، ودخل به الديوان ، وعني بخطه ، وإن أريد أخرى أخذ به فيها » .

فدراسة القرآن ومعرفة أصول اللغة كانتا من المواد الدراسية الأساسية في المناهج الإسلامية ، فإذا انتهى الصبي منهما نظر في أمره وفي الصناعة التي يميل إليها ، وأرشد إلى السير في طريقها حتى يجيدها . وإذا كان يميل إلى الأدب وأراد أن يكون كاتبا من الكتاب وجب عليه بعد دراسة علوم اللغة العربية أن يدرس رسائل الكتاب ، وخطب الخطباء ، ومحادثات الأدباء ، ومناظراتهم ومناقشاتهم وما أشبهها ، ومرن على المحاسبة ، وعني بإجادة خطه ، ووظف في الديوان . وإن أراد مهنة أخرى من المهن أعد لها . حتى يكسب المهارة فيها . أما العناية بالنواحي النفعية والمادية التي تأتي عرضا عن العلم والتعلم بطريقة غير مباشرة فتظهر فيما كتبه الأدباء والشعراء في فوائد العلم ونتائجه ، وأثره في التقدم على النظراء والأقران ، والتمتع بالمزايا الأدبية والفوائد المادية .

ومما يدل على عناية المسلمين بالخط لكسب الرزق منه القصة الآتية :

لما حضرت الوفاةُ أبا الغزالي وصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له من المحبين للخير ، وقال له : إني آسف كثيرا لعدم تعلمي الخط ، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولديّ هذين وهما : محمد وأحمد ، فعلمهما الخط ، ولا لوم عليك في أن ينفد في ذلك جميع ما أتركه لهما .

فلما مات الأب أقبل الصوفى على تعليمهما الخط إلى أن انتهى ذلك النزر اليسير من المال الذى كان قد تركه لهما أبوهما . وتعذر على الصوفى أن يقوم بإطعامهما من المال . فقال لهما :

اعلما أنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما . وإنى رجل فقير زاهد ، ليس لى مال فأواسيكما به . وإن أصلح شيء أراه مناسبا لكما أن تلجآ إلى مدرسة كأنكما من طلبة العلم ، فتحصلا على القوت الضرورى الذى يعينكما على الحياة . .

ففعلا ذلك . وكان هو السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما . وكان الغزالى يحكى هذا ويقول : « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله » .

وقد كتب المسلمون كثيرا عن فوائد العلم ومزايا التعليم الروحية والمادية ، وأثره فى التخلص من الفروق الاجتماعية بين الأفراد ، والوصول إلى أسمى المراكز والمراتب ، ولكنهم لم يقصدوا من العلم هذه الفوائد والمزايا ، بل قصدوا بالعلم مرضاة الله ، ولكن هذه الآثار أتت عرَضا من غير قصد . فالتعليم الإسلامى كان فى الغالب روحيا ، ولكنه لم يهمل التعلم لكسب العيش والرزق .

وقد كان هناك علماء من المسلمين يعارضون الكسب بالتعليم ، ويذمون العلم إذا قصد به الكسب ، ولا عجب ؛ فقد كانوا يقصدون وجه الله بعلمهم ، ويعملون عملا آخر يربحون منه ما يقتاتون به فى الحياة . فأبو على الحسن بن الهيثم مثلا كان ينسخ الكتب من المكتبات بأجر ، وكان غيره يشتغل بالنسخ أو زراعة الحقول أو أى صنعة من الصناعات لكسب الرزق . وكان هناك علماء آخرون من المسلمين يشتغلون بأجر فى القضاء ، ويدرّسون بأجر فى التعليم . ويمكننا أن نقول حقا : (إن الغرض الأسمى والهدف الأول من العلم والدراسة فى التربية الإسلامية هو التربية الخلقية والروحية) ، والعلم لذات العلم ، والعلم حبا للعلم ، فلم يقصد علماء الإسلام من العلم والتعلم الحصول على وظيفة من الوظائف ، أو منصب من المناصب ، ولم يريدوا الجاه أو القوة والسلطان ، بل أرادوا العلم للعلم ومرضاة الله ، وكرهوا أن يكون الغرض من العلم والدافع إليه ماديا صرفا ، ولم يقصدوا الكسب بعلمهم ، بل كان الكسب يأتى عرضا من غير طلب .

ففى التربية الإسلامية كان العلم يدرس لذاته ، وكان من أسمى أغراض التربية ، ولم تكن الناحية المادية هى الباعث الأول على طلبه، بل كانت ثانوية تأتى عرضا من غير قصد . فاللذة العلمية والناحية الروحية قد تغلبتا على الناحية المادية والنفعية ، وهذا هو الروح المثالى ، والغرض الأسمى فى التربية الإسلامية .

٦ ـ دراسة بعض المواد وسيلة لدراسة غيرها . فقد درس المسلمون اللغة العربية والأدب ؛ لأنهما يساعدان على فهم تفسير القرآن ، والحديث الشريف ، والفقه الإسلامى . وقد وصل علماء الإسلام إلى درجة كبيرة من التعمق والكمال فى العلوم اللغوية ، كالنحو والبلاغة والشعر ، وتركوا فيها آثارا علمية خالدة لا نظير لها فى أية لغة من لغات العالم . مع أنهم كانوا يدرسونها وسيلة لدراسة غيرها .

والخلاصة أن التربية الإسلامية قد عنيت بالدراسات الدينية والخلقية والروحية أولا ، ثم عنيت بالدراسات الثقافية ثانيا . وأهم فـــرق بين التربية الإسلامية والتربية الحديثة أن الأولى كانت مثالية هدفها الأسمى الجانب الروحى والتربية الخلقية الكاملة . فـــلم يقصد المسلمون من العلم والتعلم جاها أو مركزا أو وظيفة أو مالا ، ولكنهم كانوا يدرسون العلم لذات العلم وإرضاء الله ، فألفوا كتبا قيمة ، وتركوا آثارا علمية خالدة إلى اليوم .

أما التربية الحديثة فقد تغلبت فيها الناحية المادية والدنيوية ، فكل فرد فى المدرسة أو الجامعة أو المعهد يريد بعد الانتهاء من الدراسة وظيفة أو عملا أو مركزا ، واشتد الصراع والإقبال على التعليم من أجل الوظيفة والمال، فضعف البحث ، وقل الإنتاج العلمى ، وزالت قداسة العلم وعظمة العلماء .

وفى الوقت الذى عنيت فيه التربية الإسلامية بالقيمة العلمية الروحية لم تهمل العناية بالمواد الثقافية ، والإعداد المهنى ، والتدريب العملى ، والتفكير فى الحياة، عملا بقول الرسول الكريم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

ولا نبالغ إذا قلنا إن العالم اليوم فى حاجة إلى التربية الإسلامية ؛ تلك التربية المثالية

الروحية الخلقية الدينية ، حتى تتعلم لذات العلم ، ولذة العلم ، ونتخلص من الفساد والشر وا... ، والشره والطمع ، والاستعمار والطغيان ، والحروب وويلاتها ، وتتمتع بحياة هادئة ، وحرية تامة ، وعدالة مطلقة ، وسلم دائم ، وعيشة تعاونية (ديمقراطية) ...دة .

المدرس والمنهاج فى نظرنا :

لكى تنجح المدرسة فى عملها يجب أن يفهم المدرس المنهاج ، ويدرك الغرض منه ، ويخلص فى تنفيذه بحكمة وتفكير . ولن يكون للمنهاج فائدة عملية كبيرة إلا إذا نفذ بعقل وحزم ، وجعل حيًّا متصلا بما يحتاج إليه التلاميذ فى حياتهم اليومية . فإذا أساء المدرس استخدامه وأبعده عن الحياة كان حبرا على ورق ، وضاعت الفائدة منه مهما يكن كاملا .

وقد يعرف المدرس منهاج الدراسة ، ولكنه يضل الطريق ، فيترك الأمور الهامة ، ويعنى بالأشياء التافهة ، ويصير آليا فى تدريسه ، ويقضى وقته ونشاطه فى المواد التى يميل إليها أو يجيد معرفتها ، ويهمل مواد أخرى لا تقل عن هذه المواد فى أهميتها .

وهناك مدرسون آخرون يكتفون بالمنهاج ، وبالكتب المقررة . فلا عجب إذا نقصت معلوماتهم ، وقلت أفكارهم ، وصاروا كالآلات فى مهنتهم ، لا يتصلون بجديد ، ولا يفكرون إلا فى المقدار الذى يحتاج إليه التلميذ .

ومن السهل أن يعرف المدرس مقرر سنة ، ويكرره سنة بعد أخرى ، حتى يصير مثلا سيئا للكسل وقلة البحث ، فى وقت يُطلب فيـــه من المدرسين أن يستمروا فى بحثهم ، ويجددوا معلوماتهم ، ويكونوا طلبة علم مدى الحياة . فالعلم لا نهاية له ، وفوق كل ذى علم عليم .

الإسلام يشجع التعليم الفنى والصناعى :

إن الإسلام قد شجع التعليم الفنى والصناعى ، فقد جاء فى الحديث الشريف : « الحرفة أمان من الفقر » و « إن الله يحب المؤمن المحترف » . وقد تعلم نوح صنع السفن ، وأمره

الله بصنعها فى قوله : « وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا(١) وَوَحْيِنَا(٢)، وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ . وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ(٣) . » وقد نجا فى السفينة هو ومن آمن معه .

وكان داود عليه السلام يجيد الحدادة وصناعة لدروع الحربية ؛ قال تعالى: « وَعَلَّمْنَاهُ(٤) صَنْعَةَ لَبُوسٍ(٥) لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ(٦) مِنْ بَأْسِكُمْ(٧) فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ(٨) . » وقد بين الله ذلك فى قوله : « وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ(٩) ، وَقَدِّرْ(١٠) فِى السَّرْدِ(١١) وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١٢) » .

وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم يجيد التجارة . ومن الواجب على المسلمين أن يقدموا على الحرف والصناعات وإجادتها ، حتى يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم . وليس من العار أن يجيد الإنسان صنعة من الصناعات ، أو حرفة من الحرف .

وليس على عبد تقى نقيصة إذا صحح التقوى وإن حاك(١٣) أو حجم(١٤)

فالإسلام يشجع تعلم الحرف ، وتعلم الصناعات ، والعناية بالصناعات الحربية ؛ للمحافظة على كيان الأمة ، وحمايتها من أعدائها ، والدفاع عن نفسها . ومن لم يتذأب أكلته الذئاب ، ذئاب الاستعمار والمستعمرين . وواجب المسلمين اليوم العناية بالصناعة ، والتعليم الصناعى ، حتى يستطيعوا أن يعيشوا فى عالم اليوم ، عالم الأساطيل والطيارات والغواصات والدبابات ، والمقذوفات ، والصواريخ الذرية، والغازات السامة . وفى القرنين العشرين والحادى والعشرين سيكون البقاء للأصلح والأقوى معاً .

---

(١) تحت رعايتنا . (٢) مسترشدا بوحينا . (٣) سورة هود : ٣٧ — ٣٨ .
(٤) وعلمنا داود . (٥) دروع الحرب . (٦) لتحفظكم من شر حروب عدوكم .
(٧) حرب عدوكم . (٨) سورة الأنبياء : ٨٠ . (٩) سابغات : دروع واسعة واقية .
(١٠) قدر فيه : اجعله بقدر يناسب المهمة التى عمل لها . (١١) السرد : صنع الدرع .
(١٢) سورة سبأ : ١٠ — ١١ . (١٣) حاك الثوب : نسجه .
(١٤) الحجامة : أخذ الدم الفاسد .

وبالعلم والصناعة والعمل المتقن يستطيع المسلمون أن يستعيدوا مجدهم السابق، وحضارتهم الإسلامية الصناعية ، قال صلى الله عليه وسلم : « يحب الله العامل إذا عمل عملا أن يتقن . » وعن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم العمل أن يتقنه . » .

الصلة بين العلم والعمل :

هنا نذكر بتصرف قليل أن المرحوم العالم العبقرى الدكتور على مصطفى مشرفة قـــد لخص الصلة بين العلم والعمل فى كتابه « مطالعات علمية » صفحة ٦٦ ، فقال :

إن الغرض من العلم واضح وهو المعرفة . وإن العلم يطلب الحقيقة لذاتها ، ولـكن الحياة العلمية فى كل أمة تصل إلى أبعد من هذا . فقديما قيل : علم بـــلا عمل كشجرة بلا ثمر . والتبحر فى العلم والابتـكار فيه . . . إنما يتاح للأقلية ، أما الأغلبية الساحقة فتطلب العلم وسيلة لا غاية . وليس فى هذا تقليل من شأن العلم ، ولا مساس بمقامه . فالعلم منشأ لذة فـكرية فى ذاته ، وهو أيضاً قوة لحل المشكلات البشرية ، فلذته وقيمته مضاعفتان . والحياة العلمية بيننا يجب أن تشمل هذه الناحية التطبيقية للعلوم . ومن الخطأ أن يقتصر على الناحية (الأكاديمية) . ولا أعدو الحقيقة إذا قلت إن مستقبل مصر فى الجيل القادم وما بعده سيبنى على مقدار نجاحنا فى إنشاء الروابط المتينة الحية بين العلوم البحتة والعلوم التطبيقية ، أو العلم والعمل . ولهذا يجب إنشاء هيئة أو أكثر من هيئة لإيجاد هذه الروابط وتنميتها . فمن ناحية نجد الصناعات فى مصر فى حاجة قصوى إلى الفنيين ؛ لحل مشكلاتها الخاصة . ومن ناحية أخرى نجد الشباب فى مرحلة التعليم العالى يطالب المجتمع بعمل مفيد يؤديه . وقد كنا إلى عهد قريب نستقدم خبراء من الأجانب ، كلما أردنا حل مشكلة من مشكلاتنا الصناعية . فدبغ الجلود فى حاجة إلى خبير أجنبى ، وصناعة الزجاج فى حاجة إلى خبير أجنبى ، والصناعات الأخرى كلها كذلك . وهذا الخبير الأجنبى كيف نشأ ؟ وكيف أعِدَّ ؟ سنجد أنه فى جميع الأحوال قد تعلم تعليما عاليا ، ثم طبق علمه على ناحية من نواحى الصناعة .

ونحن نتواقون إلى إنشاء صناعات متعددة بين ظهرانينا . وفى كل صناعة من هـذه الصناعات مشكلة أو عدة مشاكل تتطلب كلها الحل . والشباب يتعلم العلم ، فالمنطق يقضى بالجمع بين هذين الطرفين (العلم والعمل) .

وقد صدر مرسوم منذ أمد قريب بإنشاء معهد لهذا الغرض . . . ومنذ صدور هـذا المرسوم لم يحدث شيء جدى إلى حد عامى لتحقيق الغرض المنشود منه . والمسألة فى ذاتها ليست معضلة من المعضلات ؛ فهى لا تعدو الجمع بين العلم والصناعة . وفى كل أمة متحضرة نجد إلى جانب البحث العلمى البحت بحثا من نوع آخر يسمى البحث العلمى الصناعى أو التطبيقى . فكل مصنع من المصانع الكبرى به قسم خاص لبحث مشكلات الصناعة التى يزاولها ، وبه معامل وعلماء متخصصون يتفرغون لحل المسائل التى تنشأ فى هذه الصناعة . وإن تقدم العلم أساسه البحث ، وكذلك تقدم الصناعة أساسه البحث .

ومن الخطأ كل الخطأ أن يظن أن فى استطاعتنا الاعتماد على غيرنا فى حل مسائلنا الفنية الصناعية . صحيح أننا نستطيع أن ننقل عن غيرنا الكثير من أصول الفن والصناعة . ولكن المسائل الصناعية التى تنشأ لنا والتى تتطلب الحل لا مفر من الاعتماد فيها على عملنا نحن . فالظروف تتغير من بلد إلى آخر . ونتائج البحث الصناعى ليست كنتائج البحث العلمى ميسورة للجميع ؛ بل إنها تحاط بسياج من التكتم ، فإذا نجحت وصار لهـا قيمة اقتصادية أحيطت بسياج من الحقوق القانونية . وكثير من مشاكلنا الصناعية خاص بنا ، كاستخراج الثروة المعدنية الذى يرتبط (بجيولوجية) أرضنا ، وكصناعاتنا الزراعية التى ترتبط بأنواع محصولاتنا ، وبظروفنا الاقتصادية .

وفى رأيى أنه يمكن البدء فى تحقيق هذا الغرض بدءاً متواضعا ، بتخصيص مبلغ غير كبير من المال للبحث الصناعى . فالشباب بعد أن يتم تعليمه العالى (الأكاديمى) يوجه نحو البحث الصناعى فى معمل خاص ، أو فى معاملنا الحالية ، يرشده فى ذلك أساتذة متخصصون . وإذا نجحت هذه التجربة ، واقتنع أرباب الصناعات فى مصر بفائدة هذه البحوث ، أمكن تخصيص مبالغ أكبر لهذا الغرض . وفى أوروبة (وأمريكا) يخصص أرباب الصناعات

مبالغ ضخمة للبحوث الصناعية ؛ لاقتناعهم بفائدتها ، بل إن بعضهم ليخصص أمواله للبحوث العلمية البحتة ؛ لاقتناعهم بأن تقدم العلوم البحتة هـــو أساس التقدم الصناعى فمثلا نجد (السير الفرديارو) ــ وهو قطب من أقطاب الصناعات فى انجلترا ــ يمنح المجمع البريطانى فى لندن مبلغ مائة ألف جنيه ، ليصرف ريعه فى البحث العلمى البحت . وتقدر الأموال التى يخصصها أرباب الصناعات فى انجلترا وأمريكا للبحث العامى بمئات الملايين من الجنيهات .

تدوين العلوم باللغة العربية :

لابد من الإشارة إلى ناحية أخرى من نواحى حياتنا العلمية ، يجب علينا أن نتعهدها بالعناية فى السنين القادمة ، هى ناحية التأليف العامى . وأقصد بالتأليف العلمى تدوين العلوم باللغة العربية ، بحيث تصبح لغتنا غنية بمؤلفاتها فى مختلف العلوم .

ولا شك فى أننا فى أشد الحاجة إلى كتب عربية ، فى كل فرع من فروع العلم ، فى حين نجد كل لغة من اللغات الحية غنية بكتبها ، ومؤلفاتها العلمية تنفرد اللغة العربية بفقرها المدقع فى المؤلفات العلمية . ولا أظننى أعدو الحقيقة إذا قلت إنه لا يكاد يوجد كتاب واحد فى أى فرع من فروع العلم يمكن عده مرجعا أو حجة . والكتب التى تظهر يكون مستواها عادة منخفضا لا يزيد على مستوى التعليم الثانوى ، أو المرحلة الأولى من التعليم العالى . فإذا لم ننقل العلوم إلى لغتنا ، ولم ندونها بقينا عالة على غيرنا من الأمم ، وبقيت دائرة العلم فى مصر محصورة فى النفر القليل الذين يستطيعون قراءة الكتب الأجنبية العلمية وفهمها . وحالنا اليوم تشبه ما كانت عليه حال العرب المسلمين فى القرنين الثامن والتاسع ، أو ما كان عليه حال أوروبة فى القرون الوسطى . فالعرب تنبهوا إلى ضرورة نقل علوم الإغريق إلى اللغة العربية ، فقام الخلفاء والأمراء بتشجيع العلماء على الانقطاع إلى النقل والتأليف .

ولعل القارئ يذكر المكتبة الكبرى فى أيام الخليفة المأمون التى كانت تعرف بخزانة الحكمة . وإن كثيرين من علماء ذلك العصر كانوا منقطعين إليها ، يشجعهم على ذلك ما تحلى

به المأمون من الرغبة فى العلم ، وتقريب أهله ، وإدنائهم وبسط كنفه لهم ، ومعونته إياهم . وقد كان من نتيجة هذا كله أن صارت اللغة العربية لغة العلم والتأليف . وبقيت محتفظة بسيادتها العلمية على جميع لغات الأرض عدة قرون . ونحن إذا شئنا أن نعيد إلى لغتنا مجدها العلمى فعلينا أن نعنى بتشجيع التأليف والتدوين والنقل . وعلى الدولة ألا تضن بالمال الواجب إنفاقه فى هذا السبيل . ومن الممكن البدء فى هذا العمل فوراً بميزانية سنوية لا تتجاوز بضعة ألوف من الجنيهات . وهو لعمرى مبلغ ضئيل إذا قيس بالنتائج الهامة التى تنجم عن إنفاقه . والطريقة المثلى لذلك هى أن تعهد الدولة للقادرين من العلماء ، فى كل فـــــرع من فروع العلم ، بنقل الكتب العلمية وتأليفها ، وأن تقوم الدولة بطبع هذه الكتب ونشرها . ولا يجوز أن يترك الأمر للمجهود الفردى ، بل لا بد من تضافر العلماء ، وتعاونهم فى هذا السبيل . فكل كتاب ينقل أو يؤلف يجب أن تقوم عليه لجنة تجمع خيرة من تخصصوا بموضوع الكتاب . ولا يخفى ما فى هذا العمل من مشقة ، وماله من ارتباط بتطور اللغة العربية العلمية ومصطلحاتها .

التأليف العلمى :

والتأليف العلمى هو الوسيلة الطبيعية لإيجاد هذه المصطلحات فى لغتنا ؛ فكل لغة حية إنما تنمو عن طريق التأليف والكتابة . واللغة العلمية وليدة التفكير العلمى . والمصطلحات العلمية فى اللغات الأوروبية إنما نشأت بهذه الطريقة ، ونتجت عن نمو العلم والتأليف . ومن العبث أن يقوم مجمع بفرض المصطلحات على المؤلفين فرضا ، وإنما تأتى مهمة المجامع بعد مهمة المؤلفين لا قبلها ؛ فالمجمع اللغوى يجمع ما ورد فى الكتب العلمية من مصطلحات ، ويدونها ويفسرها . ولما كان الأمر مرتبطا ــ كما قدمت ــ بتطور لغتنا ونموها ، فإن من الواجب أن يكون فى كل لجنة من اللجان التى يعهد إليها بالتأليف عضو متمكن من اللغة العربية وأساليبها ؛ حتى تخرج اللغة العربية سليمة، وحتى ترتبط لغة التأليف العلمى بلغة الأدب ارتباطا طبيعيا مثمرا . ولكى يستدل القارىء على مبلغ ما وصلت إليه اللغة العلمية فى العصر

العربي من جمال في الأسلوب ، وسلامة في العبارة ، أشير عليه بالرجوع إلى العبارات التي قطفتها من مقدمة محمد بن موسى الخوارزمي ، لكتابه في الجبر والمقابلة ، فإنه سيجدها قد جمعت بين منطق العلم ، وروعة الأدب .

لهذا أرى أن يختار المؤلفون على قدر الإمكان ممن يحسنون كتابة اللغة العربية . فإذا تعذر ذلك اشترك معهم من يعاونهم في ذلك .

وموضوع التأليف العلمي وارتباطه بحياتنا الفكرية هو جزء من موضوع أوسع وأعم، ألا وهو العلاقة بين حياتنا العلمية الماضية والمستقبلة . وهو موضوع الأسس التي يجب أن نبني عليها صرح مجهودنا العلمي . فالحياة العلمية في كل أمة عنصر هام من عناصر ثقافتها العامة . وكما أن الأمة المتحضرة أيضا تكون لها ثقافة فنية تتمثل فيما أبدعته أيدى رجال الفن فيها في مختلف عصور تطورها من تلك الرموز الملموسة على المشاعر الخفية، تلك الرسالات الملهمة التي تنبعث عن قلب الفرد ، فتصل إلى قلب الأمة ، وربما تعدته إلى قلب الإنسانية ذاتها — أقول كما أن الأمة المتحضرة تكون لها هذه الثقافة الأدبية ، وتلك الثقافة الفنية وغيرها من ثقافة خلقية ودينية وسياسية وما إليها ، كذلك تكون للأمة المتحضرة ثقافة علمية ترتبط بتاريخ التفكير العلمي فيها ، وتحتوى ما احتكرته عقول أبنائها من الآراء والنظريات العلمية ، وما وصلت إليه من الكشوف في جميع ميادين البحث العلمي . وما نقلته وهذبته واستساغته من آراء غيرها مما دخل في صلب المعرفة البشرية على مرّ العصور والأجيال ، وحياتنا العلمية في حاجة إلى أن تتصل بماضينا ، فتكسب بذلك قوة وحياة وإلهاما . ونحن في مصر اليوم ننقل المعرفة عن غيرنا، ثم نتركها عائمة لا تمت بصلة إلى ماضينا ، ولا تتصل بتربتنا ، فهي بضاعة أجنبية عليها مسحة الغرابة ؛ غرابة في اللفظ ، وغرابة في المعنى ، إذا ذكرت النظريات قرنت بأسماء أعجمية لا يكاد المرء منا يتبين معالمها . وإذا عبر عن المعاني فبألفاظ مخيفة يفر منها الفكر ويرتبك أمامها الخيال .

نشر الكتب العلمية التي وضعها العرب :

ومن الواجب أن نعمل على تغيير هذا الحال .

فأولاً : يجب أن ننشر الكتب العلمية التى وضعها العرب ، ونقل عنها الإفرنج ، ككتب الخوارزمى وأبى كامل فى الجبر والحساب ، وكتب ابن الهيثم فى الطبيعة ، وكتب البوزجانى والبيرونى والبتانى ، وغيرهم كثير من قادة التفكير العلمى وعظماء الباحثين المدققين (من علماء الإسلام) .

هذه الكتب موجودة الآن ، ولكن أين ؟ إنها محفوظة فى مكتبات ومتاحف فى مشارق الأرض ومغاربها ، يعرف عنها الإفرنج أكثر مما نعرف، ويقومون بترجمتها وشرحها والتعليق عليها ، وينشرون هذا كله بلغات أجنبية فى مجلاتهم العلمية . وما أجدرنا بأن نكون نحن القائمين على ذلك .

وثانيا : يجب علينا أن نعنى بتمجيد السلف من علمائنا وباحثينا ، فيكون لنا فى ذلك حافز للاقتداء بهم ، وتتبع خطاهم . وقد بذلت بعض الجهود فى هذا السبيل فى السنين الأخيرة ، فأقيم حفل لتخليد ذكرى ابن الهيثم ، ونشر كتاب الخوارزمى فى الجبر والمقابلة . وعلينا فى السنين الآتية أن نزيد فى هذه الحركة ، وأن ننظمها . فالتأليف العلمى ، وإحياء كتب العرب ، وتمجيد علمائهم أمور ثلاثة يجب أن تدرج فى جدول أعمال حياتنا الفكرية فى المستقبل القريب[١] .

هذا ما ذكره المرحوم العالم الخالد الذكر الدكتور على مصطفى مشرفة عن العلم والعمل ، والعلم والصناعة ، وتدوين العلوم باللغة العربية ، والتأليف العلمى ، ونشر الكتب العلمية التى وضعها العرب فى مقاله الثمين .

---

(١) ارجع إلى كتاب : مطالعات علمية ، تأليف المرحوم العالم الدكتور على مصطفى مشرفة ، الطبعة الأولى سنة ١٩٤٣ م .

التربية العسكرية فى الإسلام :

إن الإسلام قد نادى بالدفاع عن النفس والعرض والشرف ، قال جل شأنه : « فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ (١) » . كما حث على الاستعداد لمواجهة الأعداء، وصدهم إذا بدءوا بالاعتداء ، فى قوله عز وجل: « وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ (٢) » .

أى وأعدوا لقتال الأعداء ما استطعتم من قوة فى الرجال والعتاد والفرسان ، وإعداد الخيل للجهاد ، لتخويف أعداء الله وأعدائكم وإرهابهم ، والانتصار عليهم .

ويتطلب الإعداد أن تكون هناك تربية عسكرية، وتعلم للفروسية، بحيث يتعلم كل شاب إصابة الأهداف ، واستعمال الأسلحة ، وإجادة الرمى ، وتعوّد حياة التقشف ، والمعيشة فى الصحراء ، والجبال ، والكهوف ، حتى يستعد المجاهد لكل حياة ، يستعد لقسوة الجو ، والحرارة والبرودة ، والجوع والعطش .

قال صلى الله عليه وسلم : « ارموا بنى إسماعيل ؛ فإن أباكم كان راميا » .

وقال : « ألا إن القوةَ الرمىُ ، ألا إن القوة الرمى . » .

فتربية الجنود على إصابة الأهداف تربية عسكرية ، والقوة فى الرمى خير مثل لتلك التربية .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٤   (٢) سورة الأنفال : ٦٠ .

الفصل السادس عشر

القواعد الأساسية فى التربية الإسلامية

سنوضح الآن القواعد الأساسية للتدريس للأطفال فى التربية الإسلامية بأقوال بعض العلماء من المسلمين كالغزالى وابن سينا والزرنوجى والعبدرى وابن خلدون :

١ ـ عدم تحديد السن لبدء التعليم :

لم تحدد سن لبدء تعليم الأطفال ؛ فكان بعض الآباء يرسلون أولادهم للتعلم آونة فى الخامسة من عمرهم ، وأحيانا فى السادسة أو السابعة ، ولم تلزمهم الحكومة بإرسالهم فى سن معينة ؛ فقد كان طلب العلم فى الإسلام فرضا على كل مسلم ومسلمة . وقد ترك للآباء اختيار الوقت المناسب لإرسال أولادهم إلى الكتاتيب أو غيرها للتعلم .

وقد انتقد العبدرى فى كتابه مدخل الشرع الشريف[١] ـ الآباء الذين يرسلون أبناءهم إلى الكتاتيب قبل السنة السابعة من العمر ، قائلا : إن السلف الصالح كانوا يرسلون أبناءهم إلى الكتاب فى سن السابعة، وهى السن التى يكلف فيهاأولياء الأمور تعليم الأولاد الصلاة ، والفضائل من الأخلاق . ولكن الأطفال يذهبون الآن للتعلم فى سن مبكرة . فليحذر المدرس من تعليمهم القراءة فى سن مبكرة ؛ لأن تعليمهم المبكر فى الرابعة أو الخامسة يرهقهم جسميا وعقليا . والواقع أن الآباء يرسلون أطفالهم إلى المدارس والكتاتيب مبكرين ، لا يقصدون تعليمهم القراءة والكتابة ، ولكنهم يريدون التخلص من متاعبهم بإبعادهم عن الدار أو البيت .

وإن التربية الحديثة اليوم تؤيد ما رآه العبدرى من علماء الإسلام قديما فى نقد التبكير فى إرسال الأطفال إلى المدرسة فى سن الرابعة أو الخامسة . وإذا أرسلوا فى تلك السن فإنهم يرسلون إلى رياض الأطفال ليلعبوا ويتعلموا بطريقة اللعب فى التربية .

---

(١) جـ ٢ ص ١٦٣ .

٢ — عدم تحديد المدة التي يمكثها الطفل في الكتاب :

لم تكن هناك مدة محدودة يمكثها الطفل للتعلم في الكتاب ؛ فقد كان الطفل يرسل إلى المكتب فيتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، ثم يأخذ في حفظ السور القصيرة من القرآن ، فيحفظ جزء عم ، ثم جزء تبارك بالترتيب ، ثم يستمر في حفظه حتى يحفظ بعضه أو كله . وقد يستمر الصبي في الكتّاب إلى سن المراهقة . ويتعلم دروس الدين وبعض الأحاديث ، ويدرس في الوقت نفسه الحساب والنحو والشعر .

٣ ـ التفرقة في الطريقة التي تتبع في التعليم ، فطريقة التدريس للأطفال تختلف عن الطريقة التي تتبع في التدريس للكبار . وقد نادى الغزالي بذلك المبدأ لأن هناك فرقا بين إدراك الصغار وإدراك الكبار وقال : إن من أول واجبات المربي أن يعلم الطفل ما يسهل عليه فهمه ؛ لأن الموضوعات الصعبة تؤدي إلى ارتباكه العقلي وتنفره من العلم . ويعد هذا الرأي من أهم الآراء في التربية الحديثة في القرن العشرين .

ويشاركه العلامة ابن خلدون في هذا المبدأ ؛ فهو يرى أيضاً مراعاة إدراك الطفل ومستواه عند التدريس له حيث يقول : « وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا ـ يجهلون طرق التعليم وإفادته ، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ، ويطالبون ذهنه بحلها ، ويحسبون ذلك مرانة على التعليم وصوابا فيه . . . فإن قبول العلم والاستعداد له ينشأ تدريجيا ، فيكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة ، إلا الأقل ، أو على سبيل التقريب والإجمال بالأمثلة الحسية ، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه ، والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم التحصيل » .

فالغزالي وابن خلدون وغيرهما يرون أن تفكير الطفل يخالف تفكير الرجل ، ويجب مراعاة ذلك في طريقة التدريس .

٤ — ألا يخلط المعلم علمين معا :

لكي يضمن تيسير عمـــل المدرس يرى ابن خلدون « ألا يخلط المعلم علمين معا ، فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما ؛ لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر . . . ومعنى هذا أنه يجب أن يكون المدرس مدرس مادة يتخصص فيها حتى يجيدها .

٥ — العناية بالأمثلة المحسة لتقريب المعنى إلى أذهان الأطفال ، وهو ما يقصده علماء التربية من مناداتهم بالانتقال من الأمور المحسة إلى المعقولة ، حتى يسهل على المتعلمين الفهم والإدراك .

٦ — مراعاة ميول الأطفال لبعض المواد الدراسية حتى يسهل عليهم فهمها . وقد بين ابن خلدون أن مطالبة الأطفال بدراسة المسائل الصعبة التي فوق مداركهم تؤدي إلى إجهادهم إجهاداً عقليا ، وإلى كراهيتهم الدائمة للعلم والتعلم ، ونادى بأن تــكون المـــادة مناسبة في سهولتها وصعوبتها لإدراك الطفل . وانتقد من كانوا يقولون بتقديم المواد الصعبة للطفل ظانين أن ذلك يساعد في تقوية تفـكيره . وهـــذا ما يريده علماء التربية اليوم من قولهم : « الانتقال من السهل إلى الصعب » .

فابن خلدون يتفق مع فلاسفة التربية الحديثة الذين يطالبون بمراعاة ميول الطفل وجعلها أساسا لتعليمه ، وينادون بأن نجاح الطفل في أي عمل يساعده على النجاح في غـــيره من الأعمال ؛ لأن النجاح يؤدي إلى النجاح ، وأن ما يساعده على النجاح . . . يشبع مالديه من ميل فطري إلى حب التقدم والسيطرة .

فإذا كانت الدروس صعبة ، والمواد فوق مستواه ، صعب على الطفل فهمها ، وضاعت ثقته بنفسه ؛ لأنه لم يجد الغذاء العقلي المناسب لنموه وتقدمه .

ولا يمكننا هنا أن ننسى ما أظهره ابن خلدون من الآراء النفسية الثمينة ، والملاحظات الدقيقة الخاصة بمراحل النمو ، وهي لا تختلف مطلقا عن آراء علماء النفس في عصرنا الحاضر ؛ فقد بين ما تمتاز به مرحلة الطفولة من الطاعة والهدوء والاستقرار . ولهذا عنيت التربية الإسلامية

فى هذه المرحلة بالحفظ والاستظهار ، والإعادة والتكرار ، والانتفاع بما لدى الطفل من استعدادات، ووضح ما تمتاز بهمرحلة البلوغ والمراهقة من الميل الشديد إلى الحرية والاستقلال فى العمل ، وكره القيود والعبودية .

٧ ــ البدء بتعلم اللغة العربية ثم دراسة القرآن الكريم:

حينما اختلط العرب بغيرهم من المسلمين فسدت اللغة العربية ، وكثر الخطأ واللحن . ولهذا نادى القاضى أبو بكر بن العربى بالبدء بتعليم اللغة العربية وتقديمها على غيرها من المواد، ثم الانتقال إلى دراسة القرآن الكريم؛ لأن دراسته تسهل بعد معرفة اللغة العربية. وقد وافقه ابن خلدون على هذا الرأى قائلا : أما أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول عهده بالتعليم فيقرأ مالا يفهم فأمر يدل على الغفلة[1] .

فابن خلدون يرى مراعاة إدراك الطفل وفهمه ، ويطالبه بقراءة ما يستطيع أن يفهم وتعلم ما يمكنه أن يدركه . ويعترف ابن خلدون بصواب طريقة أبى بكر بن العربى ، ولكنه لا ينصح باتباعها ؛ لأن « العادات لا تساعد عليها » . فقد كان المسلمون يبكرون بدراسة القرآن الكريم وحفظه ، ويزودون الطفل بكل ما يستطيع أن يحفظه فى الصغر من القرآن للتبرك به ؛ خوفا من أن يحدث له شىء فى شبابه يقطعه عن العلم فيفوته القرآن . ولهذا كانوا ينتهزون الفرصة فى الطفولة ، ويكلفونه البدء بحفظ القرآن خوفا من أن يذهب وهو خال منه .

فهذه الرغبة فى التبرك بالقرآن الكريم ، وشدة التعلق به ، والخوف من ضياع الفرصة فى حفظه فى الطفولة تغلبت على مبدأ فى التربية نادى به ابن خلدون وهو : تعليم الطفل ما يستطيع فهمه ، ويناسب إدراكه ، ويشبع ميوله ورغباته وحاجاته .

٨ ــ مراعاة استعدادات الصبى الفطرية وغرائزه الطبعية فى إرشاده إلى المهنة .

لقد طالب علماء التربية الإسلامية وخاصة ابن سينا بمراعاة ميول المتعلم واستعداداته الفطرية، وقدراته الطبيعية عند إرشاده إلى المهنة التى يختارها فى مستقبل حياته لخدمة بلاده.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٤ .

وقد نادى ابن سينا بالعناية بدراسة ميول الصبي ، وجعلها أساسا لإرشاده وتربيته حيث قال :

« ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية ، ولـكن ماشا كل طبعه وناسبه . وإنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة ما كان أحد غفلا من الأدب وعاريا من صناعة . وإذن لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب ، وأرفع الصناعات . وربما نافر طباع الإنسان جميع الآداب والصناعات فلم يعلق منها بشيء . . . ولذلك ينبغى لمدبر الصبي إذا رام اختيار صناعة أن يزن أولًا طبع الصبي ، ويسبر قريحته ، ويختبر ذكاءه ، فيختار له الصناعات بحسب ذلك » .

وهى نصيحة ثمينة لابن سينا ينصح فيها المربين من الآباء والمعلمين الذين يرومون اختيار صناعة من الصناعات لصبي من الصبيان أن يزنوا طبع الصبي أو ميله ، ويعرفوه ويختبروا قريحته وعقله وذكاءه ، حتى يختاروا له من الصناعات ما يناسب ميله وعقله . وهذا رأى من أثمن الآراء فى التربية الإسلامية يتفق مع أحدث الاتجاهات فى التربية الحديثة . فهو يرى أن من الواجب البحث عما يناسب ميول الصبي وطباعه وغرائزه ، ومراعاتها فى اختيار ما يرغب التخصص به فى المستقبل ، فإذا كان يميل إلى الدراسة الدينية وجه إليها ، وإذا رغب فى الناحية العملية شجع عليها ، وإذا أحب الدراسة العقلية أو العلمية أرشد إليها ، وأعطى الفرصة فى دراسة ما يريد . وهذا ما ننادى به اليوم فى عالم التربية .

فمن كان يميل بطبيعته إلى الأدب والدراسة الأدبية لا يستطيع أن يكون فائقا فى البحوث العلمية . ومن كان يميل إلى العلوم الرياضية لا يمكنه أن يتفوق فى الآداب . وليس من السهل أن يظهر المتعلم التفوق والنبوغ والمهارة فى كل مادة يدرسها ، ولـكنه يستطيع أن يتفوق وينبغ ويكون ماهرا فى المواد التى يحبها ويميل إلى دراستها . أما المواد التى يكرهها وينفر منها فمن المحال أن يتفوق فيها . فـكل متعلم ميسر لما خلق له .

وهذا مايريه ابن سينا بقوله :

« وربما نافر طباع الإنسان جميع الآداب والصناعات فلم يعلق منها بشيء » . ولو كان

من السهل أن يحقق المتعلم كل ما ينبغى لـكان أديبا أو عالما أو رياضيا أو طبيبا كما أراد ، ولـكن ميول الشخص وذكاءه وعقليته هى التى تتحكم فى فــوزه أو خيبته وتؤثر فى نجاحه أو إخفاقه .

وقد عنى عبد الرحمن بن الجوزى « المتوفى سنة ٥٩٧ هـ » كل العناية بتوضيح أهمية الاستعدادات الفطرية التى لدى الصبى ومراعاتها فى التدريس حيث قال :

« إن الرياضة لا تصلح إلا فى نجيب ، والـكودن[١] لا تنفعه الرياضة . والسبع وإن ربى صغيرا لا يترك الافتراس » .

ومعنى هذا أن للذكاء والغباوة أثرا كبيرا فى نجاح المتعلم أو إخفاقه فى الناحية العلمية ، وأن النجيب الذكى يصلح للرياضة ، ويستطيع أن يدرسها ويتفــوق فى دراستها ، وأن الـكودن ــ وهو البليد الغبى ــ لا تنفعه الرياضة ، ولا يمكنه أن ينجح فى المواد التى تحتاج إلى نجابة وذكاء ، ولا يستطيع أن يتفوق فيها . والسبع مفترس بفطرته، ولن تحوله التربية من حيوان مفترس إلى حيوان أليف هادئ وديع لا يضرب أحــدا ؛ لأن الطبع يغلب التطبع . قال الشاعر العربى :

إذا ما المرء لم يولد لبيبا   فليس بنافع قدم الولادة

وهو يريد بهذا أن الإنسان إذا لم يولد ذكيا فإن قدم الولادة أى كبر السن لن ينفعه ولن يؤثر فيه . وإذا رزق أحد الأغنياء والأثرياء طفلا فى منتهى الغباوة فلن يستطيع بغناه وثروته وعنايته بتربيته وإحضاره أحسن المربين له أن يحــوله من غبى إلى ذكى أو فائق الذكاء[٢] . فالذكاء وراثى وهو هبة فطرية من الله ، بها يستطيع الإنسان أن يحل ما يعترضه من المشكلات فى الحياة . وإن النسبة الذكائية للشخص الواحد محدودة لا تزيد ولا تنقص بالتربية ؛ فالذكى ذكى بفطرته ، والغبى غبى بطبيعته . فالذكى وهو طفل ذكى وهــو رجل ، والغبى فى طفولته غبى فى رجولته .

(١) الـكودن : الفرس الهجين والفيل والبغل والبرذون .

(٢) اقرأ الاختبارات العقلية ومقاييس الذكاء ، الفصل الأول من الجزء الثانى من كتاب (علم النفس التربوى) للمؤلف وشريكه .

وقد أوصى الزرنوجى فى كتابه : « تعليم المتعلم » ألا يختار الطالب وحده المادة التى يريد أن يتخصص بدراستها ، بل يشترك معه المدرس بما أوتى من خبرة وتجربة فى اختيار ما يلائمه من العلوم . وليس لدينا ما يمنع من أن يختار الطالب المواد التى يميل إليها ، مسترشدا برأى أستاذه فى الاختيار ، بشرط ألا تهمل ميول الطالب من الناحية العلمية .

هذه الآراء كلها ثمينة تدل على عظمة فلاسفة الإسلام ، وما كان لديهم من أفكار ناضجة فى تربية الطفل ونفسيته ، والوراثة والاستعدادات الفطرية والميول الطبعية ، فى وقت كانت العقول فيه مغلقة ، والآراء فجة فى أوروبة .

٩ — اللعب والترويح عن النفس :

لقد أحس علماء التربية الإسلامية بأن الطفل فى حاجة إلى اللعب والترويح عن النفس بعد الانتهاء من دروسه . فحجرة الدراسة كان يسودها الهدوء والإصغاء للدرس والسكون ، ومحاولة التعلم ، فكان الطفل يشعر بالملل والتعب ، والحاجة إلى الراحة والحركة والترويح عن النفس . لهذا كانوا يسمحون للطفل خارج حجرة الدراسة بالكلام والحركة والنشاط والمرح واللعب ، ليروح عن نفسه ، ويزيل ما يحس به من السآمة والملل أو التعب . ويعد اللعب والترويح عن النفس فى التربية الإسلامية هاما ومفيدا للطفل من النواحى العقلية والجسمية والخلقية . ولا عجب ؛ فقد نصح الغزالى أن يسمح للطفل باللعب اليسير لا باللعب الشاق بعد الانتهاء من دروسه لتجديد نشاطه ، بشرط ألا يتعب نفسه . فإن منع الصبى من اللعب وإرهاقه بالتعلم دائما يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش[١] .

وقد نادى العبدرى بضرورة اللعب والترويح عن النفس للطفل بعد ساعات الدرس . ولهذا نجد فى جميع المعاهد الإسلامية عطلة كل أسبوع من ظهر يوم الخميس إلى نهاية يوم الجمعة ،

(١) جـ ٣ ص ١٦٣

وعطلة في الإجازة الصيفية ، وعيد الفطر ، وعيد الأضحى ، والمناسبات الدينية الإسلامية كأول السنة الهجرية ، ومولد النبي .

وقال الغزالي : « وينبغي أن يؤذن له (للصبي) بعد الانصراف من الكتّاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المكتب ، بحيث لا يتعب في اللعب . فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه بالتعلم دائما يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا . . » وهذا كله يطابق ما تطلبه التربية الحديثة اليوم .

١٠ — تربية الحواس :

إن التربية الحديثة اليوم تنادى بالانتفاع بحواس الطفل وتدريبها وتربيتها ، والعناية بتهذيبها ؛ لأن تربية الحواس تربية للعقل ، وهي كما يقول علماء النفس اليوم — أبواب المعرفة والعقل . فالأفكار نتيجة للحواس . والحواس أمهات الأفكار . وإن الغرض من تربيتها الوصول إلى المعرفة والحكم السديد ، وقوة الشعور والإدراك والملاحظة . وهذا معنى قول (جان جاك روسو[١]) في كتابه إميل : « إن أرجلنا وأيدينا وأعيننا هي المعلم الأول لنا في الفلسفة » .

وقد وضح الله جل شأنه أثر الحواس في تربية الإنسان وتعليمه في قوله عز وجل : «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[٢] » .

وكأنه يقول لنا لقد خرجتم إلى هذا العالم لا تعلمون شيئاً لجهلكم ، ولكني جعلت لديكم استعدادا للتعلم ، ومنحتكم أبواب المعرفة وهي الحواس ، فالسمع تتلقون به العلم عن العلماء ، والبصر تشاهدون به الأشياء وتميزونها ، وجعلت لكم القلب الذي تشعرون به ،

---

(١) جان جاك روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨ م .) مؤسس التربية الحديثة . ارجع إلى كتاب : (أصول التربية المثالية في إميل لروسو) للمؤلف بدار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ، طبعة ١٩٦٧ م .

(٢) سورة النحل : ٧٨

والعقل الذى تفكرون به . وقد ندد الله بمن يهمل استعمال هذه الحواس ، أو يستعملها فى غير موضعها حيث قال: « لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ[١] » .

فالذين لا ينتفعون بما منحهم الله من عقول لا يفهمون بها ، وقلوب لا يشعرون بها ، وعيون لا يبصرون بها ، وآذان لا يسمعون بها ـ أولئك كالأنعام ، بل هم أشد ضلالا وخطأ ؛ لأن الأنعام (الإبل) تنقاد لصاحبها ، وتعرف من يحسن إليها . أولئك هم الغافلون الذين لا يتدبرون ولا يفكرون .

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٩ .

الفصل السابع عشر

الطرق العامة فى التدريس

طريقة دراسة القرآن الكريم :

كان الأطفال قبل تعلم القراءة والكتابة يحفظون سورا قصيرة من القرآن الكريم بطريقة التلقين ، بأن يلقنهم سيدنا فى الكتاب بعض السور الصغيرة فيقرؤها أمامهم ، ويكررونها معه عدة مرات حتى يحفظوها عن ظهر قلب. وكان سيدنا يستعين بالعريف وكبار التلاميذ فى تعليم المبتدئين من الأطفال . ويؤخذ على هذه الطريقة عدم الاهتمام بشرح معانى السور التى تحفظ ، فالأطفال كانوا يحفظون بطريقة التكرار من غير فهم للمعنى ، للتبرك بالقرآن الكريم ، وبث الروح الدينى . . روح الصلاح والتقوى فى نفوس النشء من الصغر ، ولاعتقاد المعلمين أن مرحلة الطفولة خير وقت للحفظ الآلى والتذكر . يقول الشاعر العربى :

أرانى أنسى ما تعلمت فى الكبر ولست بناس ما تعلمت فى الصغر

وفى هذا القول نظر ؛ فقد ثبت فى علم النفس التجريبى أن الإنسان ينسى تسعين فى المائة مما تعلمه أو درسه ، إذا تركه أسبوعين بدون إعادة أو مراجعة ، سواء أكان صغيراً أم كبيرا . فحياة العلم مذاكرته .

والقرآن الكريم أثمن ذخيرة فى نظرنا نحن المسلمين ، يجب تذكرها والاحتفاظ بها دائما . والنقد الذى يوجه إلى هذه الطريقة فى التربية الحديثة ـ الحفظ من غير فهم للمعنى ، فالتربية اليوم تتطلب تفهيم المعنى . هـذا من قول ابن قتيبة الدينورى فى كتاب عيون الأخبار :

«أول العلم الصمت، والثانى الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العقل، والخامس النشر».

ولقلة من كان يعرف الكتابة فى العصر الإسلامى الأول كان المسلمون يعتمدون

على ذاكرتهم أكثر من اعتمادهم على الكتابة . ولهـــذا عنى الأدباء والشعراء من المسلمين بحفظ ما يسمعون من الأدب والشعر . وقد عرف العرب بالحفظ وقـــوة الذاكرة للمرانة المستمرة ، والتعود على الحفظ . وكانوا يذكرون :

ليس بعلم ما حوى القمطر ما العلم إلا ما حواه الصدر

ويقولون :

إذا لم تكن حافظا واعيا فجمعك للكتب لا ينفع
أأحضر بالجهل فى مجلسى وعلمى فى الكتب مستودع

ويقولون :

استودع العلم قرطاسا فضيعه وبئس مستودع العلم القراطيس

فالعرب قبل الإسلام قد اعتادوا الحفظ قبل فهم المعنى ، ويبدو هذا من قول ابن قتيبة الدينورى فى كتاب « عيون الأخبار » : « أول العلم الصمت . والثانى الاستماع . والثالث الحفظ . والرابع العقل . والخامس النشر » .

وهناك من علماء الإسلام من رأى فهم القطعة قبل حفظها . والبدء بإدراكها تمـــام الإدراك قبل استظهارها ، كابن المبارك حيث قال : «أول العلم النية ، ثم الاستماع، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر » .

وإننا نحبذ رأى ابن المبارك فى أن يبدأ الطفل التعلم بالاستعداد له ، والإصغاء إلى الدرس ، والانتباه له حتى يفهمه ، ثم حفظه عن ظهر قلب ، ثم العمل بالعلم ، ثم نشر ما تعلمه .

وقد نقد ابن خلدون فى مقدمته طريقة حفظ القرآن قبل تفهيم التلاميذ ما يحفظونه منه . ولإجادة التدريس جعل مدرس خاص لتحفيظ القرآن الكريم ، وآخر لتعليم الأطفال القراءة والكتابة والخط . وقد عنى المسلمون عناية كبيرة بالخط . وأتقنوه إتقانا تاما ، وعدوه فنا من الفنون الجميلة . ولكى لا تكون الآيات القرآنية معرضة للمحو من الألواح كانوا يفضلون اختيار بعض الحكم والأبيات الشعرية فى تعليم الخط والقراءة والكتابة .

تدريس الشعر للأطفال :

لفلاسفة الإسلام طريقة خاصة فى تدريس الشعر ؛ فقد كان المدرسون يختارون للأطفال الأشعار السهلة فى العبارة واللغة ، القصيرة الأبيات ، الخفيفة فى الوزن ، كى يسهل عليهم حفظها وفهمها . وكانوا يراعون فى اختيارها ما قيل فى مدح الأخلاق النبيلة ، وذم الرديئة ، كمدح الكرم ، وذم البخل ، والحث على حب الوالدين وإطاعتهما . وفى هـــذا المعنى قال ابن سينا : « وينبغى أن يروى الصبى الرجز (١) ، ثم القصيدة ؛ فإن رواية الرجز أسهل وحفظه أمكن ؛ لأن بيوته أقصر ، ووزنه أخف . ويبدأ من الشعر بما قيل فى فضل الأدب ، ومدح العلم ، وذم الجهل ، وعيب السخف ، وما حث فيه على بر الوالدين ، واصطناع المعروف ، وقرى الضيف ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق (٢) . وقد حذروا من تعليم الأطفال أشعار الغزل والغناء » .

فدراسة الشعر كانت دراسة مباشرة للأخلاق ، وسبيلا من سبل بث الأخلاق الكريمة . وقد فكر علماء الإسلام فى أثر الأوزان الشعرية فى نفوس الأطفال ، وغرس الأخلاق الحسنة بتلك الدراسة . وفى حفظهم للشعر الخلقى السهل العذب كانوا يربون الأطفال تربية جمالية ، ويبثون فى نفوسهم الذوق الفنى الجميل ، ويشبعون ميولهم الغرزية للناحية الموسيقية بالشعر الموسيقى ، وإن لم يذكروا ذلك فى كتاباتهم . ولا يمكننا أن ننكر أنهم لم يراعوا فى اختيارهم ما يميل إليه الأطفال من شعر حول الحيوان والأزهار والقصص .

التدريس فى المراحل العالية

١ — الالتحاق بالمعاهد العليا بدون قيود أو شروط :

تبدأ مرحلة التعليم العالى فى التربية الإسلامية بعد سن البلوغ . وقد يدرسها الطالب فى خمس سنوات ، وقد يستمر فى دراسته العالية أكثر من عشر سنوات . ولم يكن الالتحاق بالمعاهد العليا مقيدا بشروط خاصة ، بل كانت المعاهد ميسرة لكل راغب فى التعلم ، متعطش

(١) الرجز : ضرب من الشعر أبياته قصيرة ، وأوزانه خفيفة . (٢) كتاب السياسة لابن سينا ص ١٣

للعلم ، قادر على الدراسة ، فيدرس ما يشاء من العلوم ، ويختار من يريد من العلماء ، ويظل منتظما فى حلقات العلم ، مستمرا فى تلقيه ما دام لديه رغبة فى العلم ، وميل للبحث . وقد يتلقى الطالب العلم عن شيخه فى داره أو فى أى مكان . وكان المسلمون يقصدون المسجد للعبادة أو للدراسة ، فى حين أن المدرسة كان يؤمها المتعطشون للعلم الراغبون فيه ، وهذا كله يدل على روح الحرية (والديمقراطية) فى التربية الإسلامية .

٢ — الرحيل فى سبيل طلب العلم :

وفى المرحلة العالية كانت التربية الإسلامية تمتاز بالرحلات فى طلب العلم . والمقصود بالرحلة أن ينتقل الطالب من بلدة إلى أخرى لتلقى العلم مباشرة عن أستاذ كبير فى مادة من المواد . وقد تستغرق الرحلة أحيانا عدة سنوات ، يتنقل فيها الطالب فى المدن الإسلامية المختلفة يقابل فيها مشهورى العلماء ، ويأخذ العلم من منابعه الأولى . وقد يسافر الطالب إلى أقصى بلد إسلامى لطلب العلم على أحد الشيوخ . ولم يعبأ الطلاب ببعد المسافة أو مشقة السفر ، والرحلة فى سبيل تلقى العلم .

وكثيرا ما كان طلبة طبرستان وبخارى يطلبون العلم فى مصر ، وطلبة الأندلس يتلقون العلم فى أصفهان . وكان العلماء من المسلمين يعاملون معاملة أبناء أمة واحدة هى الأمة الإسلامية ، مهما اختلفت بلدانهم الأصلية . وكان للرحلات أثر عظيم فى النهوض بالكبار من المتعلمين ، وفى تربيتهم من النواحى العلمية والعملية والعقلية والاجتماعية والدينية والثقافية .

ويحكى عن ابن الأعرابى — وقد كان لغويا مشهورا بالكوفة فى القرن الثانى من الهجرة — أنه رأى فى مجلسه يوما رجلين يتحادثان فقال لأحدهما : من أين أنت ؟

فأجاب : من أسبيجاب (وهى مدينة قريبة من الصين فى أقصى بلاد الشرق) .

وقال للآخر : من أين أنت ؟

فأجاب من الأندلس .

فعجب لذلك .

وقد شرح ابن خلدون الأسباب فى شدة عناية المسلمين بالرحلات حيث قال :

« والسبب فى ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة، وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات بالمباشرة والتلقين أشد استحكاما، وأقوى رسوخا. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. فالرحيل كان لتلقى العلم عن العلماء، ومحاكاتهم فى علومهم وأخلاقهم ومعرفة مذاهبهم ».

ويرى الحاجى خليفة فى كتابه : (كشف الظنون) ما رآه ابن خلدون فى الرحلات العلمية، ويزيد على قوله : إن لقاء أهـــل العلوم وتعدد المشايخ يفيد الطالب فى معرفة الاصطلاحات وتمييزها بما يراه من اختلاف طرقهم.

والحق أن الغرض من الرحلة كان فى الأصل جمـــع الأحاديث النبوية، حينما أحس المسلمون بوجوب تدوين الأحاديث وتمحيصها؛ لأنها هامة جـــدا من الناحية الدينية، ومصدر من مصادر الدين، فرحل العلماء إلى جميع جهات الأمة الإسلامية العظيمة فى القرن الثانى من الهجرة، للاتصال بالعلماء والرواة الذين كانت لهم صلة بمن عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عاصروا الصحابة. فقد ذكر عن ابن شهاب عن ابن عباس أنه قال :

« كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، فــلو أشاء أن أرسل إليه حتى يجيئنى فيحدثنى فعلت، ولكنى كنت أذهب إليه، فأقيل على بابه حتى يخرج إلىّ فيحدثنى[1] ».

وقال يحى بن سعيد : إنى كنت أسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد.

ثم استمرت الرحلات فى سبيل طلب العلم حتى صارت من دعائم التربية الإسلامية. وقـــد استفاد الطلبة من السفر وزيارة البلاد المختلفة والاتصال بالأئمة والعلماء والأدباء والفضلاء . . . كثيرا من التجارب العلمية المفيدة، والآراء العلمية الثمينة.

(١) ارجع إلى جامع بيان العلم وفضله للنمرى القرطبى ج ١ ص ٩٤.

٣ ـــ حرية الطلاب والأساتذة :

لم يكن فى المعاهد الإسلامية فصول لكل فرقة من الفرق الدراسية ، ولا نقل من فرقة إلى أخرى أو من صف إلى صف . وكان الطلاب أحرارا فى حضور دروسهم ، واختيار أساتذتهم . وكان الأساتذة أحرارا فى تحديد عدد المحاضرات التى يلقونها كل أسبوع ، واختيار الأوقات التى يريدونها بعد صلاة الفجر ، أو عند شروق الشمس ، أو بعد صلاة الظهر ، أو بعد صلاة العصر ، أو بين المغرب والعشاء . وكان بعضهم يلقى محاضرة كل يوم ، وبعضهم يلقى محاضرة كل أسبوع . وحينما تبدأ الصلاة تتوقف المحاضرات حتى ينتهى المصلون من الطلاب والأساتذة من صلاتهم . وبعد الانتهاء من الصلاة تبدأ المحاضرات فى حلقات : ولكل حلقة أستاذ خاص يقوم بالتدريس للطلبة الذين يحضرون فيها .

٤ ـ تنوع أساليب التدريس وطرقه فى المعاهد العالية :

كانت أساليب التدريس فى المعاهد الإسلامية العالية متنوعة وطرقه متعددة . ولم يقتصر الأساتذة على طريقة خاصة فى تدريسهم ، فأحيانا كان العالم من العلماء يملى درسه على الطلبة من ذاكرته ، وليس فى يديه مذكرات أو كتب يملى منها . وهذا يدل على تمكنه من مادته . وإذا كان عددهم كبيرا اختار واحدا أو اثنين من المعيدين ، لإعادة ما أملاه عليهم ؛ كى لا يفوتهم شىء مما يقوله .

قال أبو العباس ثعلب عن ابن الأعرابى اللغوى المعروف بالكوفة : شاهدت مجلس ابن الأعرابى وكان يحضره زهاء مائة إنسان . ولقد أملى على الناس ما يحمل على جمال ، ولم يكن بيده كتاب[١] . وهذا يدل على غزارة مادته ، وسعة اطلاعه ، وثقته بنفسه .

وقد قيل إن السديد محمد بن وهبـــة الله كان إماما فى عصره ، وتولى الإعادة (أى كان معيدا) بالمدرسة النظامية ببغداد ، وإن الشيخ أبا إسحق الشيرازى الفيروزابادى قد

---

(١) ارجع إلى كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٦٢٣ .

صحب القاضى الطبرى ، وكان ينوب عن الطبرى فى مجلسه وتدريسه ، ورتبه معيدا فى حلقته .

وأحيانا كان الطالب يقرأ قطعة صغيرة من الكتاب الذى يدرسه الأستاذ للطلبة لتكون مقدمة لدرسه ، ثم يبدأ الأستاذ بشرح معنى تلك القطعة ، وتوضيحها والتعليق عليها ، حتى يفهم الطلبة المقصود منها . ويتبع المدرس فى طريقته الخطوات الآتية :

أولا : يبدأ بقراءة النص وشرحه .

ثانيا : يأتى المدرس بالآراء المختلفة فى الموضوع ويوضحها .

ثالثا : يدلى برأيه الخاص فى الموضوع ويؤيده بالدليل .

رابعا : يوازن بين موضوع البحث والموضوعات المشابهة له .

خامسا : يعطى الطلبة الفرصة فى أن يسألوا ما يشاءون من الأسئلة ، ويجيب عنها ، ولا يترك درسا حتى يفهمه الطلبة كل الفهم .

وكان العلماء من المسلمين يلقون دروسهم بهدوء ، ويعملون بكل إخلاص ، ويتحلون بالآداب العالية ، والأخلاق الكريمة ، لا يحقدون على غيرهم ، ولا يظلمون سواهم ، ولا يفكرون فى النواحى المادية الخاصة بالدرجات والعلاوات والترقيات ؛ لأنهم زاهدون قانعون بالضروريات للمحافظة على الحياة .

٥ ـ طريقة المحاضرات :

كان المحاضر يعد محاضرته ويدونها نقطة نقطة ، ثم يتكلم عن كل نقطة كلام أستاذ متمكن من مادته ، فيدون الطلبة ما يفهمونه من الآراء فى مذكراتهم الخاصة . ولم يكن المحاضرون ممن يحفظون محاضراتهم ، ويقولون ما لا يفهمون ، بل كانوا يفهمون كل فكرة يذكرونها ويشرحونها بوضوح . ولم يكونوا ممن يعتمدون على ما فى أيديهم من مذكرات ، فإذا أخذت هذه المذكرات منهم وقفوا حيارى لا يستطيعون أن يذكروا شيئا لطلابهم . فقد كانوا علماء حقا ، واسعى الاطلاع ، لا يحتاجون إلى النظر فى كتب أو مذكرات فى أثناء المحاضرات .

وقد شرح ابن خلدون طريقة المحاضرات فى مقدمته ، ونقد اعتماد الطلاب على المتون والمختصرات فى العلوم ، وشجع الإسهاب والسهولة فى الموضوعات ، ثم ذكر آراء ثمينة لا تختلف عن الآراء فى التربية الحديثة اليوم - يلخصها فيما يلى :

لكى ينتفع الطالب بالمعلومات يجب ألا يتلقاها المتعلم مرة واحدة ، بل يتدرج معه فيها ، ويأخذها شيئا فشيئا . وينبغى أن يبدأ المحاضر درسه بإعطاء فكرة عامة مجملة عن الموضوع ، يلخص فيها أصول الباب وهى النقط الرئيسية فى محاضرته ، مع تجنب التفاصيل المعقدة التى يصعب على الطلاب فهمها فى بدء الدرس .

ويراعى فى ذلك قوى عقله (عقل الطالب) واستعداده لقبول ما يرد عليه ، ثم يعود ثانية إلى الموضوع فيرفعه فى التلقين عن تلك المرتبة إلى مرتبة أعلى منها يستوفى فيها الشرح والبيان . وينتقل من الإجمال إلى التفصيل ، ويذكر للطالب نواحى الخلاف فى الموضوع وأوجه النظر . ويعيد الدرس مرة ثالثة . يعالج فيها الموضوع بطريقة أكثر عمقا ، فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا صعبا إلا وضحه ، وفتح له مغلقه[1] .

فابن خلدون ينادى بالتدريج فى إعطاء المادة حتى يفهم الطلبة الدرس ، ويتضح فى نفوسهم . ويتفق مع علم النفس فى إعطاء المتعلم فكرة عامة إجمالية عن الموضوع ، ثم الانتقال إلى تفصيل كل نقطة من الدرس بعد الإجمال . ويرى مراعاة استعداد الطالب من الناحية العقلية ؛ فالذكى يفهم المحاضرة بمجرد استماعها للمرة الأولى . ومن كان فوق المتوسط فى الذكاء يفهمها بعد استماعها مرتين ، والمتوسط يدركها بعد الإصغاء إليها ثلاث مرات ، وينادى بذكر النقط الهامة فى البدء ثم شرحها بالتدريج ، ثم معالجتها بتعمق فى المرة الثالثة ، بحيث يفهم كل طالب الدرس فى النهاية فهما جيدا .

والعبدرى يطالب بفهم الموضوع ، ودراسة الآراء المختلفة فيه ، واختيار الرأى الصحيح ، والموازنة بينه وبين غيره . ومن هذا كله نرى أن طرق التدريس فى التربية الإسلامية منطقية معقولة ، ولا تختلف عن الطرق الحديثة فى التربية اليوم .

---

(١) مقدمة ابن خلدون بتصرف ص ٤٨٩ .

٦ ـ طريقة المناظرة :

كانت المناظرة من مميزات طرق التربية الإسلامية ، ولا ينكر أحد أثرها فى شحذ الذهن ، وتقوية الحجة ، والتمرن على سرعة التعبير ، والتفوق على الأقران ، وتعويد المناظرين الثقة بالنفس ، والقدرة على الارتجال . ولهذه الأسباب عنى بهـا المسلمون عناية كبيرة ، وعدوها طريقة من طرق التعليم ، وأشاروا إليها فى كتبهم الأدبية . فقـد تناظر الإمام الغزالى مع مشهورى العلماء وقادة الفكر فى معسكر الوزير نظام الملك وانتصر عليهم جميعا . وقال السبكى[1] يصف إسماعيل بن يحيى بأنه جبل من العلم ، على جانب عظيم من المهارة فى المناظرة . وقال عنه الإمام الشافعى رضى الله عنه : لو ناظر الشيطان لغلبه .

وكان العلماء يشجعون طلبتهم على المناقشة والمناظرة ، ويوجبون عليهم التمرن عليها . وكان الطالب يخالف أستاذه فى الرأى أحيانا مع مراعاة التأدب والاحترام .

وقد نقد ابن خلدون الركود الذهنى فى بلاد المغرب فى القرن الرابع عشر الميلادى وعزاه لرداءة الطرق فى التدريس ؛ لأنها أهملت المناقشة والمناظرة فى طريقة التعليم حيث قال:

« وأيسر طرق هـذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة فى المسائل العلمية ، فهو الذى يقرب شأنها ، ويحصل مرامها . فتجد طلاب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم فى ملازمة المجالس العلمية ـ سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون . وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة ، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف فى العلم والتعليم » .

فابن خلدون يرى أن المناظرة فى المسائل العلمية تساعد على فهمها وقـدرة التعبير عنها ، وينتقد سكوت الطلبة وعدم تكلمهم فيما عرفوا من العلوم ، كما يأخذ عليهم العناية بالحفظ أكثر مما تقتضيه الحاجة . قال الشاعر :

العلم بالفهم وبالمذاكرة والدرس والفكرة والمناظرة

ويرى الزرنوجى أن قضاء ساعة واحدة فى المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من مكث شهر كامل فى الحفظ والتكرار .

---

(١) فى كتاب طبقات الشافعية الكبرى ج ١ ص ٢٣٨

وقد كان للعناية بالمناقشة والمناظرة والحوار بالأسئلة والأجوبة أثر حيوى كبير فى طالب العلم ، جعله يشترك فى أن يعلم نفسه بنفسه ، ويعتاد حسن التفكير ، وجودة التعبير ، والقدرة على النقد ، والقوة فى الإقناع والاعتماد على النفس ، وحرية الفكر .

والحق أن علماء الإسلام كانوا مولعين كل الولع بالمناظرة حتى جعلوها من أنواع التسلية والترويح عن النفس والمتعة الأدبية . وإن الميل إلى العلنية والجهر بالرأى فى التربية الإسلامية قد شجع الطلاب والعلماء على المهارة فى الخطابة ، والقدرة على الارتجال ، والتعبير عن الأفكار . والخطابة الارتجالية تراث عربى خالد افتخر به المسلمون فى جميع الأجيال . وبالخطابة والمناظرة استغنوا عن كتابة المقالات والرسائل فى كثير من الأحيان .

ولنذكر هنا على سبيل المثال إحدى المناظرات الهامة التى حدثت فى مجلس هارون الرشيد ، وهى مناظرة لغوية مشهورة حدثت بين سيبويه والكسائى ، وقد زعم الكسائى فيها أن العرب تقول : « كنت أظن الزنبور أشد لسعا من النحلة فإذا هو إياها » .

فقال سيبويه : بل الصحيح : « فإذا هو هى » . فتشاجرا طويلا ، واتفقا على مراجعة عربى خالص لا يشوب كلامه شىء من كلام أهل الحضر . وكان الرشيد شديد العناية بالكسائى ؛ لأنه كان معلما له . فاستدعى عربيا وسأله ، فقال كما قال سيبويه .

فقال الرشيد له : نريد أن تقول كما قال الكسائى .

فقال العربى : إن لسانى لا يطاوعنى على ذلك ، فإنه ما يسبق إلا إلى الصواب . فقرروا معه أن شخصا يقول : قال سيبويه كذا ، وقال الكسائى كذا ، فالصواب مع من فيهما فيقول العربى : مع الكسائى .

فقال العربى : « هذا يمكن » .

ثم عقد لهما المجلس واجتمع أئمة هذا الشأن وحضر العربى ، وقيل له ذلك فقال : الصواب مع الكسائى وهو كلام العرب .

فعلم سيبويه أنهم تحاملوا عليه ، وتعصبوا للكسائى ، فخرج من بغداد[1] . وما كنا

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٥٤٩ .

نتنظر أن يعامل سيبويه هذه المعاملة ، وأن تغير الحقائق بالتحايل ، وأن يتعصب للكسائى مع أنه كان مخطئا فى قوله . فلما أحس سيبويه بالظلم والتحامل عليه ، والتعصب للكسائى بدون حق ترك بغداد وخرج منها .

ولنذكر أيضا مناظرة أوردها أبو حيان التوحيدى فى كتابه: « الإمتاع والمؤانسة[1] » حيث قال : إن مجلس الوزير ابن الفرات انعقد مرة سنة ٣٢٦ هـ وفيه أبو سعيد السيرافى ، وابن فراس ، وأبو بشر متى ، ورسول ابن طغج من مصر وكثير غيرهم .

وقال الوزير : ألا ينتدب منكم إنسان لمناظرة متّى فى حديث المنطق ؟ فإنه يقول لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، والخير من الشر ، والحجة من الشبهة ، والشك من اليقين ، إلا بما حويناه من المنطق . . . فأحجم القوم .

فقال ابن الفرات : والله إن فيكم لمن يفى بكلامه ومناظرته ، فإنى لأعدكم فى العلم بحارا .

فقال أبو سعيد السيرافى : اعذر أيها الوزير ، فإن العلم المصون فى الصدر غير العلم المعروض فى هذا المجلس على الأسماع المصيخة ، والعقول الحادة .

فقال ابن الفرات : أنت لها يا أبا سعيد ، فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك ، والانتصار لنفسك راجع إلى الجماعة بفضلك .

فقبل السيرافى ، ودارت مناقشة طويلة ممتعة ، ذكرها كلها أبو حيان التوحيدى نذكر منها مسألة صغيرة وصلت إليها المناقشة .

قال أبو سعيد السيرافى : ما تقول فى قول القائل : زيد أفضل الإخوة . » ؟

قال مَتّى : صحيح .

قال أبو سعيد : فما تقول إذا قيل : « زيد أفضل إخوته . » ؟

قال متى : صحيح أيضا .

قال أبو سعيد : فما الفرق بينهما مع الصحة ؟

فغص متّى بريقه ولم يجب .

---

(١) جـ ١ ص ١٠٨

فقال أبو سعيد أفتيت على غير بصيرة ولا استبانة ، المسألة الأولى جوابك عنها صحيح ، وإن كنت غافلا عن وجه صحتها . والمسألة الثانية جوابك عنها غير صحيح ، وإن كنت أيضا ذاهلا عن وجه بطلانها .

قال متى : بين لى هذا .

قال أبو سعيد : ليس هذا مكان التدريس إذا حضرت الحلقة استفدت .

قال الوزير ابن الفرات : تمم لنا كلامك فى شرح المسألة ، حتى تكون الفائدة ظاهرة المجلس .

قال أبو سعيد : زيد أفضل الإخوة صحيح ؛ لأن زيدا بعض الإخوة وأحدهم ، فكأنك تقول : حمارك أفره[1] الحمر : وأما زيد أفضل إخوته فخطأ ؛ لأن زيدا ليس بعض إخوته ، إذ أن إخوته غيره ، فكأنك قلت : حمارك أفره البغال .

٧ ـ الطريقة التى كان الطالب يتبعها فى التعلم فردية :

(ا) كان نظام التعليم فرديا فى التربية الإسلامية ، فالطالب يتمتع بقسط كبير من الحرية ، يختار من المواد الدراسية ما يناسب ميوله الفطرية ، واستعداده العقلى ، ويختار العالم الذى يتلقى عنده العلم ، ويحضر ما يلقيه أستاذه من المحاضرات . ويقرأ المادة ويدرسها ويعدها قبل الدرس حتى يفهمها ، ويسأل أستاذه فيما صعب عليه منها . وهو حر غير مقيد بنظام معين ، ولا بجدول أوقات دروس ، وليس مطالبا بامتحانات خاصة للنقل من صف إلى آخر أو من فرقة إلى أخرى .

(ب) التعلم بالحفظ والاستظهار :

كان العلم بالحفظ والاستظهار طريقة مألوفة فى الأمم القديمة والحديثة . وكان علماء الإسلام يعنون بحفظ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة عناية كبيرة . فقد ذكر ابن خلكان فى كتابه (وفيات الأعيان) أن الإمام أحمد بن حنبل حفظ عن ظهر قلب ألف

(١) الفاره : الحاذق بالشىء ، والمليح الحسن ، ومن الدواب الجيد السير .

ألف حديث ، فى حين أن البخارى قد حفظ وهو صبى ما يقرب من خمسة عشر ألف حديث . وذكر ابن عساكر عن داود الخفاف أنه قال : « أملى علينا ابن راهويه أحد عشر ألف حديث من الذاكرة ، ثم أعادها دون أن ينقص أو يزيد حرفا واحدا . وهذا دليل على قوة ذاكرته » .

وقال الخليل بن أحمد : « ما سمعت شيئا إلا كتبته ، ولا كتبته إلا حفظته ، وما حفظته إلا نفعنى » .

فالحرص العلماء كانوا يكتبون كل ما يسمعون ، ويحفظون ما يكتبون ، وينتفعون بما يحفظون ، ولا يمكنهم الانتفاع بما حفظوه إلا إذا فهموه جيدا .

وقال موفق الدين البغدادى : « وإذا قرأت كتابا فاحرص كل الحرص على أن تستظهره وتملك معناه ، وتوهم أن الكتاب قد عدم ، وأنك مستغن عنه ، لا تحزن لفقده » .

وهذا يدل على أن الطلاب كانوا يعنون بالفهم عنايتهم بالحفظ ، وكانوا يحفظون الكتاب بحيث إذا ضاع أو فقد استغنوا عنه ، ولم يحزنوا لضياعه أو فقده .

وفى الأدب العربى أمثلة كثيرة لمن كانوا يحفظون القصيدة الطويلة بعد أن يسمعوها من قائلها مرة واحدة ، لما أوتوا من قوة كبيرة فى التذكر .

وقد عزا بعض فلاسفة الإسلام القدرة على التذكر إلى عوامل نفسية ومادية ، كالاستمرار فى المذاكرة ، والإعادة والمراجعة ، وبذل الجهد فى الدرس ، والبعد عن المشاغل والآلام ، والتفرغ للعمل والدراسة ، فى جو من الهدوء والإيمان . وإننا نتفق معهم فى كل ما أبدوه من الأسباب .

وإن من يفحص عن الأمر يجد أن العناية بالذاكرة كانت أثرا من آثار التقاليد الدينية فى بدء الإسلام . ففى الوقت الذى ظهر فيه الإسلام كان معظم العرب أميين لا يقرءون ولا يكتبون ، فاعتمدوا على ذاكرتهم كل الاعتماد فى تذكر الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والتعليمات الدينية ، والقواعد الإسلامية ، والأشعار والقصص العربية .

( ) فى كتاب تاريخ دمشق جـ ٢ ص ١٢ .

ومع عناية علماء الإسلام بالحفظ والذاكرة لم يهملوا مطلقا العناية بالتفكير فيما يُحفظ وشرحه وتحليله وفهمه حق الفهم . فقد جعلوا الحفظ وسيلة لا غاية ؛ لقلة من يجيد القراءة والكتابة في بدء الإسلام .

وقد نادى الحاجى خليفة في كتاب : « كشف الظنون » بأهمية الفهم ، والاستنباط ، والانتقال من المنطوق إلى المفهوم والمدلول .

وقال موفق الدين البغدادي : « ولا تظن أنك إذا حصلت على علم فقد اكتفيت بل تحتاج إلى مراعاته لينمى ولا ينقص » .

ومراعاته تكون بالمذاكرة ، والتفكير ، واشتغال المبتدئ بالحفظ والتعلم ، ومباحثة الأقران ، واشتغال العالم بالتصنيف . فالبغدادي ينصح المتعلم بالمذاكرة والتفكير ، والحفظ والتعلم ، ومناقشة الزملاء للمحافظة على ما تعلمه وتنميته ، كما ينصح العالم بالتصنيف أو التأليف ليزداد في بحثه وعلمه ، وتثبت المعلومات في ذهنه .

وقال الشيخ برهان الإسلام ناصحا المتعلم : « ألا يكتب شيئا لا يفهمه ، لأن ذلك يورث كلال الطبع ، ويذهب الفطنة . وينبغى أن يجتهد في الفهم من الأستاذ ، ويكثر من التأمل والتفكير » .

فهل بعد هذا يستطيع مدع أن يدعى أن المسلمين كانوا يعنون بحفظ المادة ويهملون فهمها ؟ الحق أن طريقة التعليم في التربية الإسلامية عنيت بفهم المادة عنايتها بالحفظ ، ولم تهمل الفهم والتأمل والتفكير فيها مطلقا . فالطلبة كانوا يكثرون مناقشة أساتذتهم ، وكانت الأسئلة تنهال عليهم من كل صوب بعد الانتهاء من المحاضرة . وكان العلماء لا يتركون نقطة إلا بعد فهمها جيدا . وحرية السؤال كانت مكفولة للجميع . وكان للطالب الحرية المطلقة في إبداء رأيه ، وقد يختلف مع أستاذه في الرأى أو الفكرة . فقد قيل : إن ابن العباس خالف أساتذته في الرأى وهم : عمـــر وعلى وزيد بن ثابت ، وهم من المسلمين

المشهورين ؛ كما اختلف الإمام مالك مع معظم أساتذته فى بعض الآراء ، ثم خالفه فى الرأى كثير من تلاميذه[١] .

٨ ـ الامتحانات :

فى التربية الإسلامية لم يطلب من المتعلمين تأدية امتحان بعد الانتهاء من الدراسة كالامتحانات التى تعقد فى عصرنا هذا . وقد ذكر ابن أبى أصيبعة[٢] حالة واحدة جاء فيها أنه عقد امتحان لأطباء بغداد فى عهد الخليفة المقتدر « فى القرن العاشر الميلادى » بحضرة سنان بن ثابت الذى كان يمتحن الأطباء امتحانا شفهيا .

وبدلا من الامتحان كان الأساتذة يعطون طلبتهم الأكفاء شهادة أو إجازة ، ينصون فيها على أن الطالب أتم دراسة منهج معين ، تحت إشراف الأستاذ فلان دون أن يؤدى الطالب امتحانا . والغرض من الإجازة الإقرار بكفاية الطالب واجتهاده ، وانكبابه على العلم ، وتفرغه للدراسة والبحث . وكانت الإجازة العلمية شهادة شخصية من الأستاذ لتلميذه ، وليس فيها عنوان معهد معين . ولا يذكر فيها لقب علمى .

فلاسفة التربية فى الإسلام :

لقد نبغ فى التربية كثير من فلاسفة المسلمين ، ولهم آراء قيمة ، وأفكار سديدة ، نادوا بها منذ مئات السنين . ومنهم : الفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ، وابن خلدون ، والكندى، وابن رشد ، وابن مسكويه ، وابن العربى ، وابن المقفع ، وإخوان الصفا ، وكثير غيرهم

وما زلنا نذكر هذه الآراء ، ونعجب بها وننادى باستعمالها فى التربية الحديثة فى القرن العشرين . وإننا نكتفى بذكر ثلاثة منهم ، وهم : ابن سينا ، والغزالى ، وابن خلدون .

---

(١) ارجع إلى كتاب الإسلام والحضارة العربية لكرد على جـ ٢ ص ٨

(٢) فى كتاب طبقات الأطباء .

الفصل الثامن عشر

ابن سينا(١)

الطبيب العالم النفسى ، والفيلسوف المربى

(٣٧٠ هـ — ٤٢٨ هـ)

نشأته وحياته :

هو الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن ، بن على بن سينا ، الحكيم المشهور ، والطبيب النطاسى ، والعالم النفسى . كان أبوه من أهل بَلْخ(٢) ، وانتقل إلى بخارى(٣) ، وهى يومئذ حافلة بالعلماء ، فى زمن نوح بن منصور السامانى ، من ملوك الدولة السامانية ، وهى دولة فارسية نشأت بعد انقسام الدولة العباسية إلى عدة دويلات . تولى أبوه العمل بقرية خرميثن القريبة من بخارى ، وفيها ولد الشيخ الرئيس ابن سينا سنة ٣٧٠ هـ . واسم أمه ستارة ، وهى من قرية أفشنة بالقرب من خَرْمَيْثَن .

دراسته :

ولد ابن سينا فى أسرة لها اشتغال بخدمة الدولة . وكان أبوه يحضر له المعلمين ، ويستقبل فى داره العلماء والفلاسفة . وتلقى ابن سينا العلوم العقلية والشرعية . وكان أبوه وأخوه من الإسماعيلية(٤) ، ولها تعلق بالفلسفة ، ويقال إن البيت الذى نشأ فيه كانت تسوده تقاليد فارسية قوية . وقــد نضج عقله وجسمه نضوجا قويا سريعا منتجا . فقد قرأ على عبد الله الناتلى(٥) كتاب إيساغوجى فى المنطق ، وكتاب إقليدس(٦) فى الهندسة وكتاب المجسطى فى علم الهيئة القديمة .

(١) Aricenne . (٢) مدينة بلخ بين جوزجان وطخارستان ، فتحها الأحنف بن قيس ، فى خلافة عمر بن الخطاب ، وفيها نبغ أبو زيد البلخى ، واضع كتاب : (صور الأقاليم) ، من أقدم كتب الجغرافية عند العرب . (٣) فتحها قتيبة بن مسلم الباهلى سنة ٩٠ هـ ، وهى من بلاد ما وراء النهر ، وينسب إليها البخارى صاحب الجامع الصحيح . (٤) فرقة من الشيعة ، نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق . وهى منتشرة فى فارس والشام والهند وغيرها . (٥) نسبة إلى ناتلة ، وهى مدينة بطبرستان ، نسب إليها قوم من أهل العلم . (٦) إقليدس : فيلسوف يونانى رياضى . ومعنى إقليدس : مفتاح الهندسة .

وقد أظهر ابن سينا ذكاء خارقاً ؛ فقد كان يشرح لأستاذه بعض الرموز والإشكالات التى فى هذه الكتب ؛ ثم اشتغل ابن سينا بتحصيل العلوم الطبيعية والإلهية ، وأقبل على تعلم علم الطب ، فبرع فيه براعة منقطعة النظير . وكان الشيخ الرئيس يداوى المرضى لإشباع ما فى نفسه من الولع الشديد بعلم الطب ، ولم يتخذ الطب وسيلة إلى الكسب ، وجمع المال . ولما ذاع صيته أقبل عليه المشتغلون بالطب ، يقرءون عليه مادونوا فى هذا العلم من التجارب وأنواع المعالجات . وعجيب أن سنه كانت إذ ذاك ست عشرة سنة . وإن وصوله إلى درجة طبيب فى هذه السن يدل على ذكائه النادر ، وذاكرته القوية ، وتفوقه العظيم .

وكان ابن سينا ينفق كل وقته فى البحث والقراءة والاطلاع ، والتمحيص والفحص والتنقيب ، وعمل التجارب .

وكان من عادته إذا أشكل عليه أمر من الأمور أن يتوضأ ، ويذهب إلى المسجد ؛ ليصلى ويدعو الله أن يفتح عليه ؛ ليفهم ما خفى عليه من مشكلات العلم ومعضلاته .

قيل إن الأمير (نوح بن نصر السامانى) مرض ، فطلب ابن سينا ليعالجه ، فعالجه حتى شفى من مرضه ، ثم اتصل به . وكان لنوح بن نصر مكتبة ذائعة الشهرة ، فانقطع ابن سينا لقراءة ما فيها من كتب للأوائل فى كل علم وفن ، فأحاط بما فيها ، وحصل شواردها . وحينما ناهزت سنه الثامنة عشرة كان قد فرغ من تحصيل مختلف العلوم .

ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره توفى والده . ثم اضطربت أحوال الدولة السامانية ، فاضطر ابن سينا إلى مغادرة بخارى، فذهب إلى الجرجان(١) الأقصى قاعدة خوارزم ، ثم انتقل إلى الرى(٢) ، ومنها إلى همذان(٣) ، وصار وزيرا لشمس الدولة أبى طاهر الديلمى صاحب

---

(١) جرجان الأقصى كان بها سراج الدين السكاكى ، صاحب كتاب (مفتاح العلوم) المتوفى سنة ٦٢٦ هـ . وكان يقيم بها أبو الريحان البيرونى ، أشهر علماء النجوم والرياضيات، المتوفى سنة ٤٤٠ هـ

(٢) الرى (Rhages) فتحها نعيم بن مقرن فى خلافة عمر ، وفيها ولد الخليفة هارون الرشيد . وهى وطن محمد بن زكريا الرازى الطبيب ، وفخر الدين الرازى صاحب كتاب مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير المتوفى سنة ٦٠٦ هـ . والنسبة إلى الرى رازى على غير قياس . وهى الآن أطلال دارسة بالقرب من طهران ، ببلاد إيران .

(٣) مدينة ببلاد الجبال من فارس ، وهى وطن بديع الزمان الهمذانى ، صاحب الرسائل والمقامات، المتوفى سنة ٣٩٨ هـ بمدينة هراة .

همَذان وعراق العجم . غير أن عسكر شمس الدولة لم يجدوا فى ابن سينا ضالتهم ، فثاروا عليه ، ونهبوا داره ، وقبضوا عليه ، فنفاه شمس الدولة إرضاء لهم ، ولكنه ما لبث أن أعاده إليه حين عاوده المرض . ولما مات شمس الدولة خرج ابن سينا من همذان قاصدا أصْبَهَان[1] ، واتصل بالأمير أبى جعفر علاء الدولة، فأحسن إلى ابن سينا ، وأكرمه ، وبقى عنده معززا مكرّماً .

وكان ابن سينا قوى المزاج ، فكان ذلك مما أنهك جسده ، وأضعف بدنه ، وحين كان بأصبهَان مرض بالقُولَنج ، وهو مرض معوىّ مؤلم، يؤدى إلى احتباس الثفْل والريح بالجسم، ويَعْسُر معه خروجهما . ولما اشتدت عليه وطأة المرض حقن نفسه ثمانى مرات، فى يوم واحد . واستشرى المرض فى بدنه حين كان يتنقل مع علاء الدولة بين همذان وأصبهَان . وأخيرا وصل إلى همذان ، وقد ضعفت صحته كثيرا ، فأهمل التداوى ، وقال عن نفسه : « إن المدبر الذى فى بدنى قد عجز عن تدبيره ، فما بى من حاجة إلى المعالجة » .

صلته بعلماء عصره :

اتصل ابن سينا بكثير من علماء عصره ، ومنهم ابن مسكويه[2] ، وأبو الريحان البيرُونى[3] ، وأبو القاسم الكرمانى ، والطبيب أبو الفرج ، وغيرهم .

وقد تعمق ابن سينا فى دراسة الطب والمنطق والطبيعة والرياضة ، وفاق أساتذة عصره فى هذه العلوم ، وتتلمذ على كتب أبى نصر الفارابى[4] .

---

(١) هى وطن أبى الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى ، المتوفى سنة ٣٥٦ هـ .

(٢) صاحب كتاب : تهذيب الأخلاق . ومعنى مسكويه : رائحة المسك . عرف بالأدب والفلسفة والكيمياء .

(٣) هو محمد بن أحمد أبو الريحان الخوارزمى . كان لغويا أديبا ، له فى الرياضيات وعلم الفلك اليد الطولى . وقد أفاد اللغة العربية بكتابيه : (تحقيق ماللهند من مقولة معقولة فى العلم أو مرذولة) ، و(الآثار الباقية عن القرون الخالية) وتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

(٤) الفارابى : (٢٦٠ – ٣٣٩هـ) هو فيلسوف المسلمين، والمعلم الثانى ، شرح المجسطى، وأكثر كتب أرسطو . وله كتاب السياسة المدنية ، والسيرة الفاضلة ، وكتاب الموسيقا ، والمبادئ الإنسانية .

طريقته فى تحصيل العلم :

وكان لابن سينا طريقة خاصة فى تحصيل العلم يحدثنا عنها بقوله : « لازمت العلم ، وكنت كلما أحار فى مسألة ترددت إلى الجامع ، وصليت ، وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى يفتح لى المغلق منه ، ويتيسر المتعسر . وكنت أشتغل الليل فى دارى بالكتابة والقراءة . فإن غلبنى النوم ، أو شعرت بضعف (مرض) عدلت إلى شرب قدح من الشراب ، ريثما تعود إلىّ قوتى ، ثم أرجع إلى القراءة ، فإن غلبنى النوم حلمت بالمسائل التى كنت أعالج حلها . حتى إن كثيرا منها اتضح لى بالمنام » .

وإننا نأخذ على ابن سينا ميله إلى النساء والشراب ، وما كنا ننتظر هذا من فيلسوف عبقرى مثله .

آراؤه فى التربية :

لم يكتف ابن سينا فى التبحر فى الطب والفلسفة واللغة ، بل أسهم بنصيب موفور فى وضع قواعد التربية الإسلامية ، ونظرياتها . وله فى هذا السبيل آراء قيمة لا تقل فى طرافتها وجدتها ، وقوة أثرها ، من الناحية العملية ـ عن آراء أعظم فلاسفة التربية وعلمائها فى القرن العشرين . وسترى أنه فى علم النفس التحليلى ، وعلاج الأمرض النفسية والعصبية لا يقل عن أكبر العلماء من الأطباء فى عصرنا هذا .

المنهج الأولىّ للتربية الإسلامية :

لابن سينا رأى مشهور فى تربية الأولاد ، يدور حول المنهج الأولى للتربية الإسلامية ، فيقول :

« ينبغى البدء بتعلم القرآن ، بمجرد تهيؤ الطفل للتلقين جسميًّا وعقليًّا ؛ وفى الوقت نفسه يتعلم حروف الهجاء ، ويلقَّن معالم الدين ، ثم يُرَوَّى الصبىُّ الشعر ، مبتدئا بالرجز ثم بالقصيدة ، لأن رواية الرجز وحفظه أيسر ؛ إذ أن بيوته أقصر ، ووزنه أخف ، على أن

يختار من الشعر ما قيل في فضل الأدب ، ومدح العلم ، وذم الجهل ، وما حث منه على بر الوالدين ، واصطناع المعروف ، وقرى الضيف . فإذا فرغ الصبي من حفظ القرآن ، وألم بأصول اللغة ، نُظر عند ذلك في توجيهه إلى ما يلائم طبيعته واستعداده[١] » .

ومعنى هـــذا أن يعلم الطفل القرآن في البدء بطريقة التلقين ، في الوقت الذي ينمو جسميا ، ويستعد عقليا لتعلم القرآن بالتلقين . وقـــد كانت هذه الطريقة متبعة قديما في الـكتاتيب ، بحيث يبدأ سيدنا أو العريف بتلاوة سورة صغيرة ، آية آية ، فيرددها الأطفال وراءه ، مرتين أو ثلاثا أو أكثر حتى يحفظوها بالتلقين كما سمعوها ، قبل أن يعرفوا القراءة والـكتابة . وفي الوقت نفسه يتعلم الطفل في دروس أخرى حروف الهجاء قراءة وكتابة ، ويتعلم التهجي والمطالعة بالطريقة الجزئية ، وهي : طريقة يتعلم بها المبتدئون أسماء الحروف ، ثم حركاتها كالفتحة ، والـكسرة ، والضمة ، والفتحتين ، والـكسرتين ، والضمتين . ومن الحروف تركب الـكلمات وتـكوّن ، ومن الـكلمات تتـكون الجمل .

وفي الوقت الذي يحفظ فيه بعض السور القصيرة بطريقة التلقين ، يلقن أيضاً معالم الدين ، ويحكى له بعض القصص الدينية ، كقصص الأنبياء ، ثم يُرَوَّى الصبيُّ الشعرَ أي يُحمل على روايته أي حفظه عن ظهر قلب بطريق السماع والتلقين والرواية ، حتى يقال عنه : إنه راو الشعر .

ولصغر سنه ، ينصح ابن سينا بأن يبتدئ الطفل بحفظ الرجز ـ وهو نوعٌ من الشعر ـ ؛ لأن حفظ هذا الضرب من الشعر أسهل ، وروايته أيسر ، وأبياته أقصر ، ووزنه أخف . ثم يتدرج معه من هذا الشعر السهل القصير الخفيف إلى القصيدة من الشعر .

والقصيدة : ثلاثة أبيات فصاعدا ؛ أو ستة عشر بيتا فصاعدا .

فابن سينا يعطي الشعر جانبا من عنايته ؛ لأنه يتخذه وسيلة من وسائل التربية الخلقية ، ولـكنه يقرر ألا يدرس منه إلا ما قيل في الأدب والعلم والأخلاق .

---

(١) كتاب السياسة لابن سينا .

وباتباع هذه الطريقة مع الصبي فى الحفظ والاستظهار قد راعى ابن سينا أحدث المبادئ فى التربية ، وهى البدء بالسهل اليسير الخفيف ، ثم الانتقال من السهل إلى الصعب ، ومراعاة المستوى العقلى للطفل ، وقوة إدراكه وهذا يدل – ولاريب – على أن ابن سينا كان مربيا بطبيعته – خلق ليكون مربيا – عالما بنفسية الأطفال ، ومدى إدراكهم وفهمهم .

وقد تعجب حينما تسمع أن ابن سينا يرى حسن اختيار الشعر الذى يُطالَبُ الطفل بحفظه ؛ لأن حسن الاختيار يدل على حسن الذوق . فلا يُرَوَّى الطفل أى شعر ، بل يُرَوَّى شعرا خلقيا يذكر فيه فضل الأدب ، ويُمدح العلم ، ويُذَمُّ الجهل ، ويُحث على بر الوالدين ، وفعل الخير ، واصطناع المعروف ، وإكرام الضيف ؛ حتى تبث فى نفسه الأخلاق الكريمة من الطفولة ، والمثل الإسلامية العالية من الصغر .

وهذا هو المنهج الأولى للتربية الإسلامية فى نظر ابن سينا . فإذا انتهى الصبى من حفظ القرآن ، وألم بمبادئ اللغة العربية ، وعرف أصولها بطريقة موجزة ، نظر عند ذلك فى توجيهه إلى ما يلائم طبيعته واستعداده . وسنشرح هذه العبارة فى رأيه فى التربية لكسب العيش .

التربية لكسب العيش فى نظر ابن سينا :

قال ابن سينا : « إذا فرغ الصبي من تعليم (تعلم) القرآن ، وحفظ أصول اللغة ، نظر عند ذلك إلى ما يراد أن تكون صناعته ، فيوجه لطريقه ، بعد أن يعلم مدبر (مربى) الصبي أن ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية ، لكن ما شاكل طبعه وناسبه . فإن أراد الكتابة أضاف إلى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ، ومناقلات الناس ، ومحاوراتهم وما أشبه . وطورح الحساب ، ودُخِل به الديوان ، وعُنى بخطه . وإن أريد أخرى أخذ به فيها » .

يريد ابن سينا بذلك أن يثقف الصبي فى المرحلة الأولى من التعليم بحيث يتعلم القرآن – ونرى أن يقرأه ويفهم المراد مما يحفظ – وفى الوقت نفسه يدرس أصول اللغة العربية ، من

نحو وصرف وإملاء وخط ، ويتمرن على التعبير الشفوى ، والتعبير الكتابى ؛ كى يستطيع أن يقرأ قراءة صحيحة ، ويتكلم بلغة صحيحة ، ويكتب لغة خالية من الخطأ .

فإذا وصل إلى هذه الدرجة فى الدراسة الثقافية الدينية اللغوية نظر فى أمر المتعلم وميوله ورغباته التى يميل إليها ، فإن كانت ميوله متجهة نحو الناحية العملية وُجِّه إلى الصناعة التى يريدها ، والفن الذى يرغبه ، وإن كانت ميوله الطبيعية أدبية يُسِّرت له الوسائل ليكون أديبا ، وإذا كان يحب العلوم كالطب والصيدلة والكيمياء والرياضة . . . أعطى الفرصة لتكملة نفسه ، ودراسة العلم الذى يود التخصص به .

ونرى فى هذه الكلمة بعد النظر ، وسعة الأفق لدى ابن سينا فى القرن الخامس الهجرى أى منذ تسعمائة سنة تقريبا . وإنه يقصد بتلك النصيحة الغالية أن نفكر فيما يناسب طبع المتعلم ، وما يلائمه ، وما يميل إليه ، كى ينبغ فى دراسته ، ونضع كل شاب فى المكان الذى يصلح له ، ونوجهه الوجهة الصائبة . وهذا ما ننادى به فى التربية الحديثة فى القرن العشرين . فمستقبل الشبان يحتاج إلى تفكير وتدبير عند اختيار الدراسة المهنية لهم .

وإذا كانت رغبة الشاب متجهة نحو صناعة من الصناعات ، وُجِّه إلى الصناعة التى يميل إليها ، ويرغب فيها ، حتى يستطيع كسب عيشه ورزقه فى المستقبل ، وساعده المدرِّس — وبعبارة أخرى المربى — فى إعداده إعدادا مهنيا صناعيا . ولتحقيق تلك الغاية نرى أن نختار المواد الدراسية التى لها اتصال كبير بالحياة العملية ، فتعلمُ الحياكة أو النجارة أو الحدادة أنفع فى نظر الصناع من الآباء من تعلم المواد التى لا صلة لها بالحياة العملية .

فهم لا يفكرون فى العلم لذات العلم ، ولكنهم يفكرون فى تعلم المواد الضرورية كالقراءة والكتابة والخط ، والحساب ، وفى التعليم الصناعى الذى يمكِّن الأبناء من كسب عيشهم فى حياتهم . وإننا لا نستطيع أن ننكر أن فى رأيهم شيئا من الصدق ، كما لا نستطيع أن ننكر أن كسب العيش بتعلم حرفة من الحرف ، أو مهنة من المهن أمر ضرورىٌّ جدا يجب ألا يهمل فى مشروعات التعليم . ولكننا ننكر أن يكون هذا الغرض أسمى أغراض التربية .

فلو أن عاملا تعلم القرآن ، والقراءة والكتابة ، ثم صناعة لكسب العيش ، وأهملت تربيته الخلقية ، فكان سيئ الخلق ، غير مخلص فى عمله ، متأخر عن مواعيد حضوره ، أو أهملت تربيته العقلية فلم تقو فيه غريزة حب الاطلاع ، أو أننا لم نعن بصحته وتربيته الجسمية ، فأصبح ضعيف الجسم ، معتل الصحة ، فلا شك أن مثل هذا الصانع لا يستطيع أن تثبت قدمه فى معترك الحياة العاملة ، بل يكون نصيبه الإخفاق ، والعجز عن كسب العيش .

ونعتقد أن الحياة تستلزم فوق ما تقدم خلقا مهذبا ، وعقلا سليما ، وجسما قويًّا ، وعادات حسنة ، وحبا لأداء الواجب ، والنظام ، والمواظبة على العمل ، والإخلاص فيه .

وكثيرا ما نادينا بأن أهم شئ ينبغى أن نفكر فيه هو أن يوضع كل فرد من أفراد الشعب فى المكان الذى يلائمه ، ويليق به ، ويتفق مع طبيعته ورغباته وميوله ، بحيث يستطيع أن ينجح فى عمله ، ويجد لذة فيه ، ويفخر به .

كثيرا ما يتخير الابن مهنة آبائه وأجداده ؛ فابن المحامى يريد أن يكون محاميا ، وابن الطبيب يود أن يكون طبيبا ، وابن المهندس يرغب أن يكون مهندسا ، وبن العالم يحب أن يكون عالما ؛ لأن الأسرة أسرة محامين ، أو أسرة أطباء ، أو أسرة مهندسين ، أو أسرة علماء . ولكن هل من الحكمة أن يقيد كل ابن ويطالب بأن يحذو حذو أبيه ، ويخطو خطوات أسرته ، ولو لم تسمح له ميوله واستعداداته الطبيعية بأن يسير فى طريق المحاماة أو الطب أو الهندسة أو العلوم ؟

إننا لا ننكر أن للبيئة تأثيراً ، وأن للوراثة تأثيرا ، وأن الولد سر أبيه ، ولكننا ننكر أن نتجاهل ميول الفرد وطبيعته ورغباته ، وندفعه إلى السير فى طريق لا يناسب ميوله الفطرية ، واستعداده الطبيعى ، ولا يميل إليه ؛ فقد يحب أن يسير فى غير الطريق الذى سار فيه آباؤه وأجداده . وإننا نعتقد أنه لو وجه كل شاب إلى الناحية التى تؤهله لها صفاته الجسمية والعقلية والخلقية — لوجدنا مهرة من الشباب فى كل ناحية من نواحى الحياة العملية .

ولكي نصل إلى كثير من النابهين والنبغاء والعبقريين يجب أن نربي كل شاب تربية تتفق مع مزاجه ومواهبه ، فتؤسس المعاهد والكليات على مبدأ الحرية الشخصية ، بحيث تفتح المعاهد والكليات لمن يشاء من الراغبين فيها ، ما دامت دراستهم تؤهلهم لها ، وميولهم تميل إليها ، حتى يكون الاختيار مبنياً على ميل حقيقي ، ورغبة طبيعية، وتمنح الشبان الفرصة في الانتفاع بمواهبهم واستعداداتهم الفطرية. هذا هو رأينا في التعليم العالي ، والدراسة الجامعية .

يقول ابن سينا : « فإن أراد الكتابة أضاف إلى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب، ومناقلات الناس ، ومحاوراتهم ، وما أشبه . وطورح الحساب ، ودُخل به الديوان، وعُني بخطه . وإن أُريد أخرى أُخذ به فيها » .

ومعنى هذا : إذا أراد الصبي الكتابة الأدبية ، ليكون أديباً وكاتباً فعليه أن يضيف إلى دراسة اللغة وقواعدها ــ دراسة رسائل الأدباء والعلماء ، وخطب الخطباء ، ومناقلات الناس أي محادثاتهم ، ومحاورات المتحاورين ، ومناظرات المتناظرين ، ومقامات المتفننين ، ومُطارحَة المطارحين[1] ، ومناقشة المناقشين، واعتراضات المعترضين، وأجوبة الاعتراضات . ودُخل به الديوان . وعني بإجادة الخط ؛ لأن الخط ــ قبل اختراع المطبعة والطباعة ــ كان وسيلة حسنة للرزق . فقد كان الخطاط يشتغل بنسخ الكتب التي يطلب منه نسخها الولاة والأمراء والخلفاء . وكان الكتاب الثمين يشترى بمثل وزنه ذهباً . ولهذا كان هناك إقبال كبير من المتعلمين الفقراء على تعلم الخط ، وإجادته ، للحصول على عيشهم في الحياة .

قال ابن سينا : « وإن أُريد أخرى أُخذ به فيها » أي إذا أراد فناً غير الكتابة ، سمح له بتعلم ذلك الفن ودراسته حتى يتقنه ، وفق رغبته الشخصية ، وميله الفطري . وهو بهذا يقول بمبدأ التخصص الذي نقول به بعد الدراسة الثقافية الروحية في بدء حياته .

(١) المطارحة : إلقاء القوم المسائل بعضهم على بعض .

الصفات التي يجب أن يتحلى بها المدرس في نظر ابن سينا :

قال ابن سينا : « ينبغي أن يكون مؤدب الصبي عاقلا، دا دين ، بصيرا برياضة الأخلاق، حاذقا بتخريج الصبيان ، وقورا رزينا ، غير كز ولا جامد ، حلوا لبيبا ، ذا مروءة ونظافة ونزاهة » .

وإن نظرة واحدة إلى هـــذه الـكلمة توضح لنا ما يتطلبه ابن سينا من الصفات التي يجب أن تتحقق في المدرس ، الذي يقوم بتربية الأطفال . فهو يشترط أن يكون المدرس عاقلا حكيما ، حسن التصرف ، سديد التفـكير ، صائب الرأى ، ليس بطائش شديد الانفعال سريع التأثر ؛ لأن مثل هذا لا يصلح لمعاملة الأطفال .

وأن يكون متدينا ، صالحا ، تقيا ، يعرف الله ، ويؤمن به وبرسوله، يخاف الله في السر والعلانية ، ويحاسب نفسه على كل دقيقة يضيعها من أوقات التلاميذ . فلا يجوز أن يكون المدرس ملحدا أو كافرا ، لا يعتقد في دين ؛ لأن المدرس المتدين ذو ذمة وضمير ، يمـــكن الاطمئنان إليه ، والثقة به ، وله ضمير يؤنبه . أما الذى لا دين له فلا ضمير له ، ولا يمكن الاعتماد عليه في تربية النشء . لأن المدرس يجب أن يكون خير قدوة لتلاميذه ؛ لأنهم يحاكونه ويقلدونه من تلقاء أنفسهم في أقواله وأفعاله ، ومبادئه ، وسلوكه وتصرفاته . لهذا يجب أن يكون مثاليا ذا دين ، وخلق كريم .

يتطلب ابن سينا أن يكون مؤدب الصبي بصيرا برياضة الأطفال ؛ لأن تربيتهم تحتاج إلى خبرة ودراسة ، وإعداد خاص ، وأخلاق طاهرة ، وتحتاج في نظرنا إلى أن يدرس التربية وتاريخها ، وطرقها ، ونفسية الأطفال ، حتى ينتفع بتجارب غـــيره من المربين ، ويعمل لتنفيذ ما يعرفه من نظريات التربية وعلم النفس ، والاتجاهات الحديثة في التربية . فدراسة التربية وعلم النفس تحفظه من الضلال في الطريق ، وتساعده كثيرا في النجاح في العمل ، وتسهل له الصعاب التي تواجهه في التربية والتهذيب .

وينادى ابن سينا بأن يكون المدرس حاذقا بتخريج الصبيان ، ماهرا في تربيتهم ، حكيما في معاملتهم ، خبيرا بميولهم ، أمينا على أرواحهم الغالية . فليست مهنة تربية الأطفال بسهلة،

بل هى مهنة تحتاج إلى معرفة بعلوم التربية ، وحب الأطفال ، وميل لمهنة التعليم ، وأمانة فى العلم ، وإخلاص فى العمل ، ودراسة لعاداتهم وطبائعهم ، كما تحتاج إلى خبرة وكفاية ، ومقدرة ويقظة ، وذكاء وحضور بديهة ، وإلى التفكير فى كل طفل ، ووضعه فى الوضع الذى يستحقه ، وإرشاده حيث يحسن الإرشاد ، وعلاجه حيث تظهر أعراض المرض العلمى أو الخلقى أو الجسمى أو الاجتماعى . وما هذا كله بالأمر الهين .

وقد كان كثير من علماء التربية يعتقدون أن « المعلمين مطبوعون لا مصنوعون » . وفى هذا القول كثير من الصحة ، ولكن تجارب القرن العشرين برهنت على أن هذا لا يكفى ، وأن العلم بالمادة شىء ، وتدريسها فن يحتاج إلى خبرة وحذق ومهارة ، ودراسة للتربية وأغراضها ، وطرقها العامة والخاصة .

ونعتقد أن التربية أو تخريج الصبيان — كما يقول ابن سينا — من أهم الأمور ، وأصعب المهن التى تحتاج إلى مقدرة ومعرفة بالأطفال . ومما يخالف العقل والمنطق أن يقوم بتربية الأطفال وتعليمهم مدرسون ومدرسات لا يعرفون شيئا عن قواعد التربية ونظرياتها ، وطرق تدريس المواد التى يقومون بتدريسها .

ونعتقد أن الوسيلة الواحدة لإصلاح التعليم وإصلاح المدارس هى إعداد المعلمين والمعلمات إعدادا كاملا لمهنتهم . وإننا لا نتردد فى أن نقول : إن المدرسين لا يستطيعون أن ينجحوا فى تدريسهم إلا إذا درسوا التربية وعلومها وأغراضها وطرقها ووسائلها ، فنا من الفنون ، وعلما من العلوم ، ودرسوا ما قاله وما جربه علماء التربية وفلاسفتها ، وطرقها الحديثة واتجاهاتها الجديدة .

وينصح ابن سينا بأن يكون المدرس وقورا رزينا ، غير كزّ ولا جامد ، والكزّ هو العابس المنقبض — حتى يحترمه تلاميذه ، وينتبهوا إلى درسه ، ولا يعبثوا بالنظام ، ولا يهربوا من المدرسة ، ولا ينفروا من التعليم .

ومعنى الوقار والرزانة أن يحسن التدبير والإدارة ، ويحافظ على النظام ، ويكون حكيما فيما يقول وما يفعل ، يلين فى غير ضعف ، ويشتد فى غير عنف ، يقوم بالواجب فى الوقت

الملائم ، وبالطريقة الملائمة ، ويقف دائما مواقف مشرفة ، ولا يكون مدعاة للسخرية والضحك ، والاستهزاء به ، والعبث بالدراسة . ويكون ذا كرامة يربأ بنفسه عن الدنايا ، ويستنكف من القبيح ، حتى يكون مرفوع الرأس ، وموضع التبجيل والاحترام .

ويرى ابن سينا أن يكون المدرس (حلوا لبيبا) أى حلو الخلق ، نبيلا فى تصرفاته ، قدوة حسنة لتلاميذه ، قادرا على ضبط شعوره ونفسه ، لبيبا ذكيا ، حاضر البديهة ، قوى الملاحظة ، راجح العقل ، رحب الصدر ، لا يتأثر لأتفه الأسباب ، ولا يغضب لأقل شىء ، قادرا على التعبير والتوضيح والتفسير ؛ حتى يستطيع أن يصل إلى قلوب تلاميذه ، ويؤثر فى نفوسهم .

« وأن يكون ذا مروءة ونظافة ونزاهة » ، بحيث يكون مخلصا ، محبا للأطفال بطبيعته ، يعطف عليهم ، ويقوى ضعيفهم ، ويشجع قويهم ، ويكون أبا شفيقا لهم ، ويعدل بينهم ، ويعاملهم جميعا معاملة واحدة ، ويحسن الصلة بهم ، فلا يفرق بين ابن الغنى وابن الفقير منهم .

ويكون نظيف الوجه ، نظيف الملابس ، حسن المظهر ، خاليا من الأمراض والعاهات الجسمية .

ويكون نزيها ، مخلصا فى عمله ، معدًّا لدروسه ، شاعراً بالواجب عليه نحو تلاميذه ونحو المجتمع ، فيجب ألا يقف موقفا يرى منه الأطفال الميل إلى أحدهم دون الآخر ، لغرض شخصى أو نفسى ؛ حتى يمتلكهم جميعا ، وألا يضع نفسه موضع نقد ؛ فالطفل خير ناقد ، ينظر بعين الطبيعة والنزاهة والعدالة ، نظرة لم تلوثها الأغراض .

وتتطلب النزاهة أن يفكر المدرس فى الطفل قبل أى شىء آخر ، ويعمل لإعداده للحياة التى تنتظره ، وأن يخلص لتلاميذه ، ويحافظ على أوقاتهم ، ويفكر دائما فى النهوض بهم ، ويشعر بأنهم ذخيرة الشعب فى المستقبل ، ويتصل بالحياة والعالم ؛ كى يمكنه أن يزودهم بما يشاءون من ثقافة وأدب ، وعلم واختراع[١] .

(١) ارجع إلى الفصلين : السابع والثامن من كتاب (روح التربية والتعليم) للمؤلف .

عناية ابن سينا بالتربية الخلقية :

إن ابن سينا يعنى بالتربية الخلقية ؛ فهو حريص كل الحرص على أن ينشأ الطفل نشأة دينية صحيحة . ويرى أن التربية الدينية كفيلة بتحقيق هذه الغاية ، ثم يضيف إلى ذلك شيئاً آخر ؛ وهو : ألا يعلم الطفل من الشعر إلا ما تحقق فيه جانب الخير ، والحث على مكارم الأخلاق .

ولسنا فى حاجة إلى الإسهاب فى بيان أثر التربية الدينية فى سلوك الإنسان وأخلاقه . فقد أجمع العلماء على أن الدين أقوى دعامة فى النهوض بالأخلاق بين الأفراد والمجتمعات . وإننا نعلم أن نزعة التدين نزعة فطرية فى الإنسان ، والشعور الدينى استعداد فطرى فى طبيعته. وإن الإنسان وحده هو الذى انفرد بهذه النزعة الدينية دون غيره من المخلوقات .

وإننا نعتقد أن من السهل أن ننتفع بهذه النزعة ؛ ونعمل على أن نكوّن منه رجلا متمسكا بالدين والأخلاق . وفى الدين الإسلامى كثير من القصص الخلقية ، قصص عظماء الإسلام ، والمثل العليا فى الأخلاق المحمدية التى يستطيع التلميذ أن يحتذيها ، ويقتدى[1] بها.

وإن التربية الخلقية فى نظرنا تعد الغرض الأسمى من التربية . والغرض من التربية الخلقية تكوين رجال كريمى الأخلاق ، أقوياء العزيمة ، مهذبين فى أقوالهم وأفعالهم ، نبلاء فى تصرفاتهم وخلقهم . ديدنهم الحكمة والفضيلة ، والإخلاص والطهارة ، والأدب والكمال . فروح التربية والحياة ، وروح البيت والمدرسة ، وروح المجتمع ينبغى أن تكون التربية الخلقية . ولا نبالغ إذا قلنا إن التربية هى الوصول إلى المثل الأسمى من الخلق الكامل فى العادات والأحوال والآداب فى هذه الحياة .

وقد أجمع علماء التربية وفلاسفتها فى القرن العشرين على أن الغرض الخلقى الذى يجب أن يرمى إليه المربى هو الغرض الحقيقى من التربية التى يصح أن نطلق عليها ذلك الاسم . وفى رأينا أنه ليس معنى هذا أن نقلل العنـــاية بالتربية الجسمية أو العقلية أو الاجتماعية

---

(١) ارجع إلى كتاب : (الطرق الخاصة فى التربية لتدريس اللغة العربية والدين ، الفصل الثانى عشر ، التعليم الدينى) صفحة ٢٧١ للمؤلف .

أو العملية أو العلمية ، بل معناه أن نعنى بالتربية الخلقية وَنكون الخلق الكامل ، كما نعنى بكل نوع من أنواع التربية ؛ فالطفل فى حاجة إلى قوة فى الجسم ، وقوة فى العقل ، وقوة فى الخلق ، و[illegible] بالمجتمع الذى ينتسب إليه ، ومهارة فى العمل ، ورغبة فى العلم والبحث ، بحيث يعنى بجسمه ، ويفكر بنفسه ، ويبحث وراء الحقيقة، ويقول الحق، ويدافع عن الحق، ويخلص فى عمله ويجيده ، ويراقب الله وضميره ، ويحب العلم لذات العلم ، ويضحى بمصلحته فى سبيل مصلحة المجتمع ، ويقوم بما يجب عليه نحو الوطن .

والغرض من التربية الخلقية تكوين رجال مهذبين ، وسيدات مهذبات ، ذوى إرادة قوية ، يتحلون بالفضيلة حبا للفضيلة ، ويتجنبون الرذيلة لأنها رذيلة ، ويفعلون الخير ابتغاء مرضاة الله ، ولكى نصل إلى هذا الغرض الخلقى يجب أن يكون البيت مهذباً ، والمدرسة كاملة ، والمجتمع كاملا(١) .

فابن سينا على حق فى حرصه على المناداة بالتربية الخلقية ، فالأخلاق هى كل شىء ، والحياة هى الأخلاق ، فالتربية الحديثة اليوم توجب على المدرس أن يذكر دائماً أننا لسنا فى حاجة إلى العلم فحسب ، ولكننا فى حاجة إلى كثير من الأخلاق الفاضلة ، كما يذكر أن تكوين العادات الخلقية الحسنة فى التلاميذ ، من الاعتماد على النفس ، والمثابرة على العمل ، ومراعاة العدالة فى كل أمر ، والتمرن على البر والتقوى ، والصدق فى القول ، والوفاء بالوعد ، والإخلاص فى العمل ، وأداء الواجب ، ومساعدة الضعيف ، والمحافظة على الوقت ــ أكثر فائدة للطفل من حشو ذهنه بمعلومات نظرية ، ربما لا يحتاج إليها فى الحياة العمليه . وكما أن الوقاية خير من العلاج فى عالم الطب فالمحافظة على الأخلاق خير من إصلاحها فى عالم الأخلاق.

ومما يدل على عنايته بالتربية الخلقية رأيه فى اختيار الصبية المرضية أخلاقهم فيما يلى :

---

(١) ارجع إلى كتاب (روح التربية والتعليم) للمؤلف ، صفحة ٣٩ ــ ٤١ .

اختيار الصبية المرضية أخلاقهم :

يرى ابن سينا : « أن يكون الصبي في مكتبه مع صبية حسنة آدابهم ، مرضية عاداتهم ؛ لأن الصبي عن الصبي ألقن ، وهو عنه آخذ ، وبه آنس » .

فابن سينا يرى أثر القدوة الحسنة ، والبيئة الطيبة ، والعادات المرضية ، وأثر التقليد ، في تربية الطفل تربية خلقية ؛ لأن الطفل يحاكي غيره من الصبيان في أقوالهم وأفعالهم وسلوكهم ؛ لأن نزعة المحاكاة نزعة فطرية في الطفل ، فهو يقلد غيره من تلقاء نفسه ، فيما يسمع ، ومايرى ، وما يقع تحت حسه ، ولهذا يجب أن نتخير البيئة التي يختلط بها الابن ، ونسأل عن أصدقائه الذين يتصل بهم ، ونحثه على حسن اختيارهم ، وعدم الاختلاط بأي طفل شرس أو وقح ، أو سيء الخلق ، أو منحرف ، أو شاذ في تصرفاته ؛ لأن « الصبي عن الصبي ألقن ، وهو عنه آخذ ، وبه آنس » . فهو سريع المحاكاة ، شديد التأثر بزملائه وأقرانه وإخوانه الذين يتعلمون معه في المدرسة ، أو يلعبون معه في الملعب ، أو يتصلون به في النادي والشارع والمجتمع .

فبالقدوة الحسنة يمكننا أن نبث في الأبناء والبنات أحسن العادات ، وأكرم الأخلاق ، ونغرس في نفوسهم الفضيلة ، وننفرهم من الرذيلة .

بالقدوة الحسنة نستطيع أن نعودهم الصلاة والصوم من الصغر ، ونعودهم النظافة والنظام ، والإحسان إلى الفقير ، وآداب الإسلام ، وأخلاقه من الطفولة ؛ لأن الطفولة أهم مرحلة في الحياة ؛ فهي أساس التربية . وكما يكون الأساس يكون البناء . وكما يكون الطفل يكون الرجل . والتعلم في الصغر كالنقش على الحجر . والتعلم في الكبر كالنقش على الماء هذا هو رأينا في تربية الطفل .

وابن سينا يستخدم الميل الفطري في الطفل إلى الاجتماع بغيره من الأطفال ، واتخاذه أداة فعالة من أدوات التربية الخلقية . ولكنه — كما قلنا — لا يطلق العنان للطفل ليجتمع بأي نوع من الأطفال ، بل يشترط أن يكون اجتماعه بأطفال طيبين .

وله غايات أخرى من اجتماع الطفل بمثل هؤلاء الأطفال ، فهو لابد أن يرى فيهم ما يثير حماسته ، فيندفع إلى اللحاق بهم ؛ ليبلغ شأوهم في الفهم وغيره .

ثم يقول وهو يحادث الصبيان :

« والمحادثة تفيد انشراح العقل ، وتحل منعقد الفهم ؛ لأن كل واحد من أولئك إنما يتحدث بأعذب ما رأى ، وأغرب ما سمع ، فتكون غرابة الحديث سببا للتعجب منه ، والتعجب منه سببا لحفظه ، وداعيا إلى التحدث ، ثم إنهم يترافقون ، ويتعارضون ، ويتقارضون الحقوق . وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة ، وفى ذلك تهذيب لأخلاقهم ، وتحريك لهممهم ، وتمرين لعاداتهم[1] » .

معاملة الأطفال ومراعاة مقدرتهم فى نظر الغزالى :

قال الغزالى[2] فى كتاب الإحياء مشيرا فى معاملة الأطفال إلى مراعاة أحوالهم ، وسنهم ، وأمزجتهم ، ومقدرتهم : « وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، كذلك المربى لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم ، وأمات قلوبهم . وإنما ينبغى أن ينظر فى مرض المريد ، وفى حاله ، وسنه ، ومزاجه ، وما تحتمله نفسه من الرياضة ويبنى على ذلك رياضته . »

وهذا ماينادى به علماء النفس والتربية اليوم ، من مراعاة مستوى الأطفال ، ومقدرتهم ، وميولهم ، وأمزجتهم ، ومن مراعاة الفروق الفردية بين الأطفال ، ووجوب ملاحظتها والتفكير فيها فى التدريس . فقد أثبتت الاختبارات العقلية ـ وبعبارة أخرى مقاييس الذكاء ـ أن هناك درجات متفاوتة بين عقول الأطفال الذين هم من سن واحدة ، ومن شعب واحد ، وجنسية واحدة ، بل الذين هم من أسرة واحدة . وليس الاختلاف بين التلاميذ ملموسا فى التكوين العقلى أو فى الذكاء الطبعى فحسب ، بل نراه فى الميول والرغبات أيضا ، وفيما يحبون وما يكرهون . وكما يختلفون فى الإدراك والتصور والتخيل والتذكر ، كذلك يختلفون فى طرق التفكير ، وفى القوة الجسمية ، والمقدرة العقلية .

---

(١) كتاب السياسة لابن سينا .

(٢) كتاب الإحياء ، ج ٣ ، ص ٥٢ من كتاب (رياضة النفس وتهذيب الأخلاق) .

وليعلم كل مدرس علما لا شك فيه أنه ليس هناك فصل من فصول الدراسة يتساوى تلاميذه فى الاستعداد العقلى والعلمى معا ؛ فدرجتهم العقلية ليست واحدة ، واستعدادهم لغذاء عقلى واحد جدُّ مختلف . فرأى علماء النفس أن من الواجب على المدرس أن يراعى تلك الفروق الظاهرة فى تدريسه ؛ لكى يكون ناجحا فى عمله ، وأنه يجب أن يعطى كل تلميذ ما يستطيع هضمه من الغذاء العقلى ، وأن نجاح المدرس فى مهنته يتوقف على قدرته على إيجاد ذلك الغذاء الذى يناسب مستوى التلميذ عقليًّا وعلميًّا . وكما تراعى فى التعليم حاجة البيئة والمجتمع يجب أن تراعى حاجة الفرد ، والفروق بين الأفراد فى التعليم .

ومن الخطأ الشائع بين المدرسين معاملة التلاميذ فى التدريس معاملة واحدة من غير تفرقة بين الأذكياء والمتوسطين والضعفاء منهم . ومن الواجب مراعاة الفروق الفردية بينهم ، ووضع كل تلميذ فى الموضع الذى يلائمه ، وإعطاؤه المادة التى يستطيع أن يدركها ويفهمها .

وقد أصاب الغزالى فى قوله : « وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، كذلك المربى لو أشار على المريدين بنمط[1] واحد من الرياضة[2] أهلكهم ، وأمات قلوبهم . وإنما ينبغى أن ينظر فى مرض المريد، وفى حاله ، وسنه ومزاجه، وما تحتمله نفسه من الرياضة ، ويبنى على ذلك رياضته » .

فالغزالى يرى أن يعامل كل تلميذ المعاملة التى تناسب مستواه العقلى والعلمى ، وتناسب حاله وسنه ، وطاقته ، ومقدرته . فهناك من المتعلمين الذكى الذى يفهم بالإشارة ، ومن يدرك الشىء بعد أن يذكر له مرة واحدة . ومن يفقه الدرس بعد أن يُعادَ له مرتين ، أو ثلاثا . فيجب أن يعامل كل فرد المعاملة التى تناسبه ، ويعالج العلاج الذى يلائمه ويصلح له .

(١) النمط : الجماعة من الناس أمرهم واحد : الطريقة الواحدة .

(٢) الرياضة : المحاولة والمعالجة .

العقاب فى نظر ابن سينا :

وإن ابن سينا لا ينسى وهو يقرر مبادئ التربية الخلقية أن يحدثنا عن رأيه فى العقاب . وبذلك يضع لنا صورة كاملة عن تربية الوليد ، وما ينبغى أن يؤخذ به فيقول :

« إنه من الضرورى البدء بتهذيب الطفل ، وتعويده ممدوح الخصال منذ الفطام ، قبل أن ترسخ فيه العادات المذمومة ، التى يصعب إزالتها ، إذا ما تمكنت فى نفس الطفل ، أما إذا اقتضت الضرورة الالتجاء إلى العقاب ، (فإنه) ينبغى مراعاة منتهى الحيطة والحذر ، فلا يؤخذ الوليد أولًا بالعنف ، وإنما بالتلطف ، ثم تمزج الرغبة بالرهبة ، وتارة يستخدم العبوس ، أو ما يستدعيه التأنيب ، وتارة يكون المدح والتشجيع أجدى من التأنيب ، وذلك وفق كل حالة خاصة ، ولكن إذا أصبح من الضرورى الالتجاء إلى الضرب ، ينبغى ألا يتردد المربى على أن تكون الضربات الأولى موجعة ، فإن الصبى يعد الضربات كلها هينة ، وينظر إلى العقاب نظرة استخفاف ، ولكن الالتجاء إلى الضرب لا يكون إلا بعد التهديد والوعيد ، وتوسط الشفعاء ؛ لإحداث الأثر المطلوب فى نفس الطفل[1] . »

وإن من يقرأ هذه القطعة الصغيرة فى تربية الطفل ، وتهذيبه وتعويده الخصال الحميدة ، والعادات الحسنة فى المرحلة المبكرة من حياته الأولى منذ الفطام ، قبل أن ترسخ فيه العادات القبيحة ، التى يصعب التخلص منها ، إذا ما تمكنت فى نفس الطفل — يجد أنه سبق فلاسفة التربية الحديثة فى القرن العشرين بآرائه الثمينة — بمئات السنين ، سبق (روسو ونروبل وبستالوتزى وسبنسر ، ونن ، وديوى وأدلر) فى المناداة بالعناية بتربية الطفل تربية حقة منذ السنوات الأولى من طفولته .

إن التربية الحديثة تضع الطفل فى المكان الأول من الأهمية فى التربية . والطفل قابل للتربية والتهذيب ، إذا وجد التربية الحقة فى الطفولة الأولى ، ووجد المربى الماهر ، والمربية الحكيمة ، فى البيت والمدرسة . وهو محتاج إلى من يفهمه ، ويفهم طبائعه وميوله ، محتاج إلى من

(١) كتاب السياسة لابن سينا .

يتعهد إرادته وقلبه ، ويحفظ روحه وعقله ، بالحكمة لا بالشدة ، ويربى غرائزه ونزعاته ، وإلى من يعطيه الفرصة والحرية فى أن يفكر ويتنفس ، وينمو ويعيش ، ويحيا حياة هانئة .

وإن من يتدبر رأى ابن سينا فى العقوبة يجد أنه منطقى فى معاملته ، حكيم فى عقوبته ، لايعامل من يستحقون العقاب من الأطفال معاملة واحدة ؛ فهو يعاقب كل مخطئ العقوبة التى تناسبه . ويرى مراعاة الحيطة والحذر عند الحكم على الطفل ، فإذا أخطأ للمرة الأولى استعمل معه الرفق واللطف ، لا القسوة والعنف .

ويجب أن يذكر المدرس أن هناك فرقا بين طفل وآخر فى طبعه ومزاجه ، وميوله وأخلاقه ، ويعرف تلاميذه معرفة حقة ؛ ليعامل كلا منهم المعاملة التى تليق به ، فمنهم من تكفيه الكلمة أو الإشارة ، ومن لايؤثر فيه إلا العقاب البدنى ، ومن لا يتأثر إلا بالعقاب الأدبى . ومنهم من يحزن كل الحزن لطرده يوما من المدرسة ، ومن يُسَرُّ كل السرور لغيابه عنها ، ومن يتألم إذا عوقب بالحجز آخر اليوم المدرسى ، ومن يجد مسرة فى هذا الحجز . هذا يحزّ الألم فى نفسه إذا قطعت درجة من سلوكه ، وذلك لايتأثر ولو قطعت منه عشر درجات(١) .

هب أن تلميذا ذكيا شديد الإحساس ، سريع التأثر قام بعمل وأخطأ فيه ، فهل يحسن أن يعاقب العقاب الذى يعاقب به تلميذ عرف بالبلادة والكسل ، وسوء الخلق ، وقلة التأثر ، أو يجب أن يعامل كل منهما بما يلائمه ، ويعاقب العقاب الذى يصلح له ؟ الحق أن كل تلميذ يعدُّ قضية مستقلة قائمة بذاتها ، يجب أن تنظر نظرا خاصا ، إذ أن ما يلائم هذا الطفل من العقاب ربما لا يلائم الآخر ، والذى يؤثر فى هذا قد يكون عديم الأثر فى ذاك .

ومن الخطأ أن نستمر فى تلك العادة ؛ عادة معاملة الأطفال جميعا معاملة واحدة فى العقاب ، من غير نظر إلى ما بينهم من فروق فى الأخلاق ، والطباع والعادات ، والأمزجة والبواعث . فمن الخطأ أن نعاقبهم عقابا واحدا ، من غير تفرقة بين تلميذ تكفيه كلمة ، وآخر لايقرع إلا بالعصا .

(١) ارجع إلى كتاب (الاتجاهات الحديثة فى التربية) ، الفصل العاشر ، ص ٢٩٦ — ٣٢٧ للمؤلف .

فيجب أن نفكر فى كل تلميذ ، ونعاقبه بما يناسبه . وإذا كان الغرض من العقوبة الإصلاح فلا بد من استعمال الحكمة فيها ، بوزن الذنب ، ومعرفة الحافز عليه ، بعد أن ندرس غرائز الطفل وميوله وأخلاقه ، ونفهم الجاهل بخطئه هذا الخطأ ؛ حتى يشعر بنتيجة فعله . وإذا شعر المخطىء بذنبه ، وكان واثقا بعطف المدرس نحوه ، مد يده طالبا تنفيذ العقوبة ، شاعراً بالعدالة ، ملتمسا الرحمة ، مصمما على التوبة وعدم العودة إلى ما فعل . وبذلك نصلح الجميع ، ونصل إلى الغرض الحقيقى من العقاب ، وهو إصلاح المذنب ، وتطهيره من ميله إلى الشر ، وتوجيهه إلى الطريق المستقيم ، وبذلك نبلغ الغاية التى نقصدها . هذا هو رأينا فى العقوبة ، وهذا ما يتطلبه علماء التربية اليوم .

وهذا ماقصده ابن سينا فى قوله : « تمزج الرغبة بالرهبة » بأن نأخذ الطفل على انفراد ، ونفهمه خطأه ، حتى يشعر بالخطأ فيندم ويعتذر ، فإذا لم يصلح معه الذوق والترغيب استعمل معه الرهبة ووسائل التخويف . وقد يكفى لإصلاح المخطىء أن تعبس فى وجهه ، أو تؤنبه وتوبخه . وتارة يكون المدح والتشجيع أجدى من التأنيب والتوبيخ . فكل تلميذ يعد قضية مستقلة كما قلنا تحتاج إلى بحث خاص ، وعلاج نافع . وتارة يكون المذنب مستهترا غير مكترث لأى عقوبة أو توبيخ أو تأنيب . فهنا يجب — فى رأى ابن سينا — الالتجاء إلى الضرب ، والعقوبة البدنية ، « على أن تكون الضربات الأولى موجعة » مؤلمة ، حتى لايظن أن الضربات سهلة هينة ، ولا ينظر إلى العقوبة نظرة استخفاف . ولكى يكون لهذه العقوبة أثرها الفعال فى نفس الطفل يقول ابن سينا : ولكن الالتجاء إلى الضرب لا يكون إلا بعد التهديد ، وتوسط الشفعاء » . فإذا لم يصلحه التهديد والتخويف والوعيد وتوسط الشفعاء عوقب عقوبة بدنية موجعة فى البدء ، حتى يتعظ ، ويرتدع غيره .

ويرى ألا يضرب الطفل على رأسه ، أو رقبته ، وأن نبتعد عن عينيه وأذنيه ووجهه حتى لايصاب بأى عاهة من العاهات .

ابن سينا والتحليل النفسى

يذهب علماء النفس إلى أن الغرض من التحليل النفسى هو الوصول إلى ما يتكون فى العقل الباطن ـ أى اللاشعور ـ من عقد أو مشكلات ، ثم العمل على إخراج هـذه العقد والمشـكلات إلى العقل الظاهر أى الشعور . والحـكمة فى ذلك تخفيف الضغط على النفس ، وبذلك يتخلص المريض من مرضه العقلى والعصبى .

وقد استخدم التحليل النفسى فى هذا العصر فى الأغراض الطبية وعلاج الأمـراض النفسية . ويذهب (فرويد) إلى أن العقل الباطن يتكون من مجموعة من الرغبات الشخصية المكبوتة المودعة فى أعماق النفس ، منذ الطفولة، ومن ذكريات ماضية أرغمت على الانتقال من الناحية الشعورية إلى الناحية اللاشعورية ، أى من العقل الظاهر، وهو الشعور إلى العقل الباطن ، وهو اللاشعور ، فلم تجد مأوى إلا حظيرة العقل الباطن .

والسبب فى ذلك أن هـذه الرغبات المكبوتة ، وتلك الذكريات المكتومة لا تلائم الحياة الاجتماعية ، ولا تناسب آداب المجتمع ، ولم يكن التحليل النفسى على هذا الوضع غريبا على ابن سينا ، فقد كان الشيخ الرئيس طبيبا نفسيًّا من الطراز الأول ، اشتهر فى عصره بمعالجة المرضى بطريقة التحليل النفسى .

ومما روى[1] عنه فى هـذا الصدد ، أن رجلا أصيب (بالماخوليا) ، وقد استبد به المرض إلى درجة أنه أصبح يعتقد أنه صار بقرة ، وقد امتنع عن الطعام والشراب مع بنى الإنسان ، ومن أجل ذلك أخذ الرجل يقلد الأبقار، فيخور[2] مثلها، ويذهب إلى حظائرها، ويتناول الأكل منها . واستمر الرجل على هذا النحو زمنا ، حتى ضعفت قواه وهزل جسمه ، وشحب لونه .

فعرضه ذووه على الأطباء ، ولـكنهم عجزوا عن علاجه . وكان ابن سينا فى ذلك الوقت قد طار صيته فى الآفاق ، وعرف بتطبيب مرضى العقول والأعصاب . فلما عرض عليه الرجل ، وفحص عن حاله ، قال له : ما بالك أيها الرجل ؟ وما الذى حل بك ؟

---

(١) ارجع إلى الجزء الأول من كتاب (علم النفس التربوى) للمؤلف وزميليه .

(٢) خار الثور خواراً : صاح . ومنه قوله تعالى : « فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار » .

فقال المريض : ليس بى شىء ، إلا أننى أصبحت بقرة تخور ، آكل ماتأكل ، وأعمل ما تفعل .

فقال ابن سينا : إذا كنت حقاً كذلك ، وأنت بقرة بالفعل ، فإنى سأذبحك .

فقال المريض : افعل ماتشاء .

فأمر ابن سينا بتقييد المريض بحبل متين، وألقاه على الأرض، وأمر بإحضار سكين حادة، ثم تقدم إليه ابن سينا ، وأراد أن يهوى بالسكين على رقبته ، ولكنه عندما قرب السكين من نحره ، قال : مابال هذه البقرة هزيلة ؟ إنها لاتصلح للذبح .

فقال المريض : لا ، إنها تصلح للذبح فاذبح .

فقال ابن سينا : كلا ، لن أذبحها حتى تمتلئ شحما ولحما .

فقال المريض : وماذا أفعل حتى أصير ممتلىء الشحم واللحم ؟

قال ابن سينا : تأكل كما يأكل الناس ، وتشرب كما يشربون .

فقال المريض : أو تذبحنى بعد ذلك ؟

قال ابن سينا : نعم .

ثم أخذ الرجل المريض على نفسه عهدا وميثاقا ليفعلنّ ذلك ، وأخذ يأكل ويشرب كما يفعل الناس . فعادت إليه صحته ، وقوى جسمه ، وبذلك ارتد إليه عقله ، وزال عنه المرض ، وشُفى تماما ؛ لأن مايؤثر فى الجسم يؤثر فى العقل ، والعقل السليم فى الجسم السليم ، كما أثبت علماء النفس .

ثم زار ابنُ سينا هذا المريض بعد شفائه ، فلما رآه سليم الجسم والعقل ، قال له مداعبا : ما بال هذه البقرة قد سمنت ؟

قال الرجل : نعم ، وقد أصبحت عاقلة .

وبهذه الوسيلة عالجه ابن سينا علاجا طبيعيا ؛ فقد عرف علته وسببها ، وعرف علاجه ، وتأكد أن الرجل كان يعيش معيشة غير طبيعية ، فكان يأكل كما تأكل الأبقار ، وكان غذاؤهُ لا يحتوى على المواد الغذائية الضرورية للصحة ، فضعف جسمه وأدى ذلك إلى ضعف

عقله ، حتى صار يعتقد أنه بقرة . فلما أرشده إلى تناول الطعام والشراب كما يتناول الإنسان، حتى يسمن ، نفذ النصيحة ، فقوى جسمه ، وعادت إليه صحته ، فعاد إليه عقله ، وتفكيره الطبيعى ؛ لأنه عاش كما يعيش الإنسان العاقل .

ومما يروى أيضا أن مريضا من الأمراء عُرض عليه ، بعد أن أعيا الأطباء أمرُه ، فلما رآه وتحدث إليه فى مرضه ، تبين للشيخ الرئيس أن الأمير مريض بالحب ، ولكن المريض لم يرض أن يبوح لطبيبه باسم محبوبته، ولما عرف ابن سينا أن شفاء المريض متوقف على معرفة اسم من يحبها ؛ كى يزيل ما بينه وبينها من وجدانات وعواطف كامنة فى نفسه ، قد ارتبطت بتلك المحبوبة — صمم على معرفة اسمها ، ومن تكون هى بأى طريقة ، وقد تجلت عبقرية ذلك الطبيب النفسى ، فأمر بإحضار أكبر رجال مدينة الأمير سنا ، ثم أخذ يناقشه إلى أن وصل إلى معرفة اسم الفتاة التى يحبها الأمير ، وكان يخفى اسمها .

وفى أثناء هذه المحاورة مع الرجل المسن كان الشيخ الرئيس قابضا على ذراع المريض ، متتبعا نبضه . وكان نبض المريض يشتد كلما اقترب ابن سينا من التعرف على الفتاة . وحينما عرف الاسم ازداد نبض المريض بسرعة . وقد تبين من ذلك أن الفتاة التى كان يحبها الأمير ، هى ابنة عمه ، وأخيراً عمل أهله على أن تزف إليه ، وبذلك شفى الأمير .

إن فى هاتين الروايتين ما يدل على معرفة ابن سينا بالتحليل النفسى . ولا غرابة فى ذلك ؛ فالشيخ الرئيس كان مولعاً بالفلسفة ، وهو صاحب القصيدة العينية التى ضمنها آراءه فى النفس ، وأولها :

هَبَطت إليكَ من المحلّ الأرفع ورقاء ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ (١)

وهو صاحب رسالة القوى النفسانية ، ورسالة النفس الناطقة .

أثر ابن سينا فى الثقافة والتأليف :

إن ابن سينا هو فيلسوف الشرق العظيم ، وقد أنصفه المتقدمون والمتأخرون من علماء

(١) ارجع إلى كتابنا : (أعلام الثقافة العربية ، ونوابغ الفكر الإسلامى) ، الجزء الأول ، ص ١٠٣ .

العرب والإفرنج ، فاعترفوا بأنه من أصحاب الثقافة العالية ، والاطلاع الواسع ، والمواهب النادرة ، والعبقرية الفذة ، اشتغل بالطب ، والفلسفة ، والرياضيات ، والفلك ، والمنطق . وقد ترك فى كل ذلك مجهوداً عظيما ساعد فى رقى الإنسانية ، ويلقبه بعض كتاب الفرنجة بأرسطو[١] الإسلام وأبقراطه[٢] . وكان يستثمر كل دقيقة من حياته استثمارا تاما ؛ فكان يشتغل بشئون الدولة ، ويشتغل بالتدريس ، والتأليف ، ويعالج المرضى . وقد أحصى العلامة الألمانى (وستنفلد) من مؤلفات ابن سينا مائة وخمسة من الكتب ، فى علوم الطب والفلسفة والدين ، والفلك ، واللغة ، والأدب ، والموسيقا ، والهندسة ، والمنطق ، والعلوم الطبيعية وغيرها .

ولقد أضاف الشيخ الرئيس كثيرا إلى ثروة البشر العلمية ، على الرغم من أنه عاش فى عصر كثرت فيه الفتن والاضطرابات . وتمتاز مؤلفاته بمادتها الغزيرة ، وبعقلية ابن سينا الجبارة ، وتفكيره واستنباطه وتجاربه ، كما تتسم بالدقة والعمق فى البحث والترتيب . ولذلك يقول (الشهرستانى) : « إن طريقة ابن سينا أدق عند الجماعة ، ونظره إلى الحقائق أغوص » .

وقد أحصى الأب (جورج شحاته قنواتى) لابن سينا مائتين وستة وسبعين كتابا ورسالة ، أودعها كتابا ضخما له .

وكان لمؤلفات ابن سينا أثر كبير فى نهضة أوروبة العلمية ، فامتدت آفاق النظر عند الغربيين ، وأصبح للفكر العربى أثر بعيد فى بلاد الفرنجة .

وكانت فلسفة ابن سينا تدرس فى أكثر الجامعات الأوروبية ، وما زال جانب منها إلى اليوم يدرس بالجامعات الكاثوليكية .

---

(١) أرسطو ، أو أرسطاليس (٣٨٤ ق م — ٣٢٢ ق م) ، هو تلميذ لأفلاطون . وكان أرسطو معلما للإسكندر الأكبر .

(٢) أبقراط : طبيب طبيعى مشهور ، من أكابر حكماء اليونان . ولد سنة ٤٦٠ ق م .

مؤلفات ابن سينا :

ومن مؤلفاته الشهيرة : القانون فى الطب ، والشفاء والإشارات فى الحكمة والفلسفة ، وكتاب السياسة فى التربية وغيرها .

وكان كتاب القانون المرجع الأول فى الطب فى الجامعات الأوروبية ، وخاصة جامعة مونبلييه حتى أواخر القرن الثامن عشر . وقد قسم فيه الأمراض إلى رأسية ، وصدرية وباطنية ، وعصبية ، ونسائية وتناسلية ، وشرح كل قسم شرحا دقيقا ، وفصل كل مرض تفصيلا وافيا ، متحدثاً عن نشأته وأسبابه ، وأعراضه ، ومداواته ، ونتائجه . ولهذا الكتاب مكانة فريدة فى الأدب الطبى فى العالم .

ويقول (السير وليام أوسلر) فى القانون لابن سينا : « إنه كان الإنجيل الطبى لأطول فترة من الزمان » . وقد ترجم إلى اللغة اللاتينية . وفى المكتبة الأهلية بباريس نسخة من كتاب القانون طبعت فى ورق باللغة العربية فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى . وهو جوهرة لا يعادلها ثمن .

ولقد أدخل ابن سينا فى علم العقاقير الطبية عددا كبيرا من الأدوية النافعة ، والعقاقير الطبية المفيدة ، التى لم تكن مستعملة من قبل . وقد ابتكر ما يشبه كيس الثلج فى عصرنا هذا . وهو أول طبيب قام بحقن المريض تحت الجلد ، وأول من استخدم التخدير لإجراء العمليات الجراحية . ولو لم يكن لابن سينا غير هذين الكشفين لكفاه ذلك فخرا ، واعترافا بفضله على الإنسانية .

ولو وازنا بين ما كان يقوم به ابن سينا من أنواع العلاج ، وطرق الفحص عن المرض داخل البلاد العربية ، وبين ما كان يصنعه الأطباء خارج حدود تلك البلاد لأدركنا الفرق العظيم بين الأمة العربية فى ذلك العهد ، وغيرها من الأمم المجاورة ، التى كانت تعيش على الخرافات والأوهام ؛ فقد كان المريض فى تلك البلاد التى يسودها الجهل والظلام يصلب على شجرة ، ثم ينهال عليه الطبيب ومساعدوه بالضرب ، حتى يخرج الشيطان من جسمه ، وهو المرض فى زعمهم .

وقد حلت كتبه الفلسفية محل كتب أرسطو عند فلاسفة الأجيال اللاحقة. قال ابن خلدون: « وتجد الماهر منهم عاكفا على كتاب الشفاء والإشارات والنجاة » .

ذلك ابن سينا الفيلسوف والطبيب والمربي والعالم النفسي ، نسوق ترجمته إلى الشباب ؛ كي يقتدوا بأمجاد عظمائهم، وتستنير بصائرهم بما تركوه من المراجع والعلم والفلسفة ؛ حتى يشيدوا حاضرا جديداً مستمدا من وحي ذلك الماضي التليد .

في أيامه الأخيرة :

يقال إنه اغتسل ، وتاب ، وتصدق بماله على الفقراء، وردّ المظالم على من عرفه ، وأعتق مماليكه ، وعكف بقية حياته على قراءة القرآن ، وكان يختمه مرة كل ثلاثة أيام . ومازال كذلك حتى وافته منيته بهمذان في يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ٤٢٨ هـ، وهو في الثامنة والخمسين من عمره . وقبره بهذه المدينة ، وما زال يزار إلى اليوم .

الفصل التاسع عشر

الإمام الغزالى وآراؤه فى التربية

هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى، حجة الإسلام، والمناضل عنه، وشيخ الصوفيين، وإمام المربين، صاحب كتاب إحياء علوم الدين.

ولد فى عام ٤٥٠ هـ وتوفى بالطابران عاصمة طوس فى ١٤ من جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ (١٠٥٨ م — ١٨ من ديسمبر سنة ١١١١ ميلادية).

كان أبوه فقيرا صالحا، لا يأكل إلا من كسب يده فى غـــزل الصوف، ويطوف على الفقهاء ويجالسهم، ويجتهد فى الإحسان إليهم، والنفقة بما يمكنه عليهم.

نشأته :

نشأ بطوس، ودرس بهـــا مبادئ العلوم، ثم سافر إلى نيسابور، وتلقى العلم على إمام الحرمين أبى المعالى الجُوَينى، إمام الشافعية إذ ذاك، وشيخ عصره، وثابر وجد فى دراسته حتى عرف بين زملائه بالذكاء وسعة الاطلاع، وأعجب به أستاذه الجوينى، وصار يفاخر به العلماء. وأصبح الغزالى من علماء الشافعية، وكبار الأشعريين. واشتهر بحضور البديهة، والقدرة على الحوار والمناظرة، ودفاعه عن الإسلام والأخلاق الإسلامية، والروح الدينى.

ولما توفى أبو المعالى الجوينى(١) ترك الغزالى نيسابور، وذهب إلى العسكر بالقرب منها، والتقى بالوزير نظام الملك، وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقى. وكان مـــع نظام الملك عدد من كبار العلماء والفقهاء فاتصل بهم، واشترك معهم فى كثير من المناظرات والمناقشات، فظهر عليهم، وقهرهم، وأقروا له بالفضل، والعلم الغزير، والذكاء النادر، وصارت له منزلة كبيرة لدى الوزير نظام الملك، فعهد إليه بالتدريس بمدرسته النظامية ببغداد وهى كالمعاهد العليا فى عصرنا هذا، لايدرس فيها إلا كبار الطلبة الذين أوشكوا على الانتهاء من علومهم. فتولى الغزالى التدريس بها، سنة ٤٨٤ هـ.

(١) توفى سنة ٤٧٨ هـ.

وأعجب الخلقَ حسنُ كلامه، وكمال فضله، وسعة علمه، وفصاحة لسانه، ونكته الدقيقة، وإشاراته اللطيفة، فأحبوه، وأحلوه محل العين، وجعلوه فى قلوبهم. واستمر يدرِّس بالمدرسة النظامية مدة، عظيم الجاه، عالى التربية، تضرب به الأمثال، إلى أن ترك ما فى الدنيا وراء ظهره، وقصد بيت الله الحرام للحج، فحج، وتوجه إلى الشام.

مكث الغزالى أربع سنين يدرِّس بالمدرسة النظامية ببغداد، ثم ترك منصبه وزهد فى الحياة، وفضل العزلة والاعتكاف عن العالم الموبوء، وسافر إلى مكة للحج ثانية سنة٤٨٨هـ، ثم رحل إلى دمشق، ومكث مدة بعيدا عن الدنيا وملذاتها متجردا عن مسرات الحياة الفانية. ترك الدنيا وراء ظهره وأقبل على الآخرة يعامل الله فى سره وجهره، ثم ذهب إلى مصر ومكث بالإسكندرية مدة، ثم رجع إلى وطنه بطوس.

وهنا قضى وقته فى العبادة والتأليف، والتدريس بنيسابور، وإرشاد الصوفية، والأعمال الخيرية. وتوفى بالطابران قصبة طوس سنة ٥٠٥ هـ.

مؤلفاته:

ترك الغزالى ثروة علمية روحية دينية، وألف أكثر من سبعين كتابا فى فقه الشافعية، والمناظرة، والدفاع عن الدين الإسلامى، والرد على الفلاسفة. وأحسن كتبه إحياء علوم الدين، وهو أربعة أجزاء.

آراؤه فى التربية والتعليم

الغرض من التربية فى نظر الغزالى:

يرى الغزالى «أن الغرض بطلب العلوم التقرب إلى الله تعالى، دون الرياسة والمباهاة والمنافسة»[1].

فالغزالى يرى أن الغرض من التربية والتعليم التقرب إلى الله، دون التطلع إلى الرياسة،

---

(١) بيان وظائف المرشد المعلم ص ٥٠ من الجزء الأول من الإحياء.

والتفكير فى الوظائف الكبيرة ، والتفاخر والتظاهر والمنافسة التى تؤدى إلى الحقد والبغضاء والكراهية، ولا عجب ؛ فقد كان الغزالى زاهدا فى الدنيا، قانعا كل القناعة ، يفكر فى الآخرة أكثر من تفكيره فى الدنيا . وقد أرسله صديق أبيه إلى المدرسة الإسلامية ، ومعه أخوه أحمد ؛ كى يستطيعا أن يعيشا ويجدا ضروريات الحياة، فى أثناء تعلمهما بالمدرسة . وقد كانت المدرسة الإسلامية إذ ذاك تقوم بالإنفاق على الطالب ،وتتكفل بطعامه وشرابه ومسكنه وملابسه وعلاجه ، فى الوقت الذى يتفرغ فيه للتعلم . فقال الغزالى : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله » .

فالغزالى يرى أن الدنيا كلها لا أصل لها ؛ لأنها فانية ولا بقاء لها ، وإن الموت يقطع نعيمها ، وأنها دار ممر لا دار مقر ، وأن الآخرة دار مقر ، لا دار ممر . وأن الموت منتظر فى كل ساعة ، وأن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة ، حتى تعظم درجته عند الله، ويتسع نعيمه فى الجنان .

وقال : « ومهما كان الأب يصون ولده عن نار الدنيا ، فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى . وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق » .

ومن أقواله : « الخلق الحسن صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين ، وثمرة مجاهدة المتقين ، ورياضة المتعبدين » .

العلم لذات العلم :

وقال الغزالى : « إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذا فى نفسه ، فيكون مطلوبا لذاته ، ووجدته وسيلة إلى الدار الآخرة وسعادتها ، وذريعة إلى القرب من الله تعالى ، ولا يتوصل إليه إلا به . وأعظم الأشياء رتبة فى حق الآدمى السعادة الأبدية ، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها . ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل ، فأصل السعادة فى الدنيا والآخرة هو العلم ، فهو إذاً أفضل الأعمال » .

التربية الإسلامية تجمع بين الدين والدنيا :

قال الغزالى : « وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين ، والالتحاق بأفق الملائكة ، ومقارنة الملأ الأعلى ، هذا فى الآخرة ، وأما فى الدنيا : فالعز والوقار ، ونفوذ الحكم على الملوك ، ولزوم الاحترام فى الطبائع . . . » .

والغرض من التربية فى نظره يتجلى فى قوله : « إن العلم عبادة القلب ، وصلاة السر ، وقربة الباطن إلى الله تعالى » .

والتربية فى رأيه هى : « إخراج الأخلاق السيئة ، وغرس الأخلاق الحسنة » .

رأيه فى فضل العلم والتعليم والتعلم

فضيلة العلم[١] :

يستشهد الغزالى على أن العلم فضيلة بكثير من الشواهد نذكر منها قوله عز وجل : « شهِدَ اللهُ أنه لا إلهَ إلا هو والملائكةُ وأولُو العلم قائماً بالقسطِ »[٢] . فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثَنّى بالملائكة ، وثلَّث بأهل العلم . وناهيك[٣] بهذا شرفا وفضلا ، وجلاء ونبلا .

قال الله تعالى : « يرفع اللهُ الذين آمنوا منكم ، والَّذِينَ أُوتُوا العلمَ درجاتٍ »[٤] .

وقال عز من قائل : « قُل هل يَستوِى الَّذِينَ يَعلمونَ والَّذِين لا يَعلمونَ[٥] » ؟

وقال تعالى : « إنَّما يَخشَى اللهَ مِن عبادِه العلماءُ » .

وقال الخبير العليم « وتلكَ الأمثالُ نضربُها للناسِ ، وما يَعقِلُها إلا العالِمُون[٦] » .

وقال تباركت أسماؤه : « ولقد جئناهم بكتاب فصَّلناهُ على علمٍ[٧] » .

وقال تقدست صفاته : « فَلَنَقُصَّنَّ عليهم بعِلْمٍ[٨] » .

---

(١) ارجع إلى كتاب الإحياء ج ١ ، ص ٥ — ٨ (٢) سورة آل عمران : ١٨

(٣) يقال : هذا رجل (ناهيك) من رجل معناه أنه ، بجده وغنائه ينهاك عن تطلب غيره .

(٤) سورة المجادلة : ١١ (٥) سورة الزمر : ٩ (٦) سورة العنكبوت : ٤٣ .

(٧) سورة الأعراف : ٥٢ (٨) سورة الأعراف : ٧

وقال جل شأنه : « بل هو آياتٌ بيِّناتٌ في صدور الذينَ أُوتُوا العلمَ[1] » .

وقال العزيز الحكيم : « خلقَ الإنسانَ علَّمه البيانَ[2] » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » . ومن المعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك النبوة .

وقال عليه الصلاة والسلام : « يستغفر للعالِم ما في السموات والأرض » . وأى منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له ، فهو مشغول بنفسه ، وهم مشغولون بالاستغفار له .

وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم : « لموتُ قبيلة أيسرُ من موت عالم » . وقال عليه السلام : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » .

والمراد بالعالم في عصرنا العالم الصالح التقيّ ، العالم العامل بكتاب الله ، وسنة رسول الله ، لا الحاصل على شهادة علمية أو دينية .

ومن الآثار في فضيلة العلم : قول على بن أبي طالب رضى الله عنه لكميل : « يا كميل ، العلم خير من المال ؛ العلم يحرسك وأنت تحرس المال . والعلم حاكم ، والمال محكوم عليه . والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق » .

وقال على أيضا رضى الله عنه : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد . وإذا مات العالم ثُلم في الإسلام ثُلمة[3] لا يسدها إلا خلف منه .

وقال رضى الله عنه نظما :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهدى لمن استهدى أدلّاءُ
وقدرُ كل امرئ ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
ففز بعلم تعش حيًا به أبدا ... الناس موتى ، وأهل العلم أحياءُ

(١) سورة العنكبوت : ٤٩ (٢) سورة الرحمن : ٣

(٣) الثُلمةُ : الخللُ في الشيء ، وثَلَمَهُ يثلِمهُ : كسرهُ من شَفَتِه .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خيِّرَ سليمان بن داود عليه السلام بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ، فأعطِىَ المالَ والملكَ معه .

فالإنسان إنسان بعلمه ، لا بقوة شخصه ، فإن الجمل أقوى منه ، ولا بعِظَمه ؛ فإن الفيل أعظم منه ، ولا بشجاعته ؛ فإن الأسد أشجع منه . ولم يخلَق الإنسان إلا للعلم .

وإن غذاء القلب العلم والحكمة ، وبهما حياته ، كما أن غذاء الجسد الطعام . ومن فقد العلم فقلبه مريض ، وموته لازم ، ولكنه لا يشعر به ؛ إذ حب الدنيا وشُغُله بها ، أبطلَ إحساسه .

وقال الحسن رحمه الله : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء ، فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء .

ولا يولد أحد عالما ، وإنما العلم بالتعلم .

وقال الأحنف رحمه الله : كاد العلماء أن يكونوا أربابا ، وكل عزٍ لم يُوطَّد بعلم فإلى ذل مصيره .

وقال بعض الحكماء : إذا مات العالم بكاه الحوت فى الماء ، والطير فى الهواء ، ويُفقَدُ وجهُه ، ولا يُنسى ذكره .

فضيلة التعلم (١) ، وطلب العلم لدى الغزالى :

قال تعالى : « فاسألوا أهلَ الذِّكر إن كُنتُم لَا تَعلَمونَ (٢) . » .

وأهل الذكر : هم أهل العلم ، هم العلماء .

وقال عز وجل : « فلولا نفَرَ مِنْ كلِّ فرقةٍ مِنهم طائفةٌ ليتفَقَّهوا فى الدينِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من سلكَ طريقا يطلبُ فيه علمـــا سلك اللهُ به طريقا إلى الجنة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الملائكةَ لتضعُ أجنحتَها لطالب العلم رضاً بما يصنع » .

(١) الجزء الأول من الإحياء : ص ٩ .

(٢) سورة الأنبياء : ٧ ، وسورة النحل : ٤٣ .

وقال عليه السلام : « لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة » .

وقال الرسول صلوات الله عليه : « اطلبوا العلم ولو بالصين » .

وقال المصطفى : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام فبينه وبين الأنبياء فى الجنة درجة واحدة » .

وقال عمر رضى الله عنه : موت ألف عابد ، قائم الليل ، صائم النهار ، أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه .

وقال بعض الحكماء : إنى لا أرحم رجالا كرحمتى لأحد رجلين : رجل يطلب العلم ولا يفهم ، ورجل يفهم العلم ولا يطلبه .

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : لأن أتعلم مسألة أحب إلىّ من قيام ليلة .

وقال أيضا : العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، وسائر الناس همج لا خير فيهم .

وقال أيضا : كن عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن الرابع فتهلك .

وقال أيضا : من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص فى رأيه وعقله .

وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه : طلب العلم أفضل من النافلة[1] .

وقال ابن عبد الحكم رحمه الله : كنت عند مالك أقرأ عليه العلم ، فدخل الظهر ، فجمعت الكتب لأصلى . فقال : ياهذا ، ما الذى قمت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحت النية .

مهنة التعليم والإرشاد فى نظر الغزالى :

يرى الغزالى أن مهنة التعليم أشرف مهنة ، وأفضل صناعة يستطيع الإنسان أن يتخذها حرفة له .

ويستدل على ذلك بكثير من الأدلة النقلية ، ومنها أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم ، فرأى مجلسين : أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ، ويرغبون إليه . وفى الثانى

---

(١) عطية الطوع .

جماعة يعلمون الناس ، فقال : « أما هؤلاء فيسألون الله، فإن شاء أعطاهم ، وإن شاء منعهم. وأما هؤلاء فيعلِّمون الناسَ وإنما بعثتُ معلماً » .

ثم ذهب إليهم ، وجلس معهم .

ومنها أيضا ما روى عن الرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: « على خلفائى رحمة الله». فقيل له : ومن خلفاؤك ؟

فقال : « الذين يحيون سنَّتى ، ويعلمونها عباد الله » .

كما يستدل بكثير من الأدلة العقلية ، ومنها : أن شرف الصناعة يعرف بشرف محلها ، كفضل الصياغة ـ صياغة الذهب ـ على الدباغة ؛ إذ محل الأولى الذهب ، ومحل الثانية جلد الميتة . ولا شك أن لصناعة التعليم من شرف المحل أوْفَى حظ ، وأتم نصيب ، فإن المعلم متصرف فى قلوب البشر ونفوسهم . ولايخفى أن أشرف مخلوق على الأرض هو الإنسان ، وأن أشرف جزء فى الإنسان هو قلبه . والمعلم مشتغل بتكميل القلب وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عز وجل .

والتعليم فى نظر الغزالى هو : إفادة العلم ، وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة ، وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة(١) .

وإننا نعتقد أن الإسلام دينَ علم ونور، لا دين جهل وظلمة، وقد ذكر الغزالى كثيرا من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية التى تحث على نشر العلم ، وتعليم غير المتعلمين من النشء وإرشادهم إلى أن يدرسوا ويبحثوا ، ويبينوا للناس الخير من الشر ، والحسنَ من القبيح ، والطيب من الردىء ، والحلال من الحرام .

ومن الآيات التى ذكرها(٢) قوله تعالى :

« وَلِيُنْذِروا قَومَهم إذا رَجَعوا إليهم لَعلَّهم يَحذَرونَ » .والمراد بالإنذار : هو تعليم قومهم ، وإرشادهم إلى الخير .

---

(١) ارجع إلى إحياء علوم الدين ، جـ ١ ، ص ١١ ــ ١٢ .

(٢) ارجع إلى الجزء الأول من الإحياء ص ٩ ــ ١١ (فضيلة التعليم) .

« وَإذ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلناسِ وَلَا تَكْتُمُونَه[1] » .
وهو إيجاب للتعليم ، وتبيين الكتاب للناس ، وعدم كتمانه عنهم . والميثاق : العهد .
« وإنَّ فَرِيقاً مِنهم لَيكتُمونَ الحقَّ ، وهم يَعلمونَ » . وهو تحريم لكتمان العلم .
« وَمَن أَحسَنُ قولًا مِمَّن دَعَا إلَى اللهِ وعَمِلَ صالحاً »[2] .
« أُدْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكمةِ وَالموعِظةِ الحَسنَةِ »[3] .
« ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكمَةَ » .

ومن الأحاديث الشريفة قوله صلى الله عليه وسلم :
« ما آتَى اللهُ عالِماً عِلماً إلّا وأخذ عليه من الميثاق[4] ما أخَذَ على النبيين أن يُبَيِّنُوهُ للناسِ ولا يَكتموهُ » .
« لأن يَهدِيَ اللهُ بك رجلًا واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها » .
« من تعلمَ باباً من العلم ليعلِّمَ الناس أُعطِيَ ثواب سبعين صديقا » .
« من علِمَ علماً فكتمَهُ أَلجمَهُ اللهُ يومَ القيامة بلجامٍ من نارٍ » .
« إنَّ اللهَ سبحانَه وملائكته وأهلَ سمواتِه وأرضِه حتى النملة فى جحرِها ، وحتى الحوتِ فى البحر لَيُصَلُّونَ على معلِّم الناسِ الخيرَ » .
« الدالُّ على الخيرِ كفاعِله » .
« من دلَّ على خير فله مثلُ أجرِ فاعلِه » .
« لا حسد إلا فى اثنتين : رجلٍ آتاهُ اللهُ عز وجلَّ حكمةً فهو يقضى بها ويعلِّمها الناسَ ، ورجلٍ آتاه الله مالا فسلطه على هلَكَتِه[5] فى الخير » .

ومن الآثار التى تحث على الإرشاد إلى الخير ، وتعليم الناس ونصحهم نذكر ما يأتى :
قال عمر رضى الله عنه : من حدث حديثا فعمل به فله مثل أجرِ من عمل ذلك العمل .

---
(١) سورة آل عمران : ١٨٧ (٢) سورة فصلت : ٣٣
(٣) سورة النحل : ١٢٥ (٤) العهد . (٥) إنفاقه .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : معلم الناس الخير يستغفر له كل شىء حتى الحوت فى البحر .

وقال عطاء رضى الله عنه : دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكى ، فقلت : مايبكيك؟ قال : ليس أحد يسألنى عن شىء .

وقيل : العالم مصباح زمانه ، يستضىء به أهل عصره .

وقال الحسن رحمه الله : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم ؛ أى أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية .

وقال عكرمة : إن لهذا العلم ثمناً . قيل : وما هو؟ قال : أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه . وقيل : علم علمك من يجهل ، وتعلم ممن يعلم ماتجهل ؛ فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت ، وحفظت ما علمت .

فى التعليم والتعلم :

وفى التعليم والتعلم قيل : تعلموا العلم ؛ فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قُربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة ، يُقتدى بهم ، أدلة فى الخير ، تُقتصُّ آثارهم ، وتُرمق أفعالهم . وترغب الملائكة فى خلتهم (صداقتهم) ، وبأجنحتها تمسحهم؛ لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلَم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار ، والدرجات العلا . وبالعلم يُعبد الله ، وبه يُوحد ، وبه يُمجد ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام . وهو إمام والعمل تابعه . يُلهَمه السعداء ، ويُحرَمُه الأشقياء .

وإن العلم يُقتنى كما يقتنى المال . فمن علِمَ وعمِل وعلَّم فهو الذى يدعَى عظيما فى ملكوت السماء ؛ فإنه كالشمس تضىء لغيرها ، وهى مضيئة فى نفسها ، وكالمسك الذى يطيب وهو

طبيب . وإن من يعلِّم غيره ولا يعمل بعمله كالمِسَنِّ الذى يشحذ[1] غيره ولا يقطع ، أو كالإبرة التى تكسو غيرها وهى عارية ، أو ذبالة المصباح التى تضىء لغيرها وهى تحترق .

ما هو إلا ذُبالةٌ[2] وَقَدَت[3] تضىء للناس وهى تحترق[4]

آداب المتعلم فى رأى الغزالى :

(١) لا ينبغى لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ، أو يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين ؛ فالحكمة ضالة المؤمن ، يغتنمها حيث يظفر بها .

العلم حرب للفتى المتعالى كالسيل حرب للمكان العالى

فالعلم لاينال إلا بالتواضع ، وحسن الإصغاء ، وإلقاء السمع . قال عز وجل : « إنَّ فى ذلك لَذِكرَى لِمَنْ كان له قلبٌ ، أو ألقى السمعَ وهو شهيدٌ » .

ومهما أشار عليه المعلم بطريق فى التعلم فليقلده ، وليدَعْ رأيه ؛ فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه فى نفسه .

فلكى ينتفع فى نظرنا بالدراسة يجب أن يكون قابلا للعلم ، قادرا على الفهم ، مصغيا كل الإصغاء إلى أستاذه ؛ ليستقبل كل ما ألقى إليه وما سمعه ، بصدر رحب ، وسرور جم ، وشكر لمعلمه .

(٢) وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا ، فكذلك حق تلاميذ الرجل الواحد التحاب والتوادد ، لا التحاسد والتباغض . قال تعالى : « إنما المؤمنون إخوةٌ » .

فهو يدعو المتعلمين إلى المودة والمحبة والتعاون ، لا المنافسة والحقد والكراهية ، يدعو إلى الصداقة البريئة ، والأخوَّة المخلصة ، والتودد تقربا إلى الله .

(٣) أن يبتعد فى أول دراسته عن الخلافات بين المذاهب فى المسائل العلمية ؛ لأن

---

(١) شحذ السكين : حده . (٢) الذبالة : الفتيلة . (٣) اتقدت : أضاءت .

(٤) الإحياء جـ ١ ص ٤٩ (بيان وظائف المرشد المعلم) .

الخوض فى العلم يدهش عقله ، ويحير ذهنه ، ويجعل رأيه فاتراً ، ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع . وإن الأعمى لا يصلح لقود العميان .

وإننا نوافقه على هذا الرأى ، فالتلميذ يجب أن يبدأ بالسهل ، وينتقل منه إلى الصعب ، ويترك الخلافات العلمية ، والآراء المتشعبة ، حتى لايقف الطالب فى حيرة ، ولا يصل اليأس إلى قلبه . ووظيفة المدرس أن يسهل الصعب ، ويوضح الخفى ، ويرشد المتعلم إلى الطريق السهل .

(٤) ألا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ، ولا نوعا من أنواعه ، إلا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه ، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه ؛ فإن العلوم متعاونة ، وبعضها مرتبط ببعض .

وإننا نرى أنه يقصد بهذا أن يعرف الطالب فى مرحلة الثقافة شيئا عن كل شىء ، فإذا أراد التخصص فى الدراسة والتبحر فيها عرف كل شىء ، أى كل صغيرة ودقيقة عن علم واحد من العلوم . وهذا ما ننادى به اليوم فى التربية ؛ لأن الحياة قصيرة ، وطاقة الإنسان محدودة ، ولا يستطيع أن يجيد أكثر من فرع واحد من إحدى المواد .

واجب المعلم المرشد :

(١) يجب على المعلم الشفقة على المتعلمين ، وأن يجريهم مجرى بنيه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده » .

وهذا ما ندعو إليه فى التربية الحديثة اليوم ، فواجب المربى أن ينظر إلى تلاميذه نظرته إلى أبنائه ، ويفكر فيهم وفى وقتهم ومستقبلهم كما يفكر فى أولاده ، ويعمل على إفادتهم والنهوض بهم ، ويعاملهم معاملة كلها عطف ورأفة .

ويجب أن يحبهم محبته لأبنائه ، ويفكر فيهم كما يفكر فى أولاده . ولا تنتظر من أبنائك وبناتك الكمال إلا إذا كنت كاملاً . لا تنتظر منهم التحلى بالأخلاق الكريمة إلا إذا تحليت بها .

وإن المدرس مهما يكن متينا فى مادته، عالما بقواعد التربية ـ لا ينجح فى مهنته إلا إذا كان رحيما بالمتعلمين، وامتلأ قلبه بحبهم والعطف عليهم. وإن المعلم الذى لا يعطى تلاميذه قلبه، محال أن يعطيه التلاميذ قلوبهم.

وإن أَوْلَى التلاميذ بالعطف أولئك الفقراء الذين يأتون من منازل حكم عليها بالشقاء، ملابسهم رثة، ومحادثتهم جافة، وتربيتهم سيئة، ومعاملتهم شاذة. وجوههم عابسة، وقلوبهم واجفة، لا يحبون أحدا؛ لأنهم لم يشعروا بحب أحد. ولا يعرفون معنى النظام، لأنهم لم يروا شيئا من النظام.

(٣) أن يقتدى بالمصطفى صلى الله عليه وسلم، فلا يطالب على إفادة العلم أجرا، ولا يقصد به جزاء ولا شكرا، بل يُعلِّم لوجه الله تعالى، وطلبا للتقرب إليه، ولا يرى لنفسه منة عليهم، وإن كانت المنة لازمة عليهم.

ونعتقد أن هذا كان المثل الأسمى لدى المربين الأولين فى العصور الذهبية للإسلام، وكان من الممكن التعليم بغير أجر ابتغاء وجه الله؛ لأن كل معلم كان يحترف حرفة أخرى غير مهنة التدريس؛ كى يستعين بعمل يده على كسب معيشته ومعيشة أسرته. وقد احتج علماء الإسلام قديما حينما عُينت لهم أجور يتقاضونها. أما اليوم فأصبحت مهنة التعليم وسيلة لكسب العيش، والمدرسون مطالبون بكثير من المال لمواجهة الحياة فى نفقات البيت والأسرة والأولاد.

وإننا لا ننتظر من مدرسى اليوم أن يعلموا بغير أجر، ولكننا ننتظر منهم شيئاً واحدا هو الإخلاص فى عملهم، لإرضاء الله وإرضاء ضمائرهم، والمحافظة على مستقبل تلاميذهم وأوقاتهم، ونرجو ألا نسمع منهم: «إننا نعطى بقدر ما نأخذ»؛ فليست مهنة التعليم مهنة تجارية، ولكنها مهنة رسل وقديسين، يعملون للتقرب إلى الله، ولا ينتظرون جزاء ولا شكورا، ولا يطلبون الأجر إلا من الله. كما قال عز وجل: «ويا قَوْمِ لا أسألُكم عليه مالًا، إنْ أجرِىَ إلا على الله[١]».

وإنْ هنا نافية بمعنى ما.

---

(١) سورة هود: ٢٩.

(٣) « ألاّ يدعَ من نصح المتعلم شيئاً ».

وإننا نعتقد أن المربي في التربية الحديثة ناصح مرشد ينصح للمتعلم متى سنحت الفرصة للنصيحة ، ويرشده عند الحاجة إلى الإرشاد ، ويساعده عند الحاجة إلى المساعدة . وألا يترك من نصحه شيئا ، وأن يعمل كل وسيلة لتربيته وتهذيبه وتثقيفه .

(٤) « أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق ، بطريق التعريض ما أمكن ، ولا يصرِّح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ؛ فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار ؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم — وهو مرشد كل معلم — « لو منع الناس عن فت البعر لفتّوه ، وقالوا مانُهينا عنه إلا وفيه شيء »

والحق أن الغزالي في رأيه هذا يسير وفق ما يراه علماء الأخلاق ، وعلماء النفس ، وعلماء التربية ، في معاملة الطفل إذا أخطأ ؛ فالإشارة في النصح خير من العبارة ، والتلميح خير من التصريح ، والنصيحة على انفراد مع الرحمة تجدى أكثر من التوبيخ صراحة أمام إخوة الطفل أو زملائه ؛ فالطفل حينما يشعر بالقسوة وبتوبيخه يريد أن يظهر شخصيته ، فيعارض ما يقال له ، ويخالف ما يعرض عليه ، ولا يبالي بمن ينصحه ، ويصرُّ على وجهة نظره ؛ لأن الإنسان مولع بحب الأشياء التي يمنع من فعلها .

« وحَبُّ شيء إلى الإنسان ما مُنعا . » وهذا هو معنى الحديث أو الأثر : لو منع الناس عن مس القذارة أو فتها لمسُّوها أو فتُّوها ، قائلين : مانُهينا عنه إلا وفيه شيء .

(٥) « ينبغي ألا يقبح في نفس المتعلم — العلوم التي وراءه ، كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير ، وأن ذلك نقل محض وسماع ، وهو شأن العجائز ، ولا نظر للعقل فيه . ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ، ويقول : ذلك فرع ، وهو كلام في حيض النسوان ، فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن ؟ »

وفي اعتقادنا أن الغزالي مصيب في نقده ، سديد في رأيه ، فمن الأخلاق المذمومة أن يتعصب المدرس لمادته ، فيستحسنها ويستقبح غيرها ، وألا يفكر في غيره كما يفكر في نفسه ، وأن ينظر إلى المواد الأخرى نظرة تقبيح وتنفير ، يجب أن يترفع المدرس عن

الصغار ، وينظر إلى العلوم التى يقوم غيره بتدريسها نظرته إلى مادته ، ويفكر فى النهوض بالتلميذ ، ويراعى شعور غيره من زملائه ، ويتعاون معهم فى ترقية تلاميذهم ، والعمل لمنفعتهم .

(٦) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله، فينفره أو يخبط عليه عقله ، اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم . » فليبث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها . وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أحد يحدّث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم » .

والحق أن الغزالى فى ذلك الرأى قد سبق فلاسفة التربية الحديثة بتسعمائة سنة تقريبا . وهو متأثر بنصيحة خير المرسلين ، وأعظم المرشدين للعالم كافة : أُمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونضعهم فى درجاتهم ، ونخاطبهم على قدر عقولهم ، ونحدثهم باللغة التى يدركونها ، والأسلوب الذى يفهمونه ، والطريقة التى تلائمهم . وهذا خير مبدأ ننادى به فى التربية الحديثة فى القرن العشرين . وقد سبق محمد بن عبد الله ، رسولُ الله ـ المربين جميعا فى رأيه منذ أربعة عشر قرنا . ويجب أن يكتب هذا الحديث بقلم من النور فى كل مدرسة ، وكل معهد .

فواجبنا ـ نحن المربين ـ أن نخاطب الأطفال باللغة التى يفهمونها، والعبارة التى يدركونها، ونخاطب الكبار بلغة تختلف فى أسلوبها عن لغة المبتدئين من الأطفال . فما يصلح للكبير لا يصلح للصغير . وما يناسب الطفل لا يناسب الرجل .

ولو اتبعنا هذه النصيحة الثمينة لنهضنا بتلاميذنا، ورفعنا مستواهم ، ورغبناهم فى الدراسة والمدرسة .

وقال على كرم الله وجهه ـ وأشار إلى صدره ـ : « إن هاهنا لعلوماً جمة، لو وَجدت لها حَمَلةً . » أى لو وجدت لها من يفهمها ويحملها ، ويستحقها .

وقال عيسى عليه السلام : لا تُعلقوا الجواهر فى أعناق الخنازير .

وقيل: كل لكل عبد بمعيار عقله، وزن له بميزان فهمه، حتى تسلم منه، وينتفع بك.

(٧) أن يكون المعلم عاملا بعلمه، فلا يكذب قوله فعله؛ لأن العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار، وأرباب الأبصار أكثر.

وقد أحسن الغزالى فى رأيه كل الإحسان، فينبغى أن تكون أفعال المدرس مطابقة لأقواله، ولا يجوز أن ينهى تلاميذه عن شىء ثم يفعله؛ حتى لا يسخروا منه، وتضيع ثقتهم به. قال الله تعالى: « أتأمُرونَ الناسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أنفسَكم »؟ وقال عز وجل: « كَبُرَ مَقتاً عندَ اللهِ أن تقولوا ما لا تفعلونَ. » ولذلك كان وزر العالِم فى معاصيه أكبر من وزر الجاهل؛ إذ يزل بزلته عالم كثير، ويقتدون به. ومن سَنَّ سنةً سيئةً فعليه وزرُها ووزر من عمل بها.

قال على رضى الله عنه: قصم ظهرى رجلان: عالِمٌ متهتِّك، وجاهلٌ مُتنسِّك فالجاهل يغر الناس بتنسكه (بعبادته)، والعالم يغرهم بتهتكه.

وقال الحكماء: متى استوى الظل والعود أعوج؟ وقيل فى هذا المعنى:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتِيَ مِثلَه عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: « لا يكونُ المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً ». فالغرض من العلم العمل. ولا فائدة من علم لم يُصحب بعمل.

وقال صلى الله عليه وسلم: « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولتماروا به السفهاء، ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم، فمن فعل ذلك فهو فى النار ».

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فهو لصٌّ.

وقال الشاعر:

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب؟

وقال آخر:

يا معشر القراء يا ملحَ البلد ما يُصلح الملح إذا الملح فسد

وقال صلى الله عليه وسلم: « من ازداد علماً ولم يزددْ هدًى لم يزدد من اللهِ إلّا بُعداً ».

وقال على كرم الله وجهه: من ازداد بالله علما، ثم ازداد للدنيا حُبًّا، ازداد الله عليه غضبا.

وقال الحسن رحمه الله : لا تكن ممن يجمع علم العلماء، وطرائف الحكماء، ويجرى فى العمل مجرى السفهاء.

وقال الخليل بن أحمد : الرجال أربعة ، رجلٌ يدرى ، ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم فاتبعوه . ورجل يدرى ، ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك نائم فأيقظوه . ورجل لا يدرى ، ويدرى أنه لا يدرى . فذلك مسترشد فأرشدوه . ورجل لايدرى ، ولا يدرى أنه لا يدرى ، فذلك جاهل فارفضوه .

وقال سفيان الثورى رحمه الله : يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل .

وقال ابن المبارك : لا يزال المرء عالما ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل .

فيجب على المعلم ألا يخالف فعله قوله ، وألا يأمر بالشىء مالم يكن هو أول عامل به . قال تعالى فى قصة شعيب : « وما أريدُ أن أخالفَكم إلى ما أنهاكم عنه . »

وقال تعالى لعيسى عليه السلام : يا ابن مريم ، عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلّا فاستح منى .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مررت ليلة أُسرِىَ بى بأقوام تُقرَض شفاهُهم بمقاريضَ من نار . فقلت : من أنتم ؟

فقالوا : كنا نأمر بالخير ولا نأتيه ، وننهى عن الشر ونأتيه » .

والحق أن شر الشِّرار من يأمر بالخير ولا يفعله ، وينهى عن الشر ويفعله .

ولكى ينجح المربى فى مهنته يرى الغزالى أنه يجب أن يتحلى بالصفات الآتية : « الصبر، والتواضع ، وحسن الخلق » .

وإننا نعتقد أن المدرس القليل الصبر لايصلح لأن يكون مدرسا ، والمدرس المتكبر لن يستفيد التلاميذ منه شيئا ، والمدرس السيئ الخلق ، يجب أن يبعد عن تلك المهنة الشريفة ؛ لأنه سيكون قدوة سيئة للمتعلمين ، وجرثومة تنشر الأمراض الخلقية فى المدرسة .

ويقول : « والمعلم متصرف فى عقول البشر ونفوسهم ، وأشرف ما فى الإنسان عقله ونفسه ، فجعل صناعة التعليم أشرف الأشراف » .

وإننا نوافق الغزالى فى رأيـــه ، فالمعلم بيده مستقبل التلاميذ ، وعليه يتوقف النهوض بالشعوب . وعلى أكتافه ترقى الأمم ؛ لأنه هو الذى يتصرف فى العقول والنفوس ، وهـو الذى يوجهها إلى الخير والطريق المستقيم ، والفضيلة ، والوطنية ، وهو الذى يستطيع أن يبث فيهم مايشاء من المبادئ والمثل العليا .

وقال : « من اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما ، وخطرا جسيما » .

وقد سبق أن قلنا إن مهنة التعليم مهنة رسل وأنبياء . فـكما تـكون المـــدرسة يكون التلاميذ . وكما يكون المـــدرس يكون المتعلمون . وهناك قادة وعظماء يتمنون أن يكونوا مدرسين ولو بضع سنين ؟ لـكى يبثوا فى الجيل الصغير ما يريدون من الأخـــلاق الـكريمة ، والعادات الحسنة ، والوطنية الصادقة ، والإخلاص والإيثار ، والإيمان .

ولـكى يثمر مجهود المدرس يجب أن يكون مخلصا فى عمله ، طاهر القلب ، عاملا بمـــا ينادى به . وفى هذا يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « إن أخوف ما أخاف على هـذه الأمة المنافق العليم . »

قالوا : وكيف يكون منافقا عليما ؟

قال : عليم اللسان ، جاهل القلب والعمل .

آراؤه فى تربية الأطفال ، وتهذيب أخلاقهم (١)

(١) التربية أهم الأمور :

يقول الإمام الغزالى رحمه الله : « اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمـــور وأوكدها . والصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لـكل ما نقش ، ومائل إلى كل ما يُمال به إليه ، فإن عُـــوِّد الخير وعُلِّمه نشأ عليه ، وسعد فى الدنيا والآخـــرة ، وشاركه فى ثوابه أبواه وكلُّ معلم له

---

(١) ارجع إلى الجزء الثالث ، من كتاب إحياء علوم الدين (بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول نشوئهم ، ووجه تأديبهم ، وتحسين أخلاقهم) صفة ٦٢ .

ومؤدِّب . وإن عُـوِّد الشرَّ ، وأُهمِل إهمال البهائم شقِيَ وهلك ، وكان الوِزر في رقبة القيم عليه والوالي له » .

وإننا نتفق مع الغزالي في أن تربية الصبيان من أهم الأمور وأوكدها . فبالتربية يرقى الفرد ، ويرقى المجتمع ، وتنهض الأمم . والتاريخ خير دليل على أن بالتربية والتعليم تحيا الشعوب من موتها ، وتستيقظ من سباتها ، وتنتبه من غفلتها ، وتقلل سجونها ، وترقى في أخلاقها وآدابها ، وعلومها وتفـكيرها .

ونعتقد أن الطفل أمانة عند والديه ، فيجب أن يعمل والداه على تربيته تربية كاملة ، بكل وسيلة من الوسائل ، وألا يضحيا به وبتعليمه من أجل أجر زهيد يعمل به أجيرا ، فوقت الطفولة وقت دراسة وإعداد للحياة . والأمانة يجب أن تحفظ في مكان أمين ، وهو بالنسبة للطفل : المدرسة ؛ لتربيِّه وتحافظ عليه ، وتعمل للنهوض به .

والمدرسة معهد أعد لتربية الأطفال وتعليمهم ، وتثقيفهم ثقافة عامة ، أنشئت لغرض حيوى هو أن تقود المجتمع إلى كل رقى . والغرض منها تربية كل طفل تربية حقة تجعله عضوا نافعا في المجتمع، بما تقدمه له من إرشاد منظم، وتعليم مستمر . وواجب المدرسة أن تعمل على تربية الطفل تربية كاملة،تربية روحية وخلقية ودينية ووطنية وعقلية وجسمية واجتماعية وعملية .

ونتفق مع الغزالي في أن « قلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة . » ومعنى السذاجة والخلو عن كل نقش وصورة أن الطفل صغير ليس لديه معلومات أو تجارب ، فهو لا خبرة له ، ولا تجربة ، خال من كل مؤثرات البيئة التي يتأثر بها الوليد في البيت أو المدرسة . ولا يفهم من هذا أن الغزالي ينكر ما يرثه الطفل من الغرائز والنزعات والميول الفطرية ، تلك الغرائز التي يرثها من أبيه وأجداده وأمه وجداته ، والتي تحتاج إلى تربية وتهذيب وتوجيه وتعديل وإرشاد .

وقد أثبت علماء النفس أن الطفل يرث من أبويه وشجرته الوراثية صفاته الجسمية والعقلية ، أما الصفات الخلقية فإنها تـكتسب بالمحاكاة والقدوة الحسنة والتربية والتجربة .

ومما يؤيد رأينا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما

أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . » ويؤخذ من هذا ، أن الطفل يولد على الطبيعة ، قابلا للخير والشر ، مستعدا للفضيلة والرذيلة ، وإنما البيئة هى التى توجهه إلى اليهودية أو النصرانية أو المجوسية أو الإسلام . فإذا كانت البيئة كاملة طاهرة فى البيت والمدرسة والمجتمع جاء كاملا فى الكمال والطهارة .

وهذا هو ما ينادى به الغزالى فى قوله : وهو قابل لكل ما ينقش عليه ، وما يرشد إليه ، ومائل إلى كل ما يُمال به إليه ، وما يُنصح به ، وما يوجَّه إليه ، فإن عُوِّدَ الخير من الصغر بطريقة عملية ، وعلِّمه بطريقة نظرية ، اعتاده ، ونشأ على فعل الخير ، والسير فى الطريق المستقيم ، طريق الفضيلة والكمال ، وسعد فى الدنيا والآخرة ، وشاركه أبواه ومعلموه ومؤدبوه ومهذبوه ومربوه فى ثواب هذه التربية الخلقية الكاملة . وإن عُوِّد الشر وارتكاب الرذيلة ، والعادات القبيحة ، وأهمل إهمال البهائم بلا تربية ولا تثقيف ولا تهذيب ، ولا تأديب — صار شريرا فاسدا ، واعتاد فعل الشر ، وارتكب الشرور والآثام ، وكان من الأشقياء والأشرار . والتبعة فى هذا كله إهمال أبويه ومؤدبيه ، وتقصيرهم فى تربيته وتوجيهه وإرشاده وهو صغير .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أثر البيئة فى تربية الطفل ، فقد يجد عناية بتربيته فى البيت ، ورعاية فى المدرسة الابتدائية والإعدادية والثانوية ، وإهمالا عند لحاقه بالجامعة وهو شاب فى سن الطيش ، فيتصل بأصدقاء السوء ، والشبان المستهترين ، والأصحاب المنحرفين ، فيحاكيهم ويقلدهم فى أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم وسلوكهم ، فيصير مثلهم ، ويتخلق بأخلاقهم ، ويسير فى طريقهم ، طريق الرذيلة والانحراف ، وسوء السلوك ، بعد أن كان وديعا كاملا متحليا بالفضيلة ، قبل اتصاله بتلك البيئة الفاسدة ، فيضل ، ويخفق فى حياته العلمية ، ويتعثر فى مستقبله ، والسبب فى ذلك كله اتصاله بقرناء السوء .

ومما يثبت رأينا فى شرح عبارته ، وتوضيح مراده منها قوله فى موضع آخر(١) : « فأوائل الأمور هى التى ينبغى أن تراعى ؛ فإن الصبى بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا ،

(١) ارجع إلى آخر كتابته فى : « بيان الطريق فى رياضة الصبيان » من الجزء الثالث ، ص ٦٤ من إحياء علوم الدين .

وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين. قال صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

ومعنى قوله: «فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى» أنه يجب أن نهتم بالطفولة، ونعنى بتربية الطفل من الصغر في أول حياته. وإن التربية تضع الطفل والطفولة في المكان الأول من الأهمية في التربية. ومن الحقائق الثابتة أنه كما يكون الطفل يكون الرجل؛ فإذا عنينا بتربية أطفال اليوم تربية كاملة ضمنًا في الغد رجالا يمثلون المثل العالي للرجولة الكاملة.

ونعتقد أن الطفولة أهم أدوار الحياة، ولها أثر كبير في تربية الطفل، فإذا عنينا بالطفل كل العناية في البيت والمدرسة والمجتمع كان أكثر نظافة، وأحسن سلوكا، وأسعد حياة، وأقوى جسما، وأجود صحة، وسار الطفل في الحيـــاة بقدر ما تسمح به مواهبه ومقدرته وكفايته. وإذا أهملت الطفولة كان لذلك الإهمال أثر سيء في مستقبل الفرد، وحال المجتمع.

(٢) صيانة الطفل من قرناء السوء:

«وقد قال الله عز وجل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا».

ومهما كان الأب يصونه (أى الصبي) عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى. وصيانته بأن يؤدبه، ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعوده التنعم، ولا يحبب إليه الزينة، وأسباب الرفاهية، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر، فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره، فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال».

ففي الآية الكريمة أمر بصيانة النفس والأهل من النار بالبعد عن الرذيلة ومرتكبيها، والتمسك بالفضيلة، والاتصال بالفضلاء، الكريمي الأخلاق. ويرى الغزالي أن يحفظ الصبي مما يضره في الدنيا والآخرة. وتكون صيانته بالتربية والتهذيب، وتفهيمه في الوقت المناسب الأخلاق الكريمة ومحاسنها، والأخلاق السيئة ونتائجها. كما يرى حفظ الصبي وإبعاده عن قرناء السوء، والعابثين في الطرق، والواقفين في (نواصي) الشوارع بلا عمل.

وإننا نرى رأى الغزالى فى إعـــداد الصبى للحياة التى تنتظره . وتشجيعه على اللحاق بالكشافة ، والحياة العملية ، وتحمل متاعب الحياة ، فلا يعوده الأب حياة النعيم والزينة والرفاهية فى الصغر ؛ كى لا يشقى ولا يتعب ، إذا طلبها ولم يجدها فى الكبر . والغزالى حريص كل الحرص على العناية بتربية الطفل ومراقبته منذ ولادته ، وينصح بألا يسـ ـمل فى إرضاعه وحضانته فى الطفولة المبكرة ـ إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال . لأن الطفل يتأثر بالمرضع ولبنها وطعامها ، ويتأثر بالمربية فى لغتها وأخلاقها وعاداتها . فالقدوة الحسنة لها كل الأثر فى أخلاق الطفل ، وكذلك القدوة السيئة . لهذا نرى رأى الغزالى فى اختيار البيئة التى يتصل بها الطفل .

ويرى « أن يحفظ الصبى عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ، ولبس الثياب الفاخرة ، وألا يسمح له بمخالطتهم . فإن الصبى إذا أهمل فى بدء حياته خرج فى الأغلب ردىء الأخلاق ، كذابا ، حسودا ، سروقا ، نماما ، لحوحا ، ذا فضول وكيد ومجانة . وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ، وكمال التربية » .

وإننا نوافق الغزالى فى رأيه ، ونرى إبعاد الصبى عن الصبيان المنعمين المترفين ، الذين يلبسون الفاخر من الثياب ؛ لأن النعيم والترف والرفاهية لا تليق بالإنسان ، ولا تدوم . فالطفل يجب أن يعد للحياة ، وما فيها من سعادة وشقاء ، يجب أن يعتاد ما اعتاده الكشاف، من البساطة فى المعيشة والملابس، والحياة فى الحر والبرد، والنور والظلام، والنعومة والخشونة .

ونرى ألا يسمح له بمخالطة هؤلاء المدللين من الأطفال ؛ لأنهم لا يصلحون للحياة التى تنتظرهم ؛ فقد وجدوا الحياة سهلة ميسرة لهم ، كلها نعيم ورخاء ، واعتمدوا على ثروة آبائهم وأمهاتهم ، فناموا واستعذبوا النوم ، وصارت حياتهم كلها حياة كسل وخمـــول ، وجعلوا ليلهم نهارا ، ونهارهم ليلا ، ففسدت أخلاقهم ، وأصبحوا جرثومة من الفساد . وإن المربين اليوم يرون أن أهم مرحلة فى الحياة هى مرحلة الطفولة المبكرة ، فى الخمس السنوات الأولى من حياته . فإذا أهمل فى بدء حياته صار غالبا فاسد الخلق ، كثير الكذب ، كثير الحقد والحسد ، كثير السرقة والنميمة والإلحاح ، فضوليا يتدخل فيما لا يعنيه ، ويكيد لغيره من زملائه ، ذا مجون لا يبالى ما يصنع ، ولا يكترث بما يفعل .

ومن الممكن أن يحفظ من فساد الخلق ، ومن هذه الرذائل كلها إذا عنينا بتربيته كل العناية فى طفولته وأطوار حياته . ولا يستطيع أحد أن ينكر أثر البيئة فى تربية الطفل ، أثر البيت والمدرسة والنادى والمجتمع فى سلوكه وأخلاقه .

المواد الدراسية فى نظر الغزالى :

يرى الغزالى « أن يشغل (الصبى) فى المكتب ، فيتعلم القرآن ، وأحاديث الأخيار ، وحكايات الأبرار وأحوالهم ، لينغرس فى نفسه حب الصالحين ، ويُحفَظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ؛ فإن ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذر الفساد » .

ورأيه لا عيب فيه ؛ فهو يرى أن يذهب الصبى إلى المكتب حينما يبلغ السادسة من العمر مثلا ، فيبدأ بتعلم الهجاء والمطالعة ، فإذا استطاع الكتابة والقراءة ، أخذ يتعلم القرآن الكريم ، بأن يكتب كل يوم قطعة منه ويحفظها عن ظهر قلب ، وفى هذا تمرين على القراءة والإملاء ، وتحسين للخط . وفى الوقت الذى يحفظ فيه القرآن يدرس أحاديث الأخيار ، كأحاديث الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقوال الخلفاء الراشدين ، وخطبهم ، ومنافشاتهم ، وحكايات الأبرار والأتقياء ، وقصص الأنبياء ، والقصص الإسلامية ، من خلقية واجتماعية ، وروحية ، والمثل العليا فى الإسلام ، وتاريخ الصالحين وأحـــوالهم ؛ كى يُغرس فى نفسه حب الصلاح والتقوى ، وتبث فى قلبه الفضيلة ، والأخلاق الكريمة ، بالقدوة الحسنة ، ومايراه ويسمعه من البطولة ، والأمانة ، والإيثار ، والإحسان والعدالة ، والإخاء والمساواة فى الإسلام .

وينصح الغزالى بحفظ الصبى من أشعار العشق والعاشقين ، وإبعاده عن مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الحضارة والمدنيـــة ، والظرف ورقة الطبع ؛ فإن ذلك يؤثر فى نفوس الصِّبيان ، ويغرس فى قلوبهم بذور الفساد والاستهتار ، والانحلال . وفى نظرنا يجب أن نتخير الشعر والنثر لهم ، بحيث تكون القطع مختارة اختيارا حسنا ، مناسبة لمستواهم ، بعيدة عن الاستهتار والانحلال .

آراؤه فى التربية الخلقية

(١) تشجيع الأطفال على الأخلاق الكريمة :

يرى الغزالى استعمال وسائل التشجيع والمدح حيث يقول ما معناه : إذا ظهر من الصبى خلق جميل ، وفعل محمود فإنه ينبغى أن نكرم عليه ، ويجازى عليه بما يفرح به ، ويمدح أمام الناس ؛ لتشجيعه على الأخلاق الكريمة ، والأفعال الحميدة . وإذا حدث منه مايخالف ذلك ، وستره الصبى واجتهد فى إخفائه ، تغافل عنه المربِّى ، وتظاهر بأنه لايعرف شيئا عما فعل حتى لايخجله ، فإن عاد ثانية إلى الخطأ عوتب سرًّا ، وبُيِّن له نتيجة خطئه ، وأُرشِد إلى الصواب وحُذِّر من العودة إلى مثل هذا الخطأ ، خوفا من أن يفتضح أمره بين الناس[١] .

ويُعدُّ الغزالى فى هذا الرأى حكيما مثاليا ، عالما بنفسية الأطفال ، وميولهم ورغباتهم ، وطريقة معاملتهم ، ومايحبون ومايكرهون . فإن كلمة ثناء أو تشجيع للطفل كثيرا ماتقوده إلى الخلق الكريم ، والطريق المستقيم . وإن التغافل عنه ، وتجاهل خطئه فى المرة الأولى لدليل على الحكمة وبعد النظر ، والمحافظة على شعور الطفل . ومعاتبته سرًّا ، وتفهيمه أثر فعله ، والحسنَ من القبيح ، وتحذيره من تكرير الخطأ تعد من أحسن الطرق الحديثة فى التربية اليوم . وقد نادى الغزالى بهذا الرأى الثمين منذ أكثر من تسعمائة سنة . وأعتقد أن الطفل يُملك بحسن المعاملة ، ويتأثر كل التأثر بالتشجيع . وبكلمة واحدة من المدح يمكنك أن تملكه . وهو قابل لأن يفهم كل شىء ، ولكنه فى حاجة إلى من يفهَمه ، ومَن يفُهِّمه ، ومن يشجِّعه ، ومن يُحسن معاملته .

(٢) استعمال اللوم والتوبيخ والعتاب بحكمة :

ويقول الغزالى : « ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين ؛ فإنه يُهوِّن عليه سماع اللامة ، وركوب القبائح ، ويسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه ، فلا يوبخه إلا أحيانا . والأم تخوفه بالأب ، وتزجره عن القبائح » .

---

(١) ارجع إلى الجزء الثالث من الإحياء : (بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول نشوئهم ، ووجه تأديبهم ، وتحسين أخلاقهم) صفحة ٦٣ .

وهذه خير نصيحة للآباء والأمهات فى تربية أطفالهم ، فالغزالى ينهى عن الإكثار من العتاب ؛ كى يكون للوم أثر فى نفوسهم ، فــلا يعاتب الوالدان أولادهما على كل صغيرة وكبيرة ، أو على كل هفوة بحسن نية ، حتى لا يملوا ولا يظهروا العناد ، والسير فى الطريق المضاد . وعلى الأب أن يحفظ هيبته مع ابنه ، وعلى الأم أن تتعاون مع الأب فى تربية الطفل ، فتعظه وتظهر له هفوته ، وترشده بحكمة على انفراد ، حتى تثمر العظة ، ويبتعد عن القبيح ، ويعتاد الخلق الكريم .

وإننا نرى أن الطفل مُبتلًى فى كل مكان بمن يأمره كثيرا ، وينهاه مرارا . وقد يؤمر بفعل أشياء لا يحبها ، ويُنهَى عن أمور هو شديد الميل إلى فعلها . فإرادته مكبوتة ، ورغباته وميوله لا يجد إليها سبيلا ، والسلطة حوله من جميع الجهات يشعر بضغطها فى المنزل ، كما يشعر بشدتها فى المدرسة . والطفل شديد الإحساس بطبيعته ، سريع التأثر ، ومن ثَمَّ وجب أن نعامله بلين وعطف ، ونجتهد فى تفهيمه السبب فى فعل هذا أو تجنب ذاك ، ولا نكتفى بالأوامر والنواهى مجردةً عن أسبابها . فالطفل عنيد قــد يفعل الشىء حيث تنهاه عنه ، وينتهى حيث تأمره ؛ لا يريد بذلك إلا أن يعرف ماذا تكون نتيجة مخــالفته وعصيانه ، ولا يقصد إلا أن يظهر شخصيته .

(٣) منعه من أن يفعل الشىء خفية :

« وينبغى أن يمنع من كل ما يفعله فى خفية ؛ فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح . فإذا تُرِكَ تعود فعل القبيح » .

يقصد الغزالى بهذا أن نعوّد الطفل الصراحة والشجاعة ، بحيث يظهر ما يبطن ، ولا يخفى شيئا مما يفعله ؛ فإنه لا يخفى الشىء عن أبيه وأمه ، ومربيه ومربيته إلا إذا كان يعتقد أن هذا الأمر قبيح . وإذا تُرِكَ وحده يفعل الأفعال القبيحة فى الخفاء ، اعتاد عادة سيئة قبيحة ، يصعب التخلص منها فيما بعد .

فيجب أن نعوده الصدق والأمانة ، والإخلاص ، وعــدم الالتواء فى الفكر والقول والعمل ، بحيث يظهر ما فى نفسه بغير لفٍّ أو اعوجاج ، وتكون أعماله متفقة مع أقواله .

إذا فعل شيئا كان ضميره مستريحا . وإذا تكلم كان كلامه عن عقيدة ، يدل على سداد رأى، وحسن تفكير ، وتقدير للنتائج .

يجب أن نعوده الصدق فى القول، والإخلاص فى العمل، وإرضاء الله فى السر والعلانية، والتفكير فى نتيجة الشىء قبل الإقدام عليه .

(٤) كيف يعامل أقرانه ؟

« ويمنع (الصبي) من أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والده ، أو بشىء من مطاعمه ، وملابسه ، أو لوحه ودواته ، بل يعود التواضع ، والإكرام لكل من عاشره ، والتلطف فى الكلام معهم » .

وإننا نرى مايراه الغزالى فى منعه من الفخر على زملائه ، بما يمتلكه أبوه من قصور وسيارات ، وحدائق وعمارات ، أوما تملكه أمه من ثروات ، ومن الفخر بما يأكل وما يلبس ، وما لديه من كتب وأدوات . بل ينبغى أن يعود التواضع مع أقرانه ، وإكرام معاشريه من التلاميذ ، والتلطف فى التحدث معهم .

فالتواضع فى غير ذلة سبيل النجاح والرفعة ، والتكبر سبيل الإخفاق والمهانة .فالمتواضع محبوب ، والمتكبر مكروه عند الله والناس .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواضعا ، يعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه ، مختلطا بهم ، حيثما انتهى به المجلس يجلس . وكان يُدعَى إلى خبز الشعير والإهالة[١] السنِخَة[٢] فيجيب . وقد دخل عليه رجل فأصابته من هيبته رِعدة ، فقال له : « هوّن عليك فإنى لستُ بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد[٣] . »

فنحن نتطلب تربية الأطفال ليكونوا مثلا للأدب والتواضع ، ورقة الجانب ، ولطف المعاملة .

---

(١) الدسم ، الزيت والشحم . (٢) يقال سنخ الدهن : زنخ . (٣) اللحم المقدد .

(ه) الزهد، والرفعة فى الإعطاء لا الأخذ :

(ينبغى أن) « يعلّم أن الرفعة فى الإعطاء لا فى الأخذ ، وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة . وإن كان من أولاد الفقراء يُعلّم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة ، وأن ذلك من دأب الكلب ، فإنه يبصبص فى انتظار لقمة ، والطمع فيها . وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة ، والطمع فيهما ، ويحذرون منهما أكثر مما يحذرون من الحيات والعقارب ؛ فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان ، بل على الأكابر أيضا[1] . »

يرى الغزالى فى التربية الخلقية أن نعود الطفل الغنىّ الزهدَ ، ونبث فى نفسه أن الرفعة فى إعطاء المحتاجين والإحسان إليهم ، لا فى السؤال والاستجداء والأخذ من الناس ، وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة ، ونعلِّم الطفل الفقير عزة النفس ، والإباء ، ونفهمه أن فى الطمع ومدّ اليد للأخذ ذلة ومهانة ، وأن ذلك من عادة الكلب فإنه يبصبص ، ويحرك ذنبه ، من أجل لقمة ترمى له .

ولزهد الغزالى يرى أن نقبح إلى الصبيان محبة المال ، ونحذرهم من الذهب والفضة أكثر من التحذير من الحيات والعقارب ، ويعد التعلق بالذهب والفضة عاهة من العاهات ، ومرضا من الأمراض ، يضر الصغار والكبار أكثر من ضرر السموم .

ولا عجب ؛ فقد كان الغزالى زاهدا متأثرا بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ فقد كان الرسول المثل الأسمى فى الزهد ، يَحرِمُ نفسه وأهله وأقرب الناس إليه . ويؤثر عليهم الفقراء والمساكين والمحتاجين من المسلمين ، يفكر فى غيره وينسى نفسه . فى يده بيت المال وخزانة المالية ، ومع هذا كان يعيش كما يعيش الفقراء ، ويحيا حياة الزهد والقناعة والإيثار ؛ ويحرم نفسه التمتع بملذات الحياة .

وأعتقد حقا أن حب الذهب والفضة آفة الآفات ، ومرض الأمراض ، وعاهة العاهات فى هذه الحياة . فحب المال قد أفسد المجتمع الإسلامى ، وغير الإسلامى . وصار العالم ماديا ،

(١) ارجع إلى الجزء الثالث من الإحياء : (بيان الطريق فى رياضة الصبيان) ، ص ٦٣ .

لايفكر إلا فى المادة، وفى المادة وحدها، وعدمت المثل العالية فى الأخلاق والآداب، وانتشرت الرشوة، والرذيلة، ومحبة النفس فى المجتمع الإنسانى.

فقد صار الإنسان يعيش لنفسه، ويحيا لنفسه، ولا يفكر إلا فى نفسه. يريد أن يكون غنيا ويفتقر غيره، ويتخم بالطعام والشراب، ولا يجد غيره الضرورى من القوت المحافظة على الحياة. يعيش فى قصر للصيف على ساحل البحر، وآخر للشتاء فى العاصمة، وغيره يعيش فى كوخ لا يقيه فى ليلة ممطرة. عنده عدد من أحدث السيارات وأفخمها، وغيره لا يجد له مكانا فى سيارة عامة، فيقف ويتمايل فيها يمينا وشمالا حتى يصل إلى مكان عمله.

وفى نظرنا ليس المال كل شىء فى الحياة؛ فالصحة (والستر) – أى عدم مد اليد إلى مخلوق – والتوفيق فى تربية الأبناء وزواج البنات، وإرضاء الله، والرضا والقناعة، هى السعادة فى الحياة.

إن الذهب والفضة لايستلزمان السعادة فى الدنيا؛ فقد يكون الشخص من أصحاب الآلاف المؤلفة من الجنيهات، ومع ذلك لا تجده سعيدا فى دنياه، ولن يكون سعيدا فى أخراه؛ فهو يكنز الذهب والفضة، ولا ينفقهما فى سبيل الله، ولا يعطى الفقراء والمحرومين حقوقهم، ولا يتبرع لمشروع وطنى أو خيرى أو مصلحة عامة. لاهمّ له، ولا لذة لديه إلا كنز المال.

بماذا يفيده ذهبه وفضته، ومعدته مريضة، لا تلتذ بطعام أو شراب؟ بماذا يفيده ماله إذا حرم السعادة فى بيته؟ بماذا يستفيد من الذهب والفضة إذا رزق بطفل معتوه أو ضعيف العقل أو ناقص الإدراك؟ هل يستطيع بذهبه وفضته أن يجعل هذا الابن ذكيا حاضر البديهة كابن ذكى موهوب لرجل فقير من العمال فى السويس؟ وأمثل بالسويس لأنى قرأت فى صحيفة الأهرام بتاريخ ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٦٦ أن عاملا بالسكة الحديدية قد وهبه الله ثمانية أولاد، وكلهم أوائل فى مدارسهم. فهم نعمة من الله، وكل ولد منهم سيكون خيراً من ضيعة بتوفيق الله.

(٦) الآداب العامة فى نظر الغزالى :

« وينبغى أن يعود ألا يبصق فى مجلسه ، ولا يتمخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رِجلا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده ؛ فإن ذلك دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس .

ويمنع كثرة الكلام ، ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة ، وأنه فعل أبناء اللئام .

ويمنع اليمين رأسا[1] ، صادقا كان أو كاذبا ، حتى لايعتاد ذلك فى الصغر .

ويمنع أن يبتدئ بالكلام ، ويعود ألا يتكلم إلا جوابا ، وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع ، مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويوسع له المكان ، ويجلس بين يديه ، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ، ومن اللعن والسب ، ومن مخالطة من يجرى على لسانه شئ من ذلك ؛ فإن ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء . وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء » .

وإن من ينظر إلى هذه الآداب العامة يجد أنها تمثل التربية الاجتماعية التى ننادى بها ، بتعويده كثيرا من العادات الحسنة ، ومنعه من العادات القبيحة . والحق أننا فى حاجة ماسّة إلى العناية بالتربية الاجتماعية فى البيت أولاً ، وفى المدرسة ثانيا ، وفى المجتمع ثالثاً . فكما يكون الطفل فى البيت يكون فى المدرسة . وكما يكون فى البيت والمدرسة يكون فى المجتمع . وكما يكون فى المجتمع يكون فى الحياة . فإذا عودناه هذه الآداب الاجتماعية التى وضعها الغزالى فى نصيحته استطعنا أن نكوّن منه رجلا كاملا من الناحية الاجتماعية ، يفكر فى غيره كما يفكر فى نفسه ، ويحترم من هو أكبر منه ، ولا يفعل شيئا ينتقد عليه ، ويكون مثلا للتربية الكاملة فيما يقول ، وما يفعل ، ويعتاد ما هو حسن من العادات ، ويترك ما هو قبيح منها .

---

(١) مطلقا .

(٧) الصبر إذا ضربه المعلم :

« وينبغى إذا ضربه المعلم ألا يكثر الصراخ والشغب ، ولا يستشفع بأحد ، بل يصبر ؛ ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان» .

ينصح الغزالى الصبيّ الذى يضربه معلمه لذنب ارتكبه ألا يكثر الصراخ والصياح ، ولا يطلب الشفاعة من أحد ، بل يصبر على العقوبة ، ويحتمل الألم . ويرشده مؤدبه إلى أن الصبر عادة الشجعان والرجال ، وكثرة العويل والبكاء ، عادة العبيد والنساء .

والحق أن هناك نزاعا دائما بين الصغار والكبار ، وبين المتعلمين والمعلمين . وكانت العصا فيما مضى من الزمان تعد أداة من أدوات التربية ، ووسيلة من وسائل التعليم .

ويجب على المدرس أن يذكر أن هناك فرقا بين طفل وآخر فى طبعه ومزاجه ، وميوله وأخلاقه ، ويعرف تلاميذه معرفة حقة ؛ ليعامل كلا منهم المعاملة التى تليق به . فمنهم من لا يؤثر فيه إلا العقاب البدنى ، ومنهم من لا يتأثر إلا بالعقاب الأدبى ، ومنهم من تكفيه الإشارة ، ومن لا تروعه المقالة ، ومن يتألم إذا عوقب بالحجز آخر اليوم المدرسى ، ومن يجد سرورا فى هذا الحجز ، ومن يحزن كل الحزن لطرده يوما من المدرسة ، ومن يُسَرُّ كل السرور لغيابه عنها . هذا يحز الألم فى نفسه إذا قطعت درجة من سلوكه، وذلك لا يتأثر ولو قطعت منه عشر درجات .

فيجب أن نفكر فى كل طفل على حدة ، ونعاقبه بما يناسبه ، ونستعمل الحكمة فى عقوبته، ونزن ذنبه، ونعرف الحافز عليه ، ونعاقب كل مخطئ العقوبة التى تلائمه ، وتؤدى إلى إصلاحه، وتهذيبه .

(٨) إطاعة والديه ومعلمه ومؤدبه :

« وينبغى أن يعلم طاعة والديه ، ومعلمه ، ومؤدبه ، وكل من هو أكبر منه سنا ، من قريب وأجنبى ، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم . وأن يترك اللعب بين أيديهم » .

وإننا نرى رأى الغزالى فى تعويد الطفل إطاعة أمه وأبيه ، ومربيته ومربيه ، وكل من

كان أكبر منه سنا ، ممن يوثق بهم ، سواء أكانوا من الأقارب أم كانوا من الأجانب ، وأن ينظر إليهم نظرة احترام ، ويترك اللعب بين أيديهم ؛ كي لا يزعجهم في وقت يحتاجون فيه إلى الهدوء والراحة .

وفي الوقت الذي ننتظر فيه الطاعة من الأبناء والبنات ، ننتظر من الآباء والأمهات ألا يتحكموا في أبنائهم وبناتهم كل التحكم ، ولا يتدخلوا في شئونهم كل التدخل .

وألا نملي عليهم أوامرنا ونواهينا من غير مراعاة لتفكيرهم أو إرادتهم أو طبيعتهم . وفي اعتقادنا أنه يجب أن نعطيهم فرصة للتفكير والاختيار والحكم ، ونبين لهم الأسباب على انفراد ، ونتفاهم معهم ، حتى يقتنعوا بما نقول .

من السهل أن نأمر الطفل مرة ، وننهاه أخرى ، ولكن هل من السهل أن ينفذ كل ما يؤمر به ، أو ينهى عنه ؟ قد نجبر الطفل ونكرهه على أن يطيع وينفذ ما نقول ، ولكن هل معنى هذا أنه يشعر بصواب ما نقول ؟ أعتقد أن الطفل مستعد لأن يدرك ويفهم إذا وجد من يفهمه . وهو قابل للتربية والتهذيب إذا وجد الأب المنصف ، والأم الحكيمة . وهو محتاج إلى من يتعهد إرادته وقلبه ، ويحفظ روحه وعقله بالحكمة لا بالشدة ، وإلى من يعطيه الحرية في أن يفكر ويتنفس ، وينمو ويعيش ، ويحيا حياة سعيدة[1] .

(٩) تربيته تربية دينية علمية عملية :

« ومهما بلغ سن التمييز ينبغي ألا يسامح في ترك الطهارة والصلاة ، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب . ويعلَّم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع ، ويخوف من السرقة ، وأكل الحرام ، ومن الخيانة ، والكذب ، والفحش ، وكل ما يغلب على الصبيان » .

ومعنى هذا أن الصبي يجب أن يربى تربية دينية علمية عملية من الصغر ، فيفهَّم كيفية الوضوء ، ويعلَّم الصلاة ، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ، حينما يستطيع الصيام ،

---

(١) ارجع إلى الفصل السادس (الطفل ومشكلة الطفولة) من كتاب (روح التربية والتعليم) للمؤلف.

ويشجع على التصدق على المحتاجين ، حتى يعتادَ الصلاة والصوم والصدقة وهو صغير ، فيستمر عليها وهو كبير . وليكن أبواه وإخوته الكبار قدوة له ، حتى ينشأ تنشئة إسلامية.

ويجب أن يراعى فى تربيته ترك الترف والنعيم ، ولبس الحرير ، والتزين بالذهب ؛ كى يعود احتمال الحياة ، وما فيها من خشونة وقسوة وصعوبة .

وفى التربية الدينية يجب أن يعلم العبادات والمعاملات ، ويدرس الأمور الضرورية من الشريعة المحمدية ، ويعرف المثل العالية فى الإسلام ، ويعود الصدق ، والأمانة ، والعفة ، وغيرها من الأخلاق الإسلامية الكريمة ، ويخوف من السرقة ، وأكل الحرام ، ومن الخيانة ، والكذب ، والفحش وغيرها من الرذائل .

وأعتقد أن الغرض من التربية إيجاد حياة طاهرة ، ملؤها الإخلاص والطهارة . ومن الممكن أن يلخص هذا الغرض فى فكرة روحية واحدة ، وكلمة خُلقية واحدة هى : « الفضيلة » .

آراؤه فى التربية الجسمية

(١) المنع من النوم نهاراً ومن التنعم .

« وينبغى أن يمنع عن النوم نهارا ؛ فإنه يورث الكسل ، ولا يمنع منه ليلا ، وأن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ، ولا يسمن بدنه ، فلا يصبر عن التنعم ، بل يعود الخشونة فى المفرش والملبس ، والمطعم » .

وإننا نتفق مع الغزالى فى منع الصبى من النوم نهارا ؛ لأن النهار جعل للدراسة والقراءة والبحث والعمل . وفى الليل يمكنه أن يأخذ نصيبه من الراحة والنوم ؛ ليعوض ما فقده بسبب المجهود والعمل نهارا .

ونرى رأى الغزالى فى منع الطفل من الترف والتنعم ، والنوم على الحرير ، ولبس الحرير ، وتناول كل ما اشتهته نفسه من ملاذ الطعام والشراب ، وتعويده حياة التقشف فى المفرش والملبس والمطعم ، والمهم أن تتوافر الشروط الصحية فى الفراش واللبس والطعام ، حتى يعتاد

الخشونة ، وتتصلب أعضاؤه ، ولا يسمن جسمه، وهنا يستطيع تحمل متاعب الحياة، وتدبير شئونه ، وعدم الاعتماد على غيره .

ولكى نعد النشء للحياة فى التربية الحديثة يجب أن نعودهم أحيانا أداء ما يكرهون ، من غير تذمر أو معارضة ؛ لنعدهم للحياة وما فيها من مشـــاق ومصاعب ومشكلات لا يمكن تجنبها . وليس الغرض من هذا إيلام الصبى ، ولكن الغرض تعويده مواجهة الحياة كما هى ، والقيام بكل شىء ولو كان مكروها لديه ؛ فهو جزء هام فى التربية .

وفى البيت والمدرسة والمجتمع يجب أن يعود الطالب الخشونة فى المعيشة، وأداء الواجب، وتحمل الصعاب ، والقدرة على تحمل التبعة ، والاعتماد على النفس فى العمل ؛ حتى ينجح فى حياته العملية ، ويستطيع أن يكسب عيشه بعرق جبينه ، ويعمل بعقله ويده ، ويكون سديدا فى رأيه ، ماهرا فى عمله .

(٢) العناية بالرياضة البدنية :

« ويُعَوَّد الصبى فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل » . فالغزالى يشجع الرياضة البدنية ، والمشى والحركة . وهو مصيب فى رأيه ؛ لأن الطفل يستفيد وينمو باللعب ، وهو الوسيلة الطبيعية الواحدة للتعلم والرقى. وإن اللعب المملوء بالحركة والنشاط دليل على صحة العقل وسلامته فى الطفل. أما الكسل أو الخمول فناشىء عن نقص فى الطبيعة، أو مرض فى العقل .

واللعب للأطفال كالعمل للرجال. والطفل الصحيح الجسم لا يستطيع أن يجلس ساكنا خمس دقائق ؛ فتراه ينقب فى كل شىء تقع عليه عينه ، ويقلبه ويضعه فى فمه ، وقد يفككه ويحله ؛ ليبحث عما فى داخله .

وقد ثبت فى علم النفس أن هناك صلة كبيرة بين الجسم والعقـــل ؛ فما يؤثر فى الجسم يؤثر فى العقل ، وما يؤثر فى العقل يؤثر فى الجسم . فلكى يستطيع الإنسان القيام بأعباء الحياة يجب أن يكون قويا فى جسمه ، سليما فى بدنه . وقد عنى الإسبرطيون قديماً

بالناحية البدنية ، والقوة الجسمية كل العناية . قال أحد الحكماء : « إن الحياة عدوٌّ لا يستطيع التغلب عليه إلا من كان قويًّا فى جسمه ، شديداً فى بأسه » . وهل فى استطاعة الرجل الذكى أن ينتفع حقًّا بما أوتى من ذكاء إذا كان ضعيف الجسم ، معتل البدن ، خائر القُوَى ؟

لهذا يجب أن نعنى كثيرا بالتربية الصحية ، والرياضة البدنية ، والألعاب الحرة ، التى يرتاح إليها الأطفال بفطرتهم ، ويقدمون عليها برغبتهم .

وكما يجب أن نعنى بالألعاب الحرة فى البيت والمدرسة ، كذلك يجب أن نعنى بالألعاب الرياضية المنظمة ، كالسباحة ، والجرى ، والتجديف ، وشد الحبل ، وكرة القدم ، وكرة المضرب ، وكرة السلة ، كى تنمو أعضاء الصبيان ، وتقوى أجسامهم .

وفى استطاعة المربى أن ينتهز الفرصة ، ويعمل على تقويم اعوجاجهم فى أثناء لعبهم ، ويبث فيهم قوة الإرادة والعزيمة والمثابرة ، وقوة الملاحظة ، والعمل للجماعة ، والانتصار لها ، والتضحية فى سبيلها بنفس راضية ، وروح صادق .

ولا يمكننا أن ننسى أن التمرينات البدنية الشاقة التى يقوم بها التلاميذ بإشراف مدرب خاص ، وسيلة من الوسائل التى تساعد فى تنمية العضلات ، وتقوية الأجسام ؛ حتى تصل إلى مستواها الممكن فى النمو . وهى تكسب الأطفال قوة فى أعصابهم ، واعتدالا فى قوامهم ، واتساعا فى صدورهم ، ونشاطا فى أعمالهم . ومتى قوى الجسم استطاع العقل أن يقوم بوظيفته الإدراكية ، واستطعنا أن نكوِّن رجالا أقوياء الإرادة ، سليمى الأجسام ، كاملى الأخلاق ، مهذبى العقول .

(٣) اللعب الجميل :

قال الغزالى : « وينبغى أن يؤذن له (للصبى) بعد الانصراف من الكتَّاب أن يلعب لعبا جميلا ، يستريح إليه من تعب المكتب ، بحيث لايتعب فى اللعب ، فإن منع الصبى من اللعب ، وإرهاقه إلى التعلم دائما يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأسا » .

وإننا نرى رأى الغزالى فى أن الطفل فى حاجة إلى اللعب الجميل ، اللعب الخفيف ، الذى يرغب فيه ، ليروّح عن نفسه ، ويستريح من تعب الدراسة فى أثناء النهار ، بحيث لا يكون اللعب شاقا متعبا ؛ فإن منع الصبى من اللعب ، وإرهاقه فى المدرسة ، وإجهاده فى البيت ، يجهد جسمه ، ويضعف نشاطه ، وينغص عليه عيشه ، وقد يؤدى الإرهاق إلى الإعياء ، فتقل حيويته ، ويقل نشاطه الفكرى . وإذا اشتد ضيقه وتعبه المزمن من كثرة العمل المستمر ، وقلة الراحة ، وترك اللعب الجميل ـ فقد يحتال على التخلص من العلم والتعلم .

والغزالى فى هذا الرأى قد سبق علماء النفس وفلاسفة التربية الحديثة فى القرن العشرين .

آداب الأكل فى نظر الغزالى :

يقول إن أول ما يغلب على الصبى شرهُ الطعام ، فينبغى أن يؤدب فيه بالآداب الآتية :

(١) ألا يأخذ الطعام إلا بيمينه .

(٢) وأن يقول عند أخذه : بسم الله الرحمن الرحيم ، وفى نهايته الحمد لله .

(٣) وأن يأكل مما يليه ، ويصغر اللقمة . عملا بقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : « كل مما يليك » .

(٤) وألا يبادر (يسرع) إلى الطعام قبل غيره .

(٥) وألا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل .

(٦) وألا يسرع فى الأكل ، وأن يجيد المضغ .

(٧) وألا يوالى بين اللُّقَم .

(٨) وألا يلطخ يده ولا ثوبه .

(٩) وألا يذم أى طعام ، فإذا أعجبه أكله ، وإلا تركه من غير ذم فيه .

(١٠) وأن يعود الخبز القفار فى بعض الأوقات ، حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتما .

ويرى أن يقبح كثرة الأكل ، بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم ،

وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل، ويمدح عنده الصبي المتأدب، القليل الأكل، وأن يحبب إليه قلة المبالاة بالطعام، والقناعة بالطعام الخشن.

ونعتقد أن غرض الغزالي تعويد الطفل القناعة، وترك الجشع، والاكتفاء بالطعام الصحي الضروري للحياة.

رأيه في ملابس الصبي :

يرى أن يحبب إليه من الثياب الملابس البيضاء دون الملونة والإبريسم (الحرير)، ويفهمه أن الملابس الملونة والحريرية خاصة بالنساء والمخنثين، لا الرجال.

الفصل العشرون

عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون

آراؤه فى التربية :

هو زعيم المؤرخين ، وكبير المربين ، وأحد الكتاب العبقريين ، عبد الرحمن بن محمد الشهير بابن خلدون. ولد بتونس فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ – ٢٧ من مايو سنة ١٣٣٢ م . وتوفى فى ٢٦ من رمضـــان سنة ٨٠٨ هـ ، ١٦ من مارس سنة ١٤٠٦ م وسنه ٧٦ سنة . ودفن خارج باب النصر بمقبرة الصوفية . وكانت تونس فى ذلك الحين تموج بأفواج من العلماء الذين نزحوا إليها من الأندلس ، بعد أن اضطربت أمورها .

حياته :

نشأ ابن خلدون(١) بين أسرة عريقة فى الشرف والرياسة ، اشتغل كثير من أفرادهـا بالعلم والسياسة . وهو من أصل عربى ينتهى إلى وائل بن حجر من كِندة(٢) ، وهى من القبائل اليمنية . لذلك شبَّ طموحاً إلى الشرف .

حفظ القرآن وقرأه وهو ابن سبع سنين ، ثم تلقى ثقافته الأولى على والده ، فتعلم اللغة العربية ، ووعى كثيرا من أصول اللغة والأدب والنحو ، واتصل بأساتذة تونس ، وأخـذ عنهم ماشاء من العلوم والمعارف ، ودرس الدراسات العقلية والفلسفية على بعض حكماء المغرب ، وأجاد الأصول والفقه على مذهب مالك ، ثم قرأ التفسير والحديث ، وتعمق فى الفلسفة والمنطق . ونبغ – وهو لم يبلغ العشرين من عمره – فى كل ماتعلمه وماقرأه حتى أقر له أساتذته بالعبقرية والتبريز والنبوغ .

تولى منصب الكتابة للسلطان أبى إسحق صاحب تونس ، ولكنه سرعان ماترك هذا

---

(١) ارجع الى الجزء الثانى من سلسلة أعلام الثقافة العربية ونوابغ الفكر الإسلامى للمؤلف وشريكه الاستاذ أبو الفتوح محمد التوانسى ، ص ٩٤ .

(٢) من قبائل اليمن .

المنصب عندما شبت الفتن والاضطرابات فى عاصمة الدولة الحفصية(١) ، فتركها قاصداً تلمسان ، ثم بِجَايَة (٢) ، ثم بلاد الأندلس ، فاستقر عند أبى عبد الله محمد بن الأحمر ملك غرناطة الذى ضمه إلى حاشيته ، واستخدمه فى بعض شئونه ، ثم بعثه سفيراً إلى « بيدرُو » ملك قشتالة .

وكان ابن خلدون سياسيا محنكا ، ذا دراية بأخلاق الحكام ، فنجح فى سفارته ، وأعجب به « بيدرو » ، حتى عرض عليه أن يقيم معه ، فأبى وعاد إلى غرناطة ، ولكنه وجد أن الحياة لم تستقم له بعد عودته ، لأن صديقه لسان الدين بن الخطيب ـ وكان وزيرا لملك غرناطة ـ بدأ يحقد عليه ، واستطاع أن يغير صدر الملك عليه ، فارتحل إلى بِجَايَة بالمغرب مرة ثانية ، واستقبله أميرها خير استقبال ، ورحب به ، ولكن الحوادث والدسائس كانت تلاحقه فى كل مكان . فلم يلبث أن فر إلى (فاس) ، واستمر مرعى الجانب فى عهد سلطانها ، ولكن عجلة الحوادث كانت تسير بسرعة ، فلم تمكن ابن خلدون من الاستقرار ، وانتهى به الأمر إلى السجن ، ثم أفرج عنه .

وعندئذ ملّ السياسة ومتاعبها ، وتاقت نفسه للهدوء فعكف على العلم ، ونزل ضيفا على بعض أصدقائه بالمغرب سنة ٧٧٦ هـ . فاستبدل بدنيا السياسة دنيا العلم ، وأخذ يبحث ويقرأ ، ويتأمل الحوادث ، واستمر ضيفاً عند بنى عريف بقلعة بسلامة عربى مدينة تونس إلى سنة ٧٨٠ هـ .

وفى هذه الفترة الهادئة من حياته أتمّ وضع المقدمة التى طارت شهرتها فى الآفاق ، غير أن ابن خلدون لم تطب له الحياة الهادئة الساكنة ، وهو الذى مارس السياسة ، وما تتطلبه من ذكاء ونشاط وحركة ، فخرج من دنياه ينشد المجد ، ولكن أعداءه كانوا له بالمرصاد ، فأخذوا ينسجون له من جديد حبال الدسائس ، ففرّ إلى مصر مدعياً أنه يقصد بيت الله الحرام للحج ، وقد ودعه بعض أنصاره وداعاً حارًّا .

(١) دولة بنى حفص . (٢) بجاية : ثغر بالمغرب الأوسط على بحر الروم بكسر الباء فى القاموس المحيط ، وفتحها فى معجم البلدان لياقوت الحموى .

ثم ركب البحر إلى قاهرة المعز لدين الله سنة ٧٨٤ هـ . وكان ذلك فى عهد السلطان برقوق الذى أكرمه ، وأحسن لقاءه .

وكانت مصر ما تزال مركزا للثقافة الإسلامية ومهبطا للعلماء من جميع الأقطار العربية .

ولم يكد يستقر فى القاهرة حتى قام بالتدريس فى الأزهر ، وما لبث أن كوّن له حلقة كبيرة من مريديه ، ومقدرى علمه ، وكانوا من فحول العلماء فى مصر ، منهم : ابن حجر العسقلانى (١) ، وتقى الدين المقريزى (٢) .

ثم أخذت صلته تقوى بالسلطان برقوق ، فولاه قضاء المالكية ، وأسند إليه التدريس ببعض المدارس .

وقد حج سنة ٧٨٩ هـ .

ولم يخل ابن خلدون من كثرة الحساد فى مصر ، فأخذوا يكيدون له ، حتى فسد الجو بينه وبين أولى الأمر ، وقد اتفق ذلك مع مصاب دهاه ، وخطب ألمّ به ، وبأهله وولده ؛ ذلك أن ابن خلدون حينما استقر بمصر وحسنت حياته فيها ، بعث إلى أسرته بالمغرب يستقدمها إلى مصر ، فتأهب أهله وبنوه ، وركبوا البحر ، ولكن سوء الحظ كان يسير فى ركابهم ؛ فقد عصفت العواصف ، واشتدت الرياح فى البحر الأبيض المتوسط ، فحطمت سفينتهم ، فغرقوا جميعا ، فاجتمع لديه كيد حساده له ومصيبته بفقد أسرته ، فشقّ عليه ذلك ، وأحزنه غاية الحزن ، واستقال من مناصبه .

ويصور لنا ابن خلدون نبأ الفاجعة بقلمه حيث يقول : « ووافق ذلك مصابى بالأهل والولد ، وصلوا من المغرب فى السفين ، فأصابها عاصف من الريح فغرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود ، فعظم المصاب والجزع ، ورجح الزهد ، واعتزمت الخروج عن المنصب (٣) . »

---

(١) ولد فى مصر القديمة سنة ٧٧٣ هـ . ومن مؤلفاته : الاصابة فى تمييز الصحابة ، والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، وهو معجم واف لتراجم المشهورين فى القرن الثامن الهجرى . وتوفى بالقاهرة سنة ٨٥٢ هـ . (٢) هو صاحب كتاب الخطط المقريزى ، وقد جمع فيه أخبار مصر وأحوال سكانها .
(٣) منصب قضاء المالكية .

ولكنه ظل منقطعا للتدريس بالأزهر والتأليف . وأعرض عن الدنيا ، واستمر يخدم العلم حتى أتم تاريخه ، ومات بالقاهرة سنة ٨٠٨ هـ . رحمه الله رحمة واسعة.

أخلاقه :

يقول لسان الدين بن الخطيب — وهو عدوه الذي حقد عليه — : « كان ابن خلدون رجلا فاضلا ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، ظاهر الحياء . . . . عَزُوفا[1] عن الضيم[2] ، صعب القادة ، خاطبا للحظ ، متقدما فى فنون عقلية ونقلية ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، بارع الخط ، مغرى بالتجلة ، حسن المعاشرة » .

وهى شهادة من عدو حاقد ؛ ففيها أبلغ دليل على ما كان عليه ابن خلدون من فضل ، وحياء ، وحسن خلق ، وبعد عن الظلم ، وقوة شخصية ، وسعة اطلاع ، وغزارة مادة ، ومهارة فنية .

ومما لاشك فيه أن هذا العالم كان ذا شخصية ممتازة ، يتمتع بعقلية جبارة ، وقريحة متوقدة ، وذكاء خارق ، وذاكرة قوية، ونظر صائب ، ورأى سديد .

إنتاجه الفكرى :

لابن خلدون مؤلفات مختلفة ، ومنها : مقدمته المعروفة لكتابه : (العبر وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) . وبالمقدمة نال شهرته العظيمة . وكل ما يهمنا هنا هو أن نذكر آراءه فى التربية .

مجهوده الفكرى فى حقل التربية الإسلامية :

وضع ابن خلدون أسس علم الاجتماع وفلسفة التاريخ . وكانت آراؤه فى التحقيق التاريخى على درجة كبيرة من السداد والصواب . وفضلا عن ذلك فقد كان أحد زعماء التربية الإسلامية الذين شاركوا فى وضع مبادئها . وقد وضحنا فى كتابنا : « التربية الإسلامية » أن كثيراً من مبادئها يتفق مع أصول التربية الحديثة فى هذا العصر .

---

(١) عزفت نفسه عن الشيء : زهدت فيه ، وانصرفت عنه . (٢) الضيم : الظلم .

أغراض التربية الإسلامية فى نظر ابن خلدون :

كانت التربية الإسلامية تستهدف غرضين :

(١) الغرض الدينى ويقصد به العمل للآخرة ، حتى يلقى العبد ربه ، وقد أدى ما عليه من حقوق .

(٢) الغرض العلمى الدنيوى ، وهو ما تعبر عنه التربية الحديثة بالغرض النفعى أو الإعداد للحياة .

وكان المسلمون يخالفون الرومان الذين كانوا يقصدون من التربية : التربية الحربية ، والتربية البلاغية؛ ويخالفون الإسبرطيين لذين كانوا يعدون الشباب للحياة الحربية، والأثينيين الذين كانوا يعملون على تعليم الشباب العلوم العقلية والفلسفية . ولا شك أن هذه الأغراض كلها دنيوية محضة ، كما كانوا يخالفون الإسرائيليين الذين كانوا يستهدفون الأغراض الدينية فحسب .

ولقد بنيت التربية الإسلامية على هذه القاعدة الحكيمة التى رسمها القرآن الكريم فى هذه الآية الشريفة : « وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرة، ولا تَنْسَ نَصيبَكَ من الدنيا». وعلى ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

فأنت ترى أن التربية الإسلامية قد جمعت بين الغرضين : الدينى والدنيوى، بعكس التربية القديمة عند اليونان والرومان . فالتربية الإسلامية فى جوهرها تتطلب من الناشىء أن يكون رجلا فاضلًا ، مهذب النفس ، نافعا فى الحياة العملية .

ومن المناهج والأساليب التربوية التى سارت عليها التربية الإسلامية يتضح لنا الغرض الحقيقى الذى كانت تسعى فى تحقيقه . وابن خلدون يحدد بدقة الغرض من التربية الإسلامية، وهو إعداد رجال يستطيعون أن يعيشوا عيشا جيدا ، كما ذهب إلى ذلك بعض رجال التربية الحديثة ، وبخاصة : « هربرت سبنسر [١] » المربى الإنجليزى .

(١) هو فيلسوف من فلاسفة التربية الإنجليزية (١٨٢٠ — ١٩٠٣ م) ، وله آراء قيمة فى التربية والتعليم .

مناهج التربية الإسلامية :

للتربية الإسلامية مناهج تختلف باختلاف البيئات الإسلامية ، ولكن المسلمين متفقون على أن القرآن الكريم هو أصل الدين ، ومصدر العلوم الإسلامية ، ولذلك جعلوه أصلا من أصول التعليم ، وأساساً من أسس التربية الإسلامية . ويقول ابن خلدون : إن الغاية من ذلك الوصول بالوليد إلى رسوخ العقائد الإيمانية فى نفسه ، وغرس أصول الأخلاق الكريمة عن طريق الدين ، الذى جاء مهذبا للنفوس ، مقوماً للأخلاق ، باعثا على الخير .

ومناهج التربية الإسلامية نوعان :

(١) منهج ابتدائى و (٢) منهج عال .

فالمنهج الابتدائى يعدُّ عاما فى جميع الأقطار الإسلامية ، من حيث الاتفاق على دراسة القرآن الكريم ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه يختلف بحسب ما يضاف إليه من المواد الدراسية باختلاف البيئات الإسلامية .

فأهل المغرب وشمالى إفريقية وبلاد البربر يقتصرون فى تربية الناشىء على تحفيظ القرآن الكريم ، ولا يخلطون معه شيئا آخر . ومن أجل ذلك كانوا أقوم من غيرهم من أهل البلاد الإسلامية على رسم القرآن وحفظه .

وأما أهل الأندلس فكانوا يمزجون بين تدريس القرآن الكريم وغيره من العلوم كرواية الشعر والنثر ، وأخذ الناشئين بقواعد اللغة العربية وحفظها ، وتجويد الخط . فإذا بلغ الناشىء عمر البلوغ يكون قد شدا بعض الشىء فى اللغة العربية والشعر ، وغيرهما من الحساب ، وتقويم البلدان ، وبرز فى الخط والكتابة ، وتعلق بأذيال العلم .

وأما أهل المشرق والمقصود بهم سكان العراق وما جاورها من الأقطار الإسلامية فمذهبهم كأهل الأندلس ، من حيث الجمع بين تحفيظ القرآن الكريم ودراسة غيره من المواد ، ولكنهم يختلفون عنهم من جهتين :

الأولى : أن عنايتهم بدراسة القرآن الكريم كانت أشد وأقوى من عناية الأندلسيين .

والثانية : أنهم كانوا يفصلون الخط من المنهج الدراسى ، ويجعلون له معاهد خاصة ، ومعلمين مستقلين ، كأنه صنعة من الصناعات ، ولذلك كان الناشئون فى الجملة فى المعاهد الدراسية الابتدائية فى الشرق لا يحسنون الخط ، ومن أراد منهم الوصول إلى درجة الإجادة التمس ذلك عند أهله ، وفى المعاهد الخاصة .

نقد ابن خلدون لهذا المنهج :

يرى ابن خلدون أن اقتصار أهل المغرب وإفريقية على دراسة القرآن الكريم للناشئين يجعلهم قاصرين عن بلوغ القدرة الإنشائية فى التعبير والإبانة عما فى النفس ؛ ذلك لأنهم كانوا يحملون الولدان على الحفظ فقط من غير تفهم لأساليب القرآن ، ووقوف على الأسرار البلاغية فى آياته على قدر الطاقة .

وهذه الطريقة عينها كانت تتبع فى الكتاتيب المصرية ، وما زالت إلى هذا الوقت فى البقية الباقية منها .

وعلى عكس ذلك أهل الأندلس الذين يخلطون مع القرآن دراسة اللغة العربية ، وفنون النثر والشعر والخط ، ولذلك مهروا فى الخط ، وكان لهم أدب بارع ، ولسان فصيح ، وقدرة مبدعة على الإنشاء والتعبير ، ثم يعرض ابن خلدون لرأى إمام من أئمة التربية الإسلامية ، وهو القاضى أبو بكر بن العربى[1] فيقول : إن له طريقة غريبة أعاد فيها وأبدى . وخلاصة طريقته أن الشعر ديوان العرب فلا بد من تقديمه ، وتقديم اللغة العربية فى الدراسة . فإذا حصّل الصبى قدراً من ذلك انتقل إلى الحساب ، فيتمرن عليه ، ويعرف قوانينه ، ثم ينتقل إلى دراسة القرآن . وهذا المنهج كما يرى ابن العربى يساعد كثيرا فى فهم القرآن ، ويقرب معانيه من أذهان الناشئين .

---

(١) القاضى أبو بكر بن العربى : هو الشيخ محى الدين ، أبو بكر محمد بن على الطائى الحاتمى الأندلسى ، صاحب التصانيف المشهورة فى التصوف ، ولد بمرسية فى سنة ٥٦٠ هـ ، ونزح فى طلب العلم إلى بغداد ومكة ودمشق وبلاد الروم . بلغت مؤلفاته ٢٠٠ ، وذكر منها (بروكلمان المستشرق الألمانى الكبير) ١٥٦ مؤلفا ، وأشار إلى أماكن وجودها ، وأكثرها فى التصوف ، وبعضها فى الجفر وأسرار الحروف ، منها الفتوحات المكية فى أربعة مجلدات كبيرة ، ومفاتيح الغيب ، ونصوص الحكم فى خصوص الكلم ، والاصطلاحات الصوفية ، ومحاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، وهو خزانة علم وأدب .

وإن ابن خلدون يوافق على هذه الطريقة ـ طريقة ابن العربى ـ ويؤيدها ، ولكنه يرى أن عادات أهل المغرب لا تساعد على أخذ الناشئين بها

يقول : « وهو لعمرى مذهب حسن ؛ إلا أن العوائد[1] لا تساعد عليه ، وهى أملك بالأحوال ، ووجه ما اختصت به العوائد (أى العادات) من تقدم دراسة القرآن إيثاراً للتبرك والثواب ، وخشية ما يعرض للولد فى جنون الصبا من الآفات[2] » .

فهو وإن كان يؤيد مذهب ابن العربى إلا أنه يوافق على ذلك بأن عادات أهل المغرب تتنافى مع الأخذ به ؛ لأنهم اعتادوا تقديم دراسة القرآن على كل ما سواه ؛ لما فى ذلك من التبرك والثواب ، ولأنه يحمى الولدان من الشرور التى قد تعرض لهم فى أيام الصبا . فابن خلدون يشرح لنا رأى أهل المغرب فى البدء بتعليم القرآن ، ولكنه لا يقر هذا الرأى كما سنشرحه فى موضعه من هذه الفصول .

المنهج العالى :

يقسم ابن خلدون العلوم المتعارفة عند أهل العراق قسمين :

(١) علوما مقصودة بالذات ، وهى العلوم الشرعية من فقه وتفسير وحديث وكلام[3] ، والطبيعيات والإلهيات والفلسفة .

(٢) علوما غير مقصودة لذاتها ، ولكنها تتخذ آلة للمهارة فى العلوم السابقة ، كاللغة العربية والحساب والمنطق .

ويرى أنه ينبغى التوسع فى تعليم علوم القسم الأول ، وتفريع مسائلها تفريعا واسعاً ، والإحاطة بها فى استيعاب واستفاضة ، حتى يقف المتعلم على دقائقها ، أما علوم القسم الثانى فلا ينبغى التوسع فيها إلا بالقدر الذى يعين على فهم المقاصد .

ومن أجل ذلك يحمل ابن خلدون حملة قوية على العلماء الذين يتوسعون فى العلوم التى تعد آلات لغيرها ؛ لأنهم أطالوا البحث فيها، ووسعوا أبوابها ، إلى الدرجة التى جعلتهم ينحرفون

---

(١) يقصد العادات . (٢) العاهات . (٣) علم الكلام هو علم التوحيد .

بها عن الغاية منها، فأصبحت هذه العلوم غاية مقصودة، والأصل فيها أنها وسيلة إلى غيرها، فالاشتغال بها وترك المقاصد فيه مضيعة لوقت المتعلم.

ثم يؤثر ابن خلدون علم النحو، وهو كما يرى من العلوم التى تتخذ آلة لغيرها - بنقده اللاذع، ويفصح عن رأيه فيه، فيقول : إن العلماء أطنبوا فى تقرير مباحثه، وأكثروا من التفريعات والتخريجات، مما جعله يخرج على الغاية التى وضع من أجلها. ويبدو من قوله أن الثورة على النحو ذات جذور قديمة.

ومما يوضح فكرة ابن خلدون فى الثورة على النحو أنه لا ينبغى أن يدرس هذا العلم دراسة نظرية، لأن الغاية منه تدريب الطفل على أن يجيد التعبير عما فى نفسه، وأن يقرأ قراءة صحيحة، ويفهم ما يقرأ. والنحو والبلاغة ضربان من فلسفة اللغة، فيجب ألا يبدأ فى تعليمهما للطفل إلا بعد أن يبلغ سنا ملائمة، وهذا مما يتفق تماما مع مناهجنا الحديثة.

والخلاصة أن ابن خلدون يرى التوسع فى العلوم الشرعية، وعدم التوسع فى العلوم الآلية حيث ينصح ألا يوسع الكلامُ فى العلوم الآلية، بخلاف العلوم المقصودة بالذات، وذلك أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين : علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه، وعلوم آلية هى وسائل لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما.

فأما العلوم التى هى مقاصد فلا حرج فى توسيع الكلام فيها، وتفريع المسائل؛ فإن ذلك يزيد طالبها تمكناً فى ملكته، وإيضاحا لمعانيها المقصودة.

وأما العلوم التى هى آلة لغيرها فينبغى أن يقتصر فيها على القدر الذى يساعد على فهم الأولى لا غير؛ إذ أن توسيع الكلام فيها قد يعوق عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات؛ لطول وسائلها، مع أن شأنها أهم، والعمر يقصر عن تحصيل الوسائل والغايات على هذه الصورة المطولة.

آراؤه فى التربية وطرقها

(١) ضرورة إلمام المربِّى بفن التدريس والتربية والتعليم :

لا يكفى أن يكون العلم وحده سلاح المعلم ، بل لابد له من دراسة نفسية للأطفال، ومعرفة درجة استعداداتهم ومواهبهم العقلية ، حتى ينزل إلى مستواهم الفكرى ، وبذلك يتم الاتصال بينه وبين الناشئين ؛ يقول تحت هذا العنوان فى المقدمة (فصل فى أن التعليم للعلم من جملة الصناعات) :

« ومما يدل على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه ، فلكل إمام من الأئمة المشهورين اصطلاح فى التعليم يختص به شأن الصناعات كلها ، فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم ، وإلا لكان واحدا عند جميعهم » . إلى أن يقول : « وملازمة المجالس العلمية ، وكثرة الحفظ ، والعناية بتحصيل العلم — ليست جميعها بما نحة ملكة التصرف فى العلم وتعليمه » . ثم يقول : « ومن أهم ما يلزم فى العلم فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة ، والعمل على تحصيل الملكة التى هى صناعة التعليم » .

وواضح من كلام ابن خلدون أن دراسة فن التربية وطرق التدريس من أهم مايعنى به المربون . ثم يلوم المدرسين الذين لا يعنون إلا بتربية الحافظة ، وحشو أذهان التلاميذ بمعلومات لاتترك أثرا فى عقولهم .

ويقول : « إن مدة الدراسة فى بلاد المغرب تصـــل إلى ست عشرة سنة ، ومع ذلك لم يحصل الناشئون على المهارة فى العلم وكسب الملكة فيه ، بسبب عناية مدارسهم بالحفظ دون سواه . وهذا بعكس النظام التربوى فى المدارس التونسية ؛ فمدة الدراسة لاتزيد على خمس سنوات ، ومع ذلك يحصل الناشئون على الملكة فى العلم ، بسبب اهتمام المدرسين بالبحث والمناظرة ، وحمل التلاميذ على التفكير ، مع مراعاة استعداداتهم .

وإننا نعتقد أن دراسة علوم التربية واجب على من يريد أن يكون معلما ؛ لأنه لا يكفى أن يعلِّم غيره كما كان يعلَّم ، ويحاكى محاكاة الضال ، من غير مراعاة لسن الأطفال، أو مستواهم

العقلي أو مستواهم الخلقي ، أو ميولهم ورغباتهم ، ويعتمد على الكتب الدراسية كل الاعتماد ، ولا يستطيع أن يعلم تلاميذه كيف يستذكرون دروسهم ، ولا يعرف الطرق السديدة في التدريس . وإن المدرس الذى لم يدرس التربية وعلم النفس وطرق التدريس، ولم يعد الإعداد الضروري لمهنة التعليم - يعد فى نظرنا طفلا . ولا يجوز أن يقوم طفل بتعليم طفل آخر ؛ فإن هذا النوع من التعليم ناقص .

إنه فى حاجة إلى نور يستنير به ، ومصباح يستضىء به ، ومرشد يرشده إلى الطريق المستقيم ، فى حاجة إلى دراسة التربية وعلم النفس ، والطرق الحديثة فى التربية والتعليم ، حتى تتضح فى نفسه أصول التربية ونظرياتها ، وطرقها العامة والخاصة ، وآراء المربين والمصلحين .

ونرى أن المربى يصنع كما يخلق[١] ، فيكون مصنوعا كما يكون مطبوعا ، وأن العلم بالمادة وبالطرق الحديثة فى تدريسها يساعدان المدرس فى النجاح فى عمله . ولا ننكر أن المدرس المطبوع خير من المدرس المصنوع إذا درس الاثنان علوم التربية . ولا يكفى أن يكون المدرس مطبوعا ليكون ماهرا فى مهنة التدريس ، بل يجب أن يدرس التربية وتاريخها وطرقها العامة والخاصة ، ونفسية الأطفال ؛ كى لا يقع فى الخطأ الذى وقع فيه غيره ، ممن لم يدرسوا التربية ، وعلم النفس ، والصحة المدرسية من قبل .

وتتطلب مهنة التدريس أن يكون المدرس متينا فى المادة التى يقوم بتدريسها ، بحيث يعرف كل صغيرة وكبيرة عنها ، وأن يدرس علوم التربية ونفسية الأطفال وميولهم وغرائزهم ، كى يستطيع أن ينجح فى عمله . ومما يخالف العقل أن يقوم بتعليم الأطفال قوم لا يعرفون شيئا عن قواعد التربية وطرقها .

وإن الوسيلة الوحيدة لإصلاح المدارس والنهوض بالتعليم هى إعداد المدرسين لمهنتهم . وإننا لانتردد فى أن نقول إنك لايمكنك أن تعلم إلا إذا عرفت الغرض من التربية ، وتمكنت من معرفة أصولها ووسائلها وطرقها فنا من الفنون ، وعرفت نظرياتها واتجاهاتها الحديثة علما من العلوم ، ودرست ما قاله وما جربه علماء التربية وفلاسفتها .

(١) ارجع إلى كتابى : (روح التربية والتعليم) و (والاتجاهات الحديثة فى التربية) للمؤلف .

(٢) ينبغى أن يراعى فى التدريس التدرج والتكرار ، أو الإجمال فى البدء ثم التفصيل :
يجب أن يكون تعليم الناشئين قائما على أساس إجمـــال المعلومات فى البداية ، على أن يكون التفصيل بعد ذلك بالتدرج ، فتلقى على الناشىء أولاً مسائل من كل باب من الفن ثم يقربها المدرس من أذهان التلاميذ بالشرح الواضح ، مراعيا فى ذلك درجة نمـوهم العقلى ، وقدرة استعدادهم لقبول مايلقى عليهم ، حتى ينتهى إلى آخر الفن على هذا النحو .

وابن خلدون يتفق مع التربية الحديثة فى ضرورة مراعاة الاستعدادات والمواهب الفطرية فى التدريس ، ثم يعود المدرس مرة ثانية إلى هذا الفن فيرفع الناشىء فى التلقين مرتبة أعلى من الأولى باستيفاء الشرح والبيان ، والخروج من الإجمال إلى التفصيل ، حتى ينتهى إلى آخر الفن . ثم يعود مرة ثالثة إلى هذا الفن أيضا ، فلا يترك مسألة عويصة منه ، ولا مشكلة من مشكلاته ، ولا مبهما أو مغلقا من أبوابه إلا وضحه وزاده بيانا ، وفتح مغلقه .

فهذه التكرارات الثلاثة فى رأيه تفيد فى تثبيت الفن فى ذهن الناشىء ، وتمكنه من الحصول على الملكة فيه . والمقصود من هذه الملكة المهارة فى الفن والانتفاع به فى الحياة العملية، ثم يعلل لهذه التكرارات الثلاثة بأن استعداد الناشىء لفهم العلم يأتى تدريجيــا ، وهذا ما تنادى به التربية الحديثة التى تقول بتدريج النمو العقلى للطفل ، وأنه يــأتى على مراحل ، فتعليم الأطفال أهم القواعد وأسهلها ، ثم الانتقال إلى ماهو أصعب تدريجا قريب مما قاله « بستالوتزى[١] » المربى السويسرى فى هذا الشأن ؛ كأن تدرس له مبادىء التعبير ، ثم الأبواب السهلة من قواعد اللغة العربية ، ثم تتدرج حتى يفهم التلاميذ القواعد الضرورية لمعرفة اللغة العربية .

---

(١) هو (يوحنا هنرى بستالوتزى) من قادة التربية . ولد بسويسرة سنة ١٧٤٦ وتوفى سنة ١٨٢٧ م وقد بذل كل جهد فى تحسين أحوال الفقراء بتعليمهم

(٣) الانتفاع بوسائل الإيضاح والرحلات فى تبسيط الدروس :

يحث ابن خلدون على الاعتماد على الأمثلة الحسية فى تفهيم التلميذ ؛ لأنه فى البداية ضعيف الفهم ، قليل الإدراك . والأمثلة الحسية تكون عونا صادقا على فهم ما يلقى عليه ، كما يحث على الرحلة إلى الأقاليم النائية فى طلب العلم واستفادته ؛ لأنها تفتح أمام الناشئين كثيرا من أبواب العلم ، وتوقفهم على مشاهد لها أثر فى توضيح المعلومات وفهمها ، وتزيد فى تجاربهم ، وتكسبهم علوما وأفكاراً لا تتاح لهم لو عاشوا طول حياتهم فى بلدهم .

والتربية الحديثة توافق ابن خلدون على استخدام الرحلات وسيلة عظيمة الأهمية فى تحصيل المعلومات بطريقة عملية ، وإن كان ابن خلدون يقصد من الرحلة شيئا آخر ، وهو لقاء كبار العلماء والأدباء والفقهاء حيث يقول : « إن الرحلة فى طلب العلم ولقاء المشيخة ـ أصحاب الاختصاص ، وكبار رجال العلم والتعليم ـ مزيد كمال فى العلم ، والسبب فى ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم ، وما يتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء ، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة ، إلا أن حصول الملكات من المباشرة والتلقين أشد استحكاما ، وأقوى رسوخا ، ولاسيما عند تعدد الأساتذة وتنوعهم .

لقد نادى ابن خلدون بالرحلة والسفر من أجل طلب العلم ، ولا عجب ؛ فقد كان المسلمون يرحلون من بلد إلى بلد ، ومن مدينة إلى أخرى ، لتحقيق كلمة أو جملة أو مسألة من المسائل ، على يد علماء عرفوا بالتبحر فى العلوم . ولم يبالوا بمتاعب السفر ومشاقه .

وقد وجد الخطيب التبريزى مجلدات من كتاب التهذيب للأزهرى ، بعضها فى حاجة إلى الضبط ، فسافر وهو يحمل كتابه على ظهره ؛ لعجزه عن دفع أجرة جمل يركبه ، وقصد أبا العلاء المعرى بالمعرة ، والمسافة بين تبريز والمعرة ألف كيلو متر تقريبا .

وقد ذكر ابن خلدون أن تاج الإسلام أبا سعد تلقى العلم فى الديار المختلفة ، واتصل بأربعة آلاف من الأساتذة ، وأن سليمان الفلسطيني اتصل فى مصر واليمن والجزيرة والحجاز بألف أستاذ فى اثنتين وعشرين سنة .

وفى طلب الحديث ، ورؤية أئمته والاجتماع بهم كان المحدث يتنقل أحيانا بين مراكش وإفريقية ومصر والعراق والشام وخراسان ، لتحقيق حديث واحد من الأحاديث .

وما زلنا حتى اليوم نشجع البعثات إلى أوروبة وأمريكا ، ونرجو الإكثار منها فى سبيل طلب العلم ، وتلقيه عن علماء مبرزين فى الطب والصيدلة والهندسة والطبيعة والذرة والكيمياء ، حيث تكثر المراجع والمجلات ، والمؤلفات الحديثة ، والمعامل الفنية ، والتدريبات الكثيرة ، والمصانع الكبيرة .

(٤) ألا يؤتى بالغايات فى البدايات :

ومعنى ذلك ألا تقدم إلى الناشىء التعريفات والقوانين الكلية فى أول عهده بالدرس ، بل الواجب الابتداء بالأمثلة الكافيــــة التى تساعد فى فهم القواعد والتعريفات ؛ لأن مواجهة الناشىء بهذه القواعد الكلية وإلقاء مسائل الفن عليه دفعة واحدة ، وهو غيـــر مستعد لفهم مايلقى عليه فى هذه الفترة من عمره العقلى - يصيب عقله بالكلال والكسل ، ويقتل نشاطه الفكرى ، ويجعله ينصرف عن العلم ويكرهه . وليس للعلم ذنب فى ذلك ، وإنما العيب يرجع إلى الطريقة السيئة التى لا تراعى ميول الناشئين واستعداداتهم .

ومن أمثلة هذه الطريقة التى ينهى عنها ابن خلدون الابتداء بتعليم الناشىء إعراب « بسم الله الرحمن الرحيم » وبيان مافيها من وجوه فى الإعراب ، وهو لم يعرف بعدُ أقسام الكلام ، ولا تقسيم الكلمة . وقد كانت هذه الطريقة متبعة فى صدر هذا العصر ، ثم عدل عنها لخروجها على قواعد علم النفس والتربية الحديثة .

(٥) ضرورة الاتصال فى مجالس العلم :

يرى ابن خلدون ألا يطوّل على المتعلم فى الفن الواحد بتفريق المجالس ، وتقطيع مابينها ؛ لأن ذلك ذريعة النسيان ، وانقطاع مسائل العلم بعضها عن بعض ، وأن يحرص المدرس على أن تكون الدروس التى تلقى على الناشىء متصلة لا انفصال بينها . وهذا الرأى لا تقره التربية الحديثة ؛ لأنها تنادى بضرورة التنويع والتغيير فى الدروس ؛ لأن النفس تسأم العمل

الواحد المستمر ، ولأن فترات الراحة التى تكون بين الدروس تساعد فى النشاط ، وتثبيت المعلومات فى أذهان المتعلمين ، كما يقول علماء النفس فى هذا العصر .

(٦) عدم الخلط بين علمين فى وقت واحد :

ينادى ابن خلدون بأنه لايجوز أن يعلَّم الناشىء علمين معاً فى وقت واحد ؛ لأنه قل أن يظفر بواحد منهما ، بسبب تقسيم البال ، وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم مسائل العلم الآخر . فيستغلقان معا (١) ، وبذلك يبوء بالخيبة والإخفاق فيهما . ولكنه إذا تفرغ لعلم واحد كان قمينا بتحصيله . ومعرفة مسائله ، وغير شك أن رأيه هذا ينافى طرق التربية الحديثة ،التى تدعو إلى تنويع مواد الدراسة فى مرحلة الثقافة؛لأن ذلك مما يجدد نشاط المتعلمين ، ويزيد فى إقبالهم على تلقى الدروس ، أما الاستمرار فى دراسة علم واحد فإنه يدعو إلى السآمة والملل والتعب العقلى .

(٧) ألا يبدأ بتدريس القرآن إلا عندما يصل الطفل إلى درجة معينة من التفكير :

يلوم ابن خلدون المربين فى زمانه على تلك العادة الشائعة ، التى ليس لها مبرر ، والتى تقضى بتحفيظ القرآن للناشىء فى بداية تعليمه ؛ اعتقادا منهم أن دراسة القرآن للوليد تعوده منذ الطفولة أن يكتب ، وأن يتكلم بلغة فصيحة ، وأنه يحميه من شر الرذائل. ويقول: إن القرآن كلام الله المنزل ، وليس لنا أن نقلده ، وليس له تأثير فى اللغة قبل أن يفهم الوليد معانيه ، ويتذوق أساليبه . ولن يكون للقرآن تأثيره اللغوى والمعنوى إلا بعد أن يصل الطفل إلى درجة معينة من التفكير ، تمكنه من فهم معانيه .

ويضيف ابن خلدون إلى ذلك رأيا له قيمته فى وقتنا الحاضر ؛ فقد زعم بعض المفكرين إمكان ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية ، وابن خلدون يقول بعبارة صريحة : إن القرآن والسنة عربيتان ، ليس من الممكن ترجمتهما ، وبخاصة القرآن الكريم. والشعوب الإسلامية غير العربية لم تحاول ترجمته عملا بالنص الكريم : « إنَّا أنزلناه قرآناً عربيًّا » .

(١) ارجع إلى مقدمة ابن خلدون (فصل فى وجه الصواب فى تعليم العلوم وطريق إفادته) .

والأجدر أن يبدأ التلميذ بتعلم القراءة والكتابة والحساب ثم ينتقل إلى قراءة القرآن الكريم، وتفهم معانيه، وحفظه.

(٨) تجنب المختصرات في التعليم :

يرى ابن خلدون أن من العوامل التي تقف عقبة في سبيل التعليم اختصار الكتب، ويبين أن المتأخرين قد أولعوا بهذه الطريقة، ويذكر منهم ابن الحاجب الفقيه المالكي — ومن مؤلفاته "الكافية في النحو، ثم الشافية، وهي في مختصر النحو — وابن مالك صاحب الألفية في النحو.

ولاشك أن في هذه الطريقة إفساداً للتعليم، وإخلالا بالتحصيل(١)، وتضييعا لوقت المتعلم في تتبع ألفاظ الاختصار العويصة في الفهم، واستخراج المسائل من بينها. وقد حمل هذا المتأخرين على أن يقصدوا بالمختصرات تسهيل الحفظ على المتعلمين، فأركبوهم مركبا صعبا، يحول بينهم وبين الانتفاع بالدراسة. وإذا كنا نثور على هذه المختصرات في المدارس فقد سبقنا ابن خلدون في هذه الثورة؛ لأنها ترهق العقل، وتشوش نظامه، وتضيع وقت الطلبة، ثم لاتثبت معلوماتها في أذهانهم إلا مدة يسيرة. ومن أجل ذلك حاربناها في التربية الحديثة. كما حاربها ابن خلدون من قبل. « ومن يُضْلِلِ اللهُ فما له من هاد؛ ومن يَهدِ اللهُ فما لهُ مِن مُضِلٍّ(٢) ».

وقد انتقدنا موضوع (الملخصات) في كتابنا: (روح التربية والتعليم)(٣) قائلين: يقوم بعض المدرسين في تدريس الجغرافية والتاريخ والقواعد والأدب، والبلاغة، وعلم النفس، والمنطق، بإعطاء ملخصات تذكر فيها الحقائق بإيجاز، فتصبح المادة جافة صعبة. ويشجع التلاميذ على حفظ هذه الملخصات عن ظهر قلب؛ للانتفاع بها في الامتحان. وبهذه الوسيلة تترك الكتب الدراسية، ويستبدل بالكتب تسمى ملخصات. فمن ملخص في الجغرافية إلى ملخص في التاريخ، ومن مذكرة في القواعد إلى مذكرة في الأدب والبلاغة،

---

(١) ارجع إلى مقدمة ابن خلدون (فصل في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم).

(٢) سورة الزمر: ٣٦ — ٣٧ (٣) صفحة ٣٠٨ — ٣٠٩

ومن موجز فى علم النفس إلى موجز فى علم المنطق ، فهناك ملخصات فى كل مادة من المواد تسرد فيها الحقائق سرداً بطريقة جافة، ويحمل التلاميذ على شرائها وحفظها. وليتهم يكتفون بإرشاد التلاميذ إلى الرجوع إليها عند الضرورة قرب الامتحان ، ولكنهم يضيعون أوقات التلاميذ ، فبدلًا من أن تدرس المادة بطريقة سائغة جذابة ، وتصاغ الحقائق الجافة فى أسلوب يجتذب قلوب التلاميذ يملون عليهم فى بعض الدروس ـ فى كراسات خاصة ـ النقط والعناصر فى المادة التى يقومون بتدريسها ؛ فبدلًا من أن يدرس التلاميذ كتباً متنوعة مشوقة فى كل مادة من المواد يكتبون سطوراً فى كل درس، وصفحات فى كل مادة؛ ليحفظوها ويستخدموها فى الإجابة فى الامتحانات ، فأوقات التلاميذ ضائعة ، ومعلوماتهم محدودة . ولا غرابة إذا ضعف مستوى التعليم .

ولا عجب إذا نفر التلاميذ من الدراسة ، وسئموا العلم والتعليم ؛ لأنهم لم يجدوا من يرغبهم فى البحث ، أو يستميلهم إلى الاطلاع . . . . وإذا كنت فى شك مما نقول فاطلع على بعض كراسات التلاميذ فى المدارس الإعدادية والثانوية تجدها ملخصات أمليت عليهم فى أثناء التدريس. لهذا كثر التأليف فى هذا النوع من الكتب الدراسية التى يعمد المؤلفون فى تأليفها للإيجاز : كى يستطيع التلاميذ وعيها وحفظها عن ظهر قلب . . . . وفى هذه الطريقة تنفير للتلاميذ من البحث والتنقيب ، للوصول إلى الأدب والعلم والحكمة . وترغيبهم فى القراءة والاطلاع فى أوقات الفراغ ، فى المدرسة وخارجها .

(٩) عدم مطالبة التلاميذ باستيعاب ما كتب فى كل علم :

ويرى ابن خلدون ألا يطالب التلاميذ باستيعاب ما كتب فى كل علم ، فإن ذلك يعوقهم عن التحصيل . فقد قال : « اعلم أنه مما أضرّ بالناس فى تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف ، واختلاف الاصطلاحات فى التعليم ، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك كله ، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ، ومراعاة طرقها ؛ ولا يفى عمره

بما كتب فى صناعة واحدة إذا تجرد (تفرغ) لهـــا ، فيقع القصور ، ولا بد ، دون رتبه التحصيل[١] » .

فالكتب كلها متكررة ، والآراء مكررة ، والمعنى واحد ، والطالب ملزم باستحضارها كلها ، بمعرفة ما بينها من فرق ، والعمر ينقضى فى واحد منها .

(١٠) استعمال الشفقة فى معاملة الأطفال وتهذيبهم:

يدعو ابن خلدون إلى الرحمة بالأطفال ، وتهذيبهم باللين والتفاهم ، لا بالشدة والغلظة ؛ لأن مجاوزة الحد مضرة بالتعلم ، ومفسدة لأخلاقه . فإذا أخذ التلميذ بالقسوة والغلظة ضاعت نفسه ، وذهب نشاطه ، وكان إلى الكذب والكسل والخبث أميل ، وعندئذ يتظاهر بمـــا ليس فيه ، فيفسد منذ الصغر . وفى ذلك يقول[٢] : « وذلك أن إرهاف[٣] الحد فى التعلم مضر بالمتعلم ، سيما فى أصاغر الولد ؛ لأنه من سوء الملكة . ومن كان مرباه بالعسف[٤] والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا[٥] به القهر[٦] ، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه إلى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما فى ضميره ، خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك . وصارت له هذه عادة وخلقا ، وفسدت معانى الإنسانية التى له من حيث الاجتماع والتمـــرن ، وهى الحمية[٧] والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وسار عيالاً على غيره فى ذلك ، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل ، والخلق الجميل ، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها ، فارتكس[٨] وعاد فى أسفل السافلين . . . . فينبغى للمعلم فى متعلمه ، والوالد فى ولده ألا يستبد عليهم فى التأديب .

---

(١) ارجع إلى مقدمة ابن خلدون « فصل فى أن كثرة التأليف فى العلوم عائقة عن التحصيل »

(٢) ارجع إلى مقدمته « فصل فى أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم » . (٣) مجاوزة .

(٤) الشدة والقسوة . (٥) السطو : القهر بالبطش . (٦) الإجبار والسيطرة .

(٨) ارتد وانقلب .

وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في (حكم المعلمين والمتعلمين): « لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئا . ومن كلام عمر رضي الله عنه : « من لم يؤدبْه الشرعُ لا أدَّبَهُ الله . » حرصا على صون النفس عن مذلة التأديب ، وعلما بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له فإنه أعلم بمصلحته » .

وإننا لانوافق مطلقا على استعمال السوط في التربية والتأديب . ولا مانع من استعمال العصا بدلاً من السوط عند الضرورة القصوى ، إذا لم تنجح كل الوسائل التهذيبية في تأديبه .

فابن خلدون يرى أن استعمال الشدة مع التلاميذ مضرة بهم جسميا، وخلقيا، واجتماعيا ووجدانيا . وقد تأثر في رأيه بآراء من سبقه من فلاسفة الإسلام .

فابن سينا يقول إن حسم الداء خير من علاجه ، وإن المربي الحازم هو الذي يبعد الطفل عن البيئة التي تشجعه على الأخطاء . فإذا أخطأ الطفل استعمل معه المربي وسائل الحكمة بالترغيب حينا ، والتوبيخ حينا ، والتفهيم أحيانا ، والإعراض مرة ، والإقبال أخرى . فإذا اضطر إلى استعمال اليد في العقوبة فلا مانع . وليكن أول الضرب قليلا موجعا ؛ فإن الضربة الأولى إذا كانت موجعة اشتد خوف الصبي مما بعدها . وإن كانت خفيفة لا ألم فيها كان ظنه حسنا بالباقي فلم يكترث له .

والغزالي يرى ألا يقسو المعلمون على تلاميذهم ، وينادي بالإشفاق بهم ، والعطف عليهم، ومعاملتهم معاملة الأبناء . وعليهم أن يزجروهم عن الأخلاق السيئة بوسيلة التعريض إذا أمكن ، وبطريقة الرحمة لا بالتوبيخ ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على المخالفة ، ويهيج الحرص على الإصرار في الخطأ ، إذ قال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو قدوة المعلمين جميعا : « لو منع الناس عن فت البعر لفتُّوه ، وقالوا مانهينا عنه إلا وفيه شيء ؛ » لأن الإنسان مولع بحب الأشياء التي يمنع منها .

ويرى العبدري منع الشدة في معاملة الأطفال ، ويحذر المعلمين من إعداد عصا لضرب الصبيان ؛ لأن هذا لا يليق بمن يتصدى [illegible]

صبي يكفيه أن يعبس معلمه في وجهه ، وآخر لايصلح له إلا الغلظة في الكلام ، وآخر لايرتدع إلا بالضرب والإهانة . فإذا اضطر المعلم إلى الضرب فليكن ضربا غير مبرح ، ولا يزيد على ثلاثة أسواط شيئا ، ولتكن أداة الضرب رقيقة .

ونعتقد أن قول العبدرى : (ولتكن أداة الضرب رقيقة) ينافى استعمال السوط في العقاب بالضرب ، ونستحسن استعمال العصا بدلاً من السوط ، فنضربه بها ثلاث ضربات ، مع استعمال الحيطة والحذر ، والبعد عن العينين والوجه والرأس ؛ كي لا نصيبه بعاهة من العاهات .

فالمربون من المسلمين وهم ابن سينا والغزالى والعبدرى وابن خلدون وغيرهم يرون منع الشدة في عقوبة التلاميذ . وإننا نتفق معهم في أن نعامل كل طفل المعاملة التي تلائمه ، ونلين حينا ، ونشتد إذا دعت الحاجة ، وقضت الضرورة .

وبالقدوة الحسنة ، والنصيحة على انفراد ، نستطيع أن نصلح الكثير من التلاميذ . وبالترغيب والتشجيع يمكننا أن نحببهم في الدراسة والتعلم ، وأداء الواجب .

وإن كلمة تشجيع تؤثر تأثير السحر في نفس التلميذ الذى تفكر في عقوبته . وإذا شعر التلميذ بعطفك عليه فثق بأنه لن يفعل شيئاً يغضبك ، ولن يرتكب في درسك أمرا يستحق عليه العقوبة ، وسيحرص كل الحرص على الانتباه والإصغاء ، والمحافظة على النظام ، وأداء الواجب . فالمهم أن يحس بتفكيرك فيه ، وفي النهوض بـه ، ويشعر بإشفاقك عليه ، وعنايتك به .

وقد نصح ابن خلدون المعلمين والآباء والأمهات ألا يستبدوا في التعليم والتهذيب ، والتربية والتأديب ، ورسم لهم منهجا قويما لتأديب الصغار ، وطريقة معاملتهم ، واستمده من وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين وهذه الوصية تقوم على أساسين ، وهما :

(ا) منهج دراسى لتعليم الأمين .

(ب) طريقة لتنفيذ هذا المنهج وتعليمه .

وهى من أبلغ الوصايا التربوية التي يجدر بالمعلمين أن ينتفعوا بها . قال ابن خلدون :

« ومن أحسن مذاهب التعليم ماتقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين[1] فقال : « يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصيّر يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة . فكن بحيث وضعك أمير المؤمنين » .

أقرئه القرآن ، وعَرّفه الأخبار ، وروّه الأشعار ، وعلمه السُّنن ، وبصّره بمواقع الكلام وبدئه .

وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته . وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه .

ولا تَمُرّنّ بك ساعةٌ إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه .

ولا تُمعِنْ فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه . وقَوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة . »

وإننا نرى أن هـــذه الوصية تتمثل فيها الحكمة ، وسداد الرأى ؛ فهى تحتوى على منهج من أحسن المناهج الدراسية للمدارس الثانوية ؛ فمن قراءة للقرآن الكريم إلى دراسة للتاريخ والأخبار ، ومن رواية لـــلأدب والأشعار إلى تعلم السنن ، ودراسة اللغة العربية وبلاغتها . ومن تربية أدبية علمية فى مرحلة الثقافة العامة إلى تربية خلقية اجتماعية بتعويده الآداب العامة فى المجتمع ، كمنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، واحترام كبار القوم ، والعناية بأخلاقه ، وتهذيبها بأحسن الوسائل ، وإرشاده إلى الطريق المستقيم عند الحاجة إلى الإرشاد ، ونصحه عند الاحتياج إلى النصيحة . وانتهاز كل فرصة لإفادته علميا وأدبيا ، وخلقيا واجتماعيا ، مع استعمال طرق الترغيب والتشجيع لا التخويف والإرهاب ، وإدخال السرور على نفسه ، والوصول إلى أن يعمل برغبة وشوق ، وتجنب الأمور التى تؤدى إلى حزنه ، حتى لا يكل ذهنه ، بسبب الحزن ، فيمل العمل ، ويسأم من الدراسة والتربية .

وفى الجزء الأخير من وصية الرشيد خير دستور فى المعاملة الطبيعية ، والعقوبة المدرسية ، حيث يقول : « ولا تُمعِن فى مسامحته ، فيستحلى الفراغ ويألفه . وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة . فإن إباها فعليك بالشدة والغلظة . »

(١) ارجع الى مقدمة ابن خلدون (فصل فى أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم) .

(١١) القدوة الحسنة :

لم تصل التربية الحديثة إلى أبدع من اتخاذ القدوة الحسنة وسيلة إلى تعليم الأخلاق ، وغرس أصول الفضائل فى النفوس ؛ فالأطفال فى رأى ابن خلدون يتأثرون بالتقليد والمحاكاة والمثل العليا التى يرونها أكثر مما يتأثرون بالنصح والإرشاد . وقد اقتبس رأيه مما كتبه عمرو بن عتبة إلى أحد المعلمين لولده ، حيث قال :

« ليكنْ أولَ إصلاحك لولدى إصلاحُك لنفسك ؛ فإن عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما صنعتَ ، والقبيح عندهم ما تركتَ . عَلِّمهم كتابَ الله ، ولا تُمِلَّهُم فيه فيكرهوه ، ولا تتركهم فيه فيهجروه . رَوِّهِمْ من الحديث أشرفَه ، ومن الشعر أعفَّه ، ولا تنقلهم من علم إلى آخر حتى يُحْكموه ، فإن ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم ؛ وعلمهم سنن الحكماء ، وجنبهم محادثة النساء ، ولا تتَّكِلْ على عذرٍ منى لك ؛ فقد اتكلت على كفاية منك . »

وتتناول هذه الوصية إقرار مبدأ القدوة الحسنة فى التعليم ، ثم وضع منهج دراسى لا يخرج عن المنهج الذى أشارت إليه وصية الرشيد ، وطريقة تعليم هذا المنهج . وفيها ترديد لبعض آراء ابن خلدون . ومنها عدم الانتقال بالتلميذ من فن إلى فن حتى يتمكن من الإحاطة بأصول الفن الأول . وقد أشرنا من قبل إلى أن هذا الرأى ينافى مبادئ التربية الحديثة . وتناولت هذه الوصية مبدأ لم يرد فى وصية الرشيد ، وهو منع الوليد من مخاطبة النساء ؛ لأن اعتياد الولدان مخاطبة النساء منذ طفولتهم يضعف فى نفوسهم الشهامة والنخوة ، ويعودهم النعومة ، فيفقدون على مر الأيام مقومات الرجولة .

ولا ينكر أحد ما للمدرس من الأثر الكبير فى الرقى وإصلاح المجتمع الإنسانى ، علميا وخلقيا ، وأدبيا وصحيا واجتماعيا . وإننا لا ننتظر من المدرس أن يكون مدرسا فحسب ؛ بل ننتظر منه أن يكون مصلحا بالقدوة الحسنة ؛ والعظة حيث تنفع العظة . وإن أثر المدرس الكفء يظهر فى تلاميذه كما يظهر أثر الآباء فى الأبناء . وإن وجود مدرس قدير مخلص ، كريم الخلق ، قوى الشخصية فى المدرسة كثيرا ما يغير بيئتها وينهض بها ؛ فهو مثل صالح

لزملائه وتلاميذه ، يقتدون به فى إخلاصه وخلقه وعمله . وفى استطاعته أن يبث فى نفوس النشء الصغير ماترى فيه الخير لهم ولوطنهم . فنى سنوات الطفولة يمكنه أن يضع الأساس المتين ، ويغرس المبادىء المثالية ، والمثل العليا ، والأخلاق الكريمة ، والعادات الحسنة فى نفوس أطفال اليوم ، ورجال الغد .

فالمدرس يجب أن يكون مثلا عاليا ، وقدوة حسنة للتلميذ ، يحذو حذوه ، ويقفو أثره ، ويجرى على طريقته ، ويحاكيه فى عمله وإخلاصه ، ووفائه . هو روح التربية ، وهو القائد ، والصديق ، والمربى لا بالاسم فحسب ، بل بالحقيقة والروح .

ولا يستحق فى نظرنا ذلك اللقب العظيم : « لقب معلم » إلا الرجل الكامل ، الذى يترفع عن الدنايا ، ويربأ بنفسه عن فعل القبيح ، وأعتقد أن المناهج الدراسية ، والقوانين المدرسية ، والأبنية الفخمة ، والأجهزة العظيمة ليست بأكثر أهمية فى التربية والتعليم من المدرس ؛ فإن له أثراً كبيرا فى التلميذ ، فى علمه وأدبه ، وفى عمـله ومهارته ، وفى أخلاقه وتصرفاته .

ولاشك أن المعلمين قادة الأفكار فى الأمة ، يمثلون الطبقة المثقفة العالمة فيها ، ويقومون بعمل جليل ، فعليهم النهوض بأطفال اليوم ورجال الغـد ؛ وبهم ترقى الأمة إلى أسمى درجات الحضارة والمدنية . وبالمدرسين تنهض الشعوب ، وتنتصر ، وتسمو من حضيض الجهل والوحشية إلى أوج العلم والمدنية . وإذا أردت أن ترى أثر المدرس فانظر إلى الأمم الراقية وحضارتها ومستواها ، فى الحياة والمعيشة والصحة والرقى والتعليم ، تجدها أثرا من آثار المدرسين ، وحسنـة من كثير حسناتهم . ولا يعرف فضلهم إلا المثقفون الذين يشعرون بفائدة العلم وأثره .

(١٢) تقوية الصلة بين الأساتذة والتلاميذ :

لما كان العلم والتعليم من الأعمال الاجتماعية الخاصة بالبشر ، لذلك كان وجودها فى الحياة المدنية الحضرية أكثر من وجودها فى الحياة البدوية ؛ لأن كلا منهما تشتد إليه الحاجة كلما استبحر العمران وعظم . ومما يفيد فى الإحاطة بالعلم أن يكون ذلك عن طريق المحاكاة

والتقليد ، والاتصال الشخصي بالعلماء ، فذلك من أنفع الطرق فى تلقى العلوم . أما تعلم العلم عن طريق التلقى والتدريس فى حلقة الدرس أو فى الفصل فقط فذلك أقل فائدة .

ونرى أن ابن خلدون يستهدف من وراء ذلك غاية بعيدة ، تدعو إليها التربية الحديثة ، وهى العمل على تقوية الصلة بين الأساتذة والتلاميذ خارج فصول الدراسة ، حتى تتهيأ الفرص الواسعة للتلاميذ ؛ كى يحتكوا بأساتذتهم عن قرب ، ويتصلوا بهم ، ويتمتعوا بأخلاقهم ، وينقلوا عنهم علومهم وآراءهم وتجاربهم فى الحياة .

وفى اعتقادنا أنه يجب أن تكون هناك صلة روحية قوية بين الأساتذة وتلاميذهم ، هى صلة الآباء بأبنائهم . ولا نخطىء إذا قلنا إن الصلة بين المدرس الخامل والتلميذ لدينا هى الضرب والعقاب ، والقسوة والفظاظة والغلظة ، فالمدرس ينظر إلى تلاميذه نظرة احتقار ، ويتنحى عنهم ، ويعتزلهم ، ظنا منه أنه بمخالطتهم تضيع كرامته ، وتقل سلطته ، ويذهب احترامه . وهو مخطىء فى هذا الظن ، وفى تلك المعاملة .

وإذا أراد المدرس أن ينوب عن الأب فى التربية والتعليم فعليه أن يمثل الأب الكامل فى عدله وصبره ، وحلمه وحبه ، وإخلاصه للجميع ، وأن يكون شفيقا فى عقابه ، يعطف على الغبى والمهمل من التلاميذ حتى يقوم بإصلاحهما .

إن كلمة والد تشمل الأب والأم ، والمدرس فى رأينا ينوب عن الاثنين ، ويحل محلهما ، فهو يمثل سلطة الأب ، وعطف الأم . إنه يمثل الوالدين فى العناية بالطفل وصحته وتربيته ، وحفظه من الشر والأشرار ، وتزويده بالأفكار الصائبة ، والانتفاع بمواهبه ، وجعل حياته المدرسية حياة سعيدة سارة .

ولا يستطيع المربى أن يقوم بهذا التمثيل خير قيام إلا إذا أحب الأطفال ، وحسنت صلته وعلاقته الروحية بهم ، ودرس غرائزهم وطباعهم ، وميولهم ورغباتهم ، وعرف كيف يوحى إليهم ، وكيف يسيطر على نفوسهم ، ويؤثر فيهم ، وشاركهم شعورهم ، وضحى بكل شىء فى سبيلهم (١) .

(١) ارجع إلى كتاب (روح التربية والتعليم) للمؤلف ، صفحة ٢١٢

(١٣) تدريس العلوم باللغة الأصلية :

هذه فكرة جليلة يقررها الإمام العلامة ابن خلدون - رحمه الله - وهى أن تدريس العلوم ينبغى أن يكون باللغة الأصلية ؛ لأن الدرس بلغة أجنبية يعد نصف درس . وإن ما كان يدعو إليه ابن خلدون منذ قرون ندعو إليه اليوم فى قوة ، ونتمنى أن يأتى اليوم الذى تدرس فيه العلوم كلها فى جامعاتنا وكلياتنا على اختلافها باللغة القومية ، وهى اللغة العربية ، لغة القرآن والدين .

وقد يتيسر لنا ذلك إذا عقدنا العزم على نقل جميع المصادر العلمية وغيرها إلى اللغة العربية . وليس ذلك أمرا بدعا ؛ فاللغة العربية التى اتسعت فى الماضى للثقافات الأجنبية من إغريقية وفارسية وهندية - قادرة على أن تستوعب مصادر الثقافات الحديثة كلها من طب وصيدلة وطبيعة وكيمياء وفلسفة واقتصاد ، وحيوان ونبات ؛ لأنها لغة غنية مرنة ، طيعة الأداء . بما فيها من طريق المجاز والاشتقاق والتعريب التى تتيح المترجمين الإمكانيات الضرورية للحصول على المصطلحات العربية الحديثة ، التى تعبر عما يقابلها من المصطلحات الأجنبية . وأعتقد أنه قد أصبح من الضرورى أن تدرس العلوم فى الكليات والجامعات والمعاهد العالية باللغة العربية ، ولا ينبغى أن تقف أى عقبة فى سبيل تحقيق هذه الغاية القومية .

وإننا نرى أن الطلبة يضيعون نصف وقتهم فى إصلاح مذكراتهم التى دونوها ، وكثيرا ما يمكثون مدة طويلة لا يفهمون شيئا من المحاضرات ؛ لأنها باللغة الأجنبية . ولو كان التدريس باللغة العربية لفهموا ما ألقى عليهم ، وانتفعوا بوقتهم ، وارتفع مستواهم العلمى .

وليس معنى هذا أننا ننكر الفوائد التى يجنيها الطالب من إتقان لغة أجنبية ؛ فالطالب الذى يجيد لغة أجنبية كالطلبة الذين يتعلمون فى المدارس الإنجليزية - يمكنه أن يفهم المحاضرات ، ويكتب المذكرات بسهولة ، وبلغة صحيحة ، ولا يضيع من وقته شيئا . أما الطلبة الذين يدرسون لغة أجنبية فى مدارسنا فهم ضعاف فى تلك اللغة ؛ لأن العناية بها قليلة فى المدارس الإعدادية والثانوية . وكثيرا ما يرسبون فى اللغة الأجنبية فى امتحانات النقل

بالمدارس ، ومع ذلك ينقلون من فرقة إلى أخرى . وهذا سبب من أسباب ضعف الطلبة فى اللغة الأجنبية. فكيف ينتظر من طالب ضعيف فى اللغة الإنجليزية أن يفهم محاضرات بهذه اللغة فى التشريح وعلم وظائف الأعضاء والكيمياء الحيوية ، وعلم تشخيص الأمراض ، والعقاقير ، والطب والجراحة ، والصيدلة والهندسة ؟

وفى الوقت الذى نطالب بتدريس جميع المواد باللغة العربية نرى أن يتقن كل طالب لغة أجنبية ؛ حتى يستطيع أن يطلع ويفهم ويقرأ كثيرا من المراجع والمجلات العلمية بتلك اللغة؛ ليكون على صلة دائمة بالآراء الحديثة ، والنظريات الجديدة ، والتجارب الكثيرة ، ويستطيع أن ينمى معلوماته ، ويزود نفسه بكل حديث وجديد فى مادته التى تخصص بها .

إننا لا نحارب دراسة لغة أجنبية ، بل نطالب بإتقانها قراءة وكتابة ومحادثة للاستفادة منها . وفى الوقت نفسه نرى أن تكون الدراسة الجامعية باللغة العربية فى كليات الطب والصيدلة والهندسة وطب الأسنان ؛ حتى ينبغ الطلبة فى دراستهم ، ولا يضيعوا أوقاتهم فى إصلاح مذكرات مملوءة بالأخطاء.

واللغة العربية غنية كل الغنى ـ ولله الحمد ـ ، ومن الممكن التأليف بها فى كل مادة من المواد الدراسية ، وفى كل علم من العلوم . وقد اتسعت لما ترجم إليها من الإغريقية أى اليونانية القديمة ، والفارسية والهندية ، أيام العباسيين . وتتسع اليوم لكل علم وفن . والحمد لله رب العالمين .

فهرس الموضوعات

الصفحة — الموضوع

٣ تمهيد عن التربية الإسلامية

الفصل الأول

٦ التربيةُ عند العرب قبل الإسلام
٦ التربيةُ العربيةُ في العصر الجاهلي
٦ العربُ قسمان : بدوٌ وحضر
٧ التربية في العصر الجاهلي عند عرب البادية
٧ أغراضها
٨ وسائل التربية عند العرب من البدو
٩ كيف كان البدو من العرب يُرَبون أولادهم ؟
٩ الأم الأعرابيةُ توصِي ابنها
١٠ أعرابيةٌ أخرى توصي ابنها

الصفحة — الموضوع

١١ كلام أعرابيٍّ لابن عمه
١١ أعرابي يعظ أخاً له
١١ الأوسُ بن حارثة ينصح لابنه
١٢ معاهد التربية المالية عند البدو في الجاهلية
١٣ المرأةُ العربيةُ البدوية
١٤ حظُّ المرأة العربية البدوية من التربية
١٥ وصيةُ أُمامةَ بنت الحارث لابنتها
١٦ وصية أسماء بنتِ خارجةَ لابنتها
١٨ بلاغة المرأة العربية المسلمة
١٨ التربية عند عرب الحضَر في الجاهلية
١٩ أغراضُ التربية عند عمالقة العراق
١٩ أنواع المدارس والمعاهد
٢٠ الأثر التربوي للعرب

الفصل الثاني : أغراض التربية الإسلامية

٢٢ أغراض التربية الإسلامية
٢٢ التربية الخلقية
٢٣ العناية بالدين والدنيا معاً
٢٣ العناية بالنواحي النفعية
٢٤ دراسة العلم لذاتِ العلم
٢٤ التعليم المهنيُّ والفنيُّ والصناعي للكسب

الفصل الثالث : التربية الإسلامية تربية مثالية

٢٦ التربيةُ الإسلاميةُ تربيةٌ مثاليةٌ
٢٦ الحريةُ و (الديمقراطية) في التعليم
٣٠ التربية الخلُقية أسمَى أغراضِ التربية الإسلامية

الصفحة	الموضوع
٣١	خاطبوا الناسَ على قدر عقولهم
٣٢	التفرقة في طريقة التعليم
٣٢	التربيةُ الإسلاميةُ تربيةٌ استقلالية
٣٣	نظام التعليم الفرديّ في التربية الإسلامية
٣٤	مراعاةُ الاستعدادات الفطرية للمتعلم
٣٦	الولَعُ بالعلم والتفرغ للدراسة
٣٦	العناية بالخطابة والمناظرة وتربية اللسان
٣٧	الرفقُ في معاملة الأطفال
٣٨	نظامُ الجامعاتِ الشعبية مقتبس من التربية الإسلامية
٣٨	العناية بدُور الكتب للتشجيع على البحث
٣٩	وظائف المعيدين مأخوذةٌ من التربية الإسلامية
٤٠	آراء الغزالي تتفق مع التربية الحديثة
٤١	آراء علماء الإسلام تتفق مع آراء علماء النفس اليوم
٤٢	آراء الغزالي وابن الجوزي في الغرائز
٤٢	الغزالي وقوانينُ الوراثة
٤٣	الفروقُ الفرديةُ بين الأطفال
٤٤	التربية الإسلامية وأثرها في النهضة
٤٦	التربيةُ الدينيةُ والواجب نحوها
٤٨	واجبُنا نحوَ التربية الدينية
٥١	مراحلُ تربية الطفل في الإسلام

الفصل الرابع : الإسلام والعلم

الصفحة	الموضوع
٥٣	الإسلامُ يأمرُ بتعميم التعليم
٥٤	الرسول يشجع التعليم بعمله وقوله
٥٥	أقوالٌ في فضل العلم
٥٧	وصيةُ الرشيد إلى مؤدب ولده
٥٩	الإسلام أولُ من دعا إلى محو الأمية
٦٠	لماذا أمر الإسلام بالتعليم ؟
٦٠	ينبغي أن يعمل المعلم بعلمه
٦٢	أثر التعليم
٦٣	تشجيع المسلمين للعلم والتعليم
٦٥	أثرُ الإسلام في نشر العلم والتعليم
٦٥	المأمون يشجع العلم والعلماء وترجمة الكتب الفلسفية
٦٨	نتائجُ الحركة العلمية
٦٩	أثر العلم

الفصل الخامس : أين كان المسلمون يتعلمون ؟

الصفحة	الموضوع
٧٠	التعليم في البيوت
٧١	التعليم في الكتاتيب
٧٥	التعليم في المساجد والجوامع
٧٨	الجامع الأزهر
٨٢	جامع المنصور ببغداد
٨٢	الجامع الأموي بدمشق
٨٣	التعليم في دور الحكمة ودور العلم
٨٣	دار الحكمة بالقاهرة

الفصل السادس : التعليم فى الحلقات والمجتمعات
وبيوت العلماء وقصور الخلفاء

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٨٥	الحلقاتُ العلميةُ فى البيوت والقصور	٨٨	عصر المأمون أزهى العصور
٨٥	فى قصر سيف الدولة	٨٨	البحوث والمناظرات
٨٦	فى قصر المعتضد بالله	٨٩	المنتديات الأدبية فى القصور المصرية
٨٦	فى قصر عبد الملك بن مروان	٩٠	الفاطميون والمنتديات العلمية
٨٨	المنتديات فى قصور الخلفاء		

الفصل السابع : التربية الإسلامية العالية

٩١	التربيةُ الإسلامية العاليةُ	٩٣	المدرسة المستنصريةُ ببغداد
٩١	انتشارُ التعليم فى المساجد والجوامع	٩٤	المدرسةُ الناصريةُ بالقاهرة
٩١	تسابقُ الخلفاء والمسلمين فى إنشاء المدارس	٩٤	المدرسةُ النُّوريةُ الكبرى بدمَشق .
٩٢	المدرسةُ النظامية ببغداد	٩٥	الإسلامُ سبق الغربَ فى نشر التعليم
		٩٥	(الديمقراطيةُ) سائدة فى المعاهد الإسلامية

الفصل الثامن : التعليم فى دور الكتب

٩٦	التعليمُ فى دورِ الكتب والمكتبات	٩٩	(٣) دار العلم لسابورَ
٩٦	خزانة الكتب بالمدرسة الفاضلية	٩٩	(٤) مكتبات المدارس
٩٦	خزانةُ الحكمة بمصر على بن يحيى	٩٩	المكتباتُ التى بين العامة والخاصة
٩٧	المكتباتُ الإسلامية	١٠٠	المكتباتُ الخاصة
٩٧	المكتبات العامّة :	١٠٠	تقديرُ المسلمين للكتب والمكتبات
٩٧	(١) بيت الحكمة ببغداد	١٠١	عناية المأمون بالترجمة
٩٨	(٢) دار الحكمة بالقاهرة	١٠٢	عناية الواثق بالمترجمين

الصفحة	الموضوع
١٠٢	الورّاقون ومنهم ابن النديم وياقوت
١٠٢	أثر حوانيت الوراقين فى الثقافة
١٠٣	حب الاطلاع بين العلماء
١٠٣	قصة العالم والخليفة
١٠٣	كلمة الجاحظ فى تقدير الكتاب
١٠٤	الحضرمىّ أحد علماء الأندلس .
١٠٥	ابن سينا يصف مكتبة فى بخارى
١٠٥	المكتبات بها نسّاخون ومترجمون ومجلدون ومناولون

الفصل التاسع : التعليم فى البادية

الصفحة	الموضوع
١٠٧	التعليم فى البادية
١٠٨	لغة العرب فصيحة حتى صدر الإسلام
١٠٨	نفورُ العرب من اللحن فى العربية
١٠٨	اللحنُ فى المدن لاختلاط العرب بالأعاجم
١٠٨	اللغة الفصحى فى البادية والصحراء
١٠٩	الحلقاتُ العلمية والأدبية بالبادية

الفصل العاشر : التربية والاخلاق فى الاسلام

الصفحة	الموضوع
١١٠	التربية والأخلاق فى الإسلام
١١٠	الغرضُ من التربية الخلقيَّة فى الإسلام
١١١	التربية الإسلامية والأخلاق الفاضلة
١١١	العناية بالتربية الخلقية من الطفولة
١١٢	وسائل التربية الخلقية :
١١٢	(١) الطريقة المباشرة .
١١٣	أعرابية توصي ابنها وهو مسافر
١١٣	(٢) الطريقةُ غير المباشرة
١١٣	(٣) الانتفاع بميول الأطفال فى تربيتهم
١١٤	وصية ابن سينا
١١٥	(٤) تكوين العادات الحسنة فى الأطفال
١١٦	(٥) شركاء المدرسة فى تربية الطفل
١١٧	الفضيلة هى الغرض من التربية الإسلامية
١١٧	تأديب الطفل فى نظر الغزالى
١٢٠	الطفولة أهم مرحلة فى التربية
١٢١	التربية الخلقية مهملة
١٢١	بالعلم والأخلاق نعيد مجد المسلمين

الفصل الحادى عشر الإسلام وتعليم المرأة

الصفحة	الموضوع
١٢٣	الإسلام وتعليم المرأة
١٢٣	الخنساء من النابغات المسلمات
١٢٣	النساء المتعلمات فى صدر الإسلام
١٢٤	الخنساء ترثى أخاها صخراً

الصفحة	الموضوع
١٢٥	السيدة سكينة بنت الحسين
١٢٥	عائشة بنت طلحة
١٢٦	تعليم المرأة فى الإسلام
١٢٦	الرأى الأول : فى تعليم المرأة القرآن والدين .
١٢٧	الرأى الثانى فى تعليم المرأة كل شيء .
١٢٧	النساء المسلمات الشهيرات :
١٢٧	السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد .
١٢٨	علية بنت المهدى الشاعرة
١٢٨	عائشة بنت أحمد بن قادم
١٢٨	ولادة بنت الخليفة المستكفى بالله
١٢٩	لُبنى الكاتبة والشاعرة والعالمة
١٢٩	فضل النابغة فى الشعر النبائى
١٢٩	الطبيبة زينب المتخصصة بأمراض العيون
١٢٩	الطبيبة أم الحسن الشهيرة
١٣٠	امرأة مسلمة تولت القضاء
١٣٠	نساء اشتغلن بالسياسة
١٣٠	أم المؤيد زينب بنت الشعرى
١٣٠	طرفة بنت عبد العزيز بن موسى
١٣٢	موازنة بين المسلمة والمسيحية فى القرون الوسطى

الفصل الثانى عشر : المعلم والتلميذ فى الإسلام

الصفحة	الموضوع
١٣٥	المعلم والتلميذ فى الإسلام
١٣٥	المعلم أب روحى للمتعلم .
١٣٥	فى العصور الوسطى كان الأستاذ فى معاهد الغرب يعامَل بكل قسوة
١٣٦	الصفات التى يجب أن تتوافر فى المعلم :
١٣٦	الزهد والتعليم ابتغاء مرضاة الله
١٣٦	طهارة المعلم
١٣٧	الإخلاص فى العمل
١٣٧	الحلم
١٣٧	الهيبة والوقار
١٣٧	يجب أن يكون المدرس أباً قبل التدريس
١٣٨	يجب أن يكون عالما بطبائع الأطفال
١٣٨	يجب أن يتمكن من مادته
١٣٨	الحجاج معلم أطفال
١٣٨	إرشادات المعلم الأوّلىّ
١٣٩	آداب معلم الصبيان
١٣٩	المؤدب أو المدرس الخاص
١٤٠	وصية عبد الملك لمؤدب أولاده
١٤١	وصية عمرو بن عُتبة لمؤدب ولده
١٤٢	ما قاله هشام بن عبد الملك لمؤدب ابنه

الصفحة	الموضوع
١٤٣	حقوق الطلبة وواجباتهم فى التربية الإسلامية .
١٤٤	ماقيل عن العالم والمتعلم
١٤٤	الخلق الكامل أفضلُ من العلم
١٤٤	تقديسُ العلم والعلماء
١٤٥	تقويةُ الروابطِ والمحبة بين العلماء والمعلمين
١٤٥	واجبات المعلم فى نظر الغزالى
١٤٦	الصفات التى يجب أن يتحلى بها الطالب

الفصل الثالث عشر : العقوبة فى نظر علماء الإسلام

١٥٠ العقوبةُ فى نظر عُلماء الإسلام
١٥٠ الغرضُ من العقوبة فى التربية الإسلامية
١٥٠ شروطُ العقوبةِ البدنيةِ
١٥١ العقوبة فى نظر الغزالى
١٥٣ العقوبة فى نَظر العبدرِى
١٥٣ ابن خلدون والعقوبة
١٥٤ نحن والعقوبة المدرسية
١٥٥ يجب ألا يمسَّ نوعُ العقوبة كرامةَ الطفل
١٥٥ الظلم الذى قاساه الأطفالُ
١٥٦ الضرب ليس بوسيلةٍ للإصلاح

الفصل الرابع عشر المبادىء الأساسية فى مناهج التربية الإسلامية

١٥٧ المبادىء الأساسية فى مناهج التربية الإسلامية
١٥٧ رأى أم عربية مسلمة فى تربية الطفل
١٥٧ منهاج عمر بن الخطاب فى تعليم الأولاد
١٥٨ رأى ابن سينا فى تربية الأولاد
١٥٩ منهاج مفصل للجاحظ
١٥٩ منهج المرحلة الأولى من التعليم الإسلامى
١٦٠ بماذا يمتاز المنهج فى المرحلة الأولى ؟
١٦٢ كيف كان منهج التربية فى المرحلة العالية ؟
١٦٢ المنهج الدينى الأدبى فى المرحلة العالية
١٦٤ المنهج العلمى الأدبى فى المرحلة العالية
١٦٥ أثر علماء الإسلام فى النهضة العلمية
١٦٦ مميزات المنهج العلمى الأدبى
١٦٦ رأى الأستاذ (براون) فى الطب العربى

الصفحة	الموضوع
١٦٦	ما يستنبط من مناهج المرحلة العالية في التربية
١٦٧	المواد الدراسية في المدارس الإسلامية
١٦٧	الأمة الإسلامية أحيت العلوم والفنون

الفصل الخامس عشر

المبادئ التي روعيت في التربية الإسلامية عند اختيار المناهج الدراسية

الصفحة	الموضوع
١٦٩	المبادئ التي روعيت عند اختيار المناهج
١٧٠	المثل العالي للمنهج في عصر الغزالي
١٧١	رأي إخوان الصفاء في منهج التربية الإسلامية
١٧٢	دراسة المواد لفائدتها العملية
١٧٣	دراسة العلم لما فيه من لذة
١٧٤	التربية الإسلامية مثالية
١٧٥	التعليم المهني والفني والصناعي لكسب الرزق
١٧٥	عناية المسلمين بالخط .
١٧٦	العلم للعلم ومرضاة الله
١٧٦	العلم يدرس لذاته
١٧٧	دراسة بعض المواد وسيلة لدراسة غيرها .
١٧٨	المدرس والمنهاج في نظرنا
١٧٩	الإسلام يشجع التعليم الفني والصناعي
١٨٠	الصلة بين العلم والعمل
١٨١	من الخطأ الاعتماد على غيرنا في حل مسائلنا الفنية والصناعية
١٨٢	تدوين العلوم باللغة العربية
١٨٣	التأليف العلمي
١٨٥	نشر الكتب العلمية التي وضعها العرب .
١٨٦	التربية العسكرية في الإسلام

الفصل السادس عشر

القواعد الأساسية في التربية الإسلامية

الصفحة	الموضوع
١٨٧	القواعد الأساسية في التربية الإسلامية :
١٨٧	عدم تحديد السن لبدء التعليم
١٨٨	عدم تحديد المدة للطفل في الكتاب
١٨٨	التفرقة في الطريقة المتبعة في التعليم
١٨٨	لم يخلط المعلم علمين معاً
١٨٩	العناية بالأمثلة المحسة .

الصفحة	الموضوع
١٨٩	مراعاةُ ميولِ الأطفالِ لبعضِ المواد
١٩٠	البدء بتعليمِ اللغة العربية ثم دراسة القرآنِ
١٩٠	مراعاةُ استعداداتِ الصبيِّ الفِطرية
١٩٣	اللعبُ والترويحُ عن النفس
١٩٤	تربيةُ الحواسِّ
١٩٥	ماورَدَ فى القرآنِ عن تربية الحواسِّ

الفصل السابع عشر : الطرقُ العامةُ فى التدريس

الصفحة	الموضوع
١٩٦	الطرقُ العامةُ فى التدريس
١٩٦	طريقة دراسةِ القرآن الكريم
١٩٨	تدريسُ الشِّعر للأطفال
١٩٨	التدريسُ فى المراحلِ العالية :
١٩٨	الّلحاقُ بالمعاهد العالية بدونِ قيودٍ أو شروط
١٩٩	الرحيلُ فى سبيلِ طلبِ العلم
٢٠١	حريةُ الطلابِ والأساتذة
٢٠١	تنوعُ أساليبِ التدريس فى المعاهد العالية
٢٠٢	طريقةُ المحاضرات
٢٠٣	رأى ابن خلدون فيها
٢٠٤	طريقة المناظرة
٢٠٧	طريقة التعليمِ فَرديّة
٢٠٧	التعليم بالحفظ والاستظهار
٢١٠	الامتحانات

الفصل الثامن عشر : فلاسفة التربية فى الإسلام

ابن سينا الطبيبِ العالم النفسى والفيلسوف المربى

الصفحة	الموضوع
٢١١	فلاسفة التربية الإسلامية
٢١١	ابن سينا الطبيب العالم والمربى
٢١١	نشأته وحياته
٢١٢	دراسته
٢١٣	صلاته بعلماء عصره
٢١٤	طريقته فى تحصيل العلم
٢١٤	آراؤه فى التربية
٢١٤	المنهج الأولى للتربية الإسلامية
٢١٩	التربية لكسب العيش فى نظره
٢٢٠	الصفات التى يجبُ أن يتحلَّى بها المدرسُ
٢٢٣	عناية ابن سيناً بالتربية الخلقية
٢٢٥	اختيارُ الصِّبيَةِ المرضيَّةِ أخلاقهم
٢٢٦	ابن سينا يحادثُ الصِّبيانَ

الصفحة	الموضوع
٢٢٦	معاملةُ الأطفال ومراعاةُ مقدرتهم فى نظرِ الغزالى .
٢٢٨	العقابُ فى نظرِ ابن سينا .
٢٣٠	معاقبةُ كل تلميذ بما يناسبه
٢٣١	ابن سينا والتحليلُ النفسىُّ
٢٣١	المصاب بالمنا خوليا
٢٣٣	الأميرُ المريض بالحبِّ
٢٣٣	أثر ابن سينا فى الثقافة والتأليف
٢٣٥	مؤلفات ابن سينا
٢٣٦	ابن سينا فى أيامه الأخيرة

الفصل التاسع عشر : الإمام الغزالى وآراؤه فى التربية

الصفحة	الموضوع
٢٣٧	الإمام الغزالى ومولده
٢٣٧	نشأته
٢٣٨	مؤلفاته
٢٣٨	آراؤه فى التربية والتعليم
٢٣٨	الغرَض من التربية فى نظره
٢٣٩	العلم لذاتِ العلم
٢٤٠	التربية الإسلامية تجمع بين الدين والدنيا
٢٤٠	رأيُه فى فضل العِلم والتعليم والتعلم
٢٤٠	فضيلةُ العِلم
٢٤٢	فضيلة التعلم وطلب العلم
٢٤٣	مهنةُ التعليم والإرشادِ
٢٤٦	فى التعليم والتعلم
٢٤٧	آدابُ المتعلم فى رأى الغزالى
٢٤٨	واجبُ المعلم المرشِد
٢٥١	يجب أن نخاطب الأطفال باللغة التى يفهمونها
٢٥٢	يجب أن يعملَ المعلم بعلمه
٢٥٣	يجب أن يتحلى المدرس بالصبر والتواضع وحُسنِ الخُلق
٢٥٤	آراؤهُ فى تربية الأطفال وتهذيب أخلاقِهم :
٢٥٤	التربية أهم الأمور
٢٥٥	المدرسة أعدت لتربية الأطفال
٢٥٥	كل مولود يولد على الفطرة
٢٥٧	صيانةُ الطفل من قُرناء السوء
٢٥٩	المواد الدراسية فى نَظر الغزالى
٢٦٠	آراؤهُ فى التربية الخلقية :
٢٦٠	تشجيع الأطفال على الأخلاق الكريمة
٢٦٠	استعمال اللوم والتوبيخ بحكمة

الصفحة	الموضوع
٢٦١	منعُ الطفل من فعل الشيء خِفية
٢٦٢	كيف يعامل أقرانه ؟
٢٦٣	الزهد والرفعة فى الإعطاء لا الأخذ
٢٦٥	الآداب العامة فى نظر الغزالى
٢٦٦	الصبرُ إذا ضربه المعلم
٢٦٦	إطاعةُ أمه وأبيه ومعلمه ومؤدِّبه
٢٦٧	تربيتُه تربيةً دينيةً علميةً عمليةً
٢٦٨	آراؤه فى التربية الجسمية :
٢٦٨	المنعُ من النوم نهاراً ومن التنعم
٢٦٩	العناية بالرياضة البدنية
٢٧٠	اللعب الجميلُ
٢٧١	آدابُ الأكل فى نظر الغزالى .
٢٧٢	رأيُه فى ملابس الصبى

الفصل العشرون : عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون

الصفحة	الموضوع
٢٧٣	آراؤه فى التربية
٢٧٣	حياته
٢٧٦	أخلاقُه
٢٧٦	إنتاجُه الفكريُّ
٢٧٦	مجهودُه الفكريُّ فى التربية الإسلامية
٢٧٧	أغراضُ التربية الإسلامية فى نظر ابن خلدون
٢٧٧	الغرضُ الدينيُّ
٢٧٧	الغرضُ العلمى الدنيَوىُّ
٢٧٨	مناهج التربية الإسلامية
٢٧٨	المنهجُ الابتدائىّ
٢٧٩	نقدُ ابن خلدون لهذا المنهج
٢٨٠	المنهجُ العالى
٢٨٢	آراؤه فى التربيةِ وطرُقها
٢٨٢	ضرورةُ إلمام المربِّى بفنِّ التربية
٢٨٤	الإجمال فى البدء ثم التفصيل
٢٨٥	الانتفاعُ بوسائل الإيضاح والرحلات
٢٨٦	ألا يؤتى بالغاياتِ فى البداياتِ
٢٨٦	ضرورةُ الاتصال فى مجالس العلم
٢٨٧	عدمُ الخلط بين علمين فى وقت واحد
٢٨٧	ألا يُبدأ بتدريس القرآنِ إلا مع فهمه
٢٨٨	تجنبُ المختصراتِ فى التعليم
٢٨٩	عدم المطالبةِ باستيعابِ كل علم
٢٩٠	استعمالُ الشفقة فى معاملة الأطفال
٢٩١	تركُ الاستبداد فى التربية والتهذيب
٢٩٤	القدوةُ الحسنةُ
٢٩٥	تقويةُ الصلةِ بين المدرس والتلميذ
٢٩٧	تدريس العلوم باللغة الأصلية
٢٩٩	فهرس الكتاب والموضوعات

كتب أخرى للمؤلف

(١) روح الإسلام ، بمكتبة عيسى البابى الحلبى بسيدنا الحسين ، بالقاهرة .

(٢) عظمة الإسلام جـ ١ بمكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد بالقاهرة

(٣) عظمة الإسلام جـ ٢ « « ١٦٥ « « «

(٤) عظمة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، بمكتبة عيسى الحلبى بسيدنا الحسين بالقاهرة .

(٥) التربية الإسلامية وفلاسفتها ، بمكتبة عيسى البابى الحلبى بسيدنا الحسين بالقاهرة .

(٦) روح التربية والتعليم « « « « « «

(٧) الاتجاهات الحديثة فى التربية « « « « «

(٨) الطرق الخاصة فى التربية لتدريس اللغة العربية والدين .

بمكتبة الأنجلو المصرية بشارع محمد فريد بالقاهرة .

(٩) الطفولة صانعة المستقبل ، أو كيف نربى أطفالنا ؟

بمكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة .

(١٠) العلم شعار الثورة الثقافية ، بمكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة .

(١١) أصول التربية المثالية فى إميل لجان جاك روسو ، بمكتبة عيسى الحلبى بالقاهرة .

(١٢) جان جاك روسو ، وآراؤه فى الإصلاح الاجتماعى « « « «

(١٣) علم النفس التربوى ، فى ثلاثة أجزاء بالاشتراك ، بمكتبة عيسى الحلبى بالقاهرة .

(١٤) الشخصية ، الطبعة التاسعة بدار المعارف ، بشارع كورنيش النيل (مسبيرو) «

(١٥) أصول التربية وقواعد التدريس ، بمكتبة مصر بالفجالة «

(١٦) لغة العرب وكيف ننهض بها ، بمكتبة النهضة المصرية . بشارع عدلى «

(١٧) التربية والحياة . (نفد) .

(١٨) علم النفس للجميع (تحت الطبع)

(١٩) مشكلة التعليم الأولى بمصر (نقد) .

(٢٠) من وحى الثورة . العربى ، بالقاهرة .

(٢١) قصص إنسانية لشارلز دكنز (نقد)

(٢٢) المفصل فى اللغة السريانية وآدابها ، طبعة وزارة التربية (نقد)

(٢٣) الأساس فى اللغة العبرية ، بالاشتراك « « «

(٢٤) الآداب السامية (نقد) .

(٢٥) أبطال الشرق ، بلجنة البيان العربى بشارع أمين سامى بالمنيرة ، بالقاهرة .

(٢٦) مشكلاتنا الاجتماعية « « « « « « «

(٢٧) قصص العظماء بدار المعارف «

(٢٨) قصص فى البطولة والوطنية « « «

(٢٩) أروع القصص لشارلز دكنز « « «

(٣٠) قصص من الحياة « « « « «

(٣١) المكتبة الحديثة للأطفال ، ٦٠ كتاباً « « «

(٣٢) المكتبة الخضراء ٩ كتب « « «

(٣٣) مكتبة الطفل ، ١٠٠ كتاب ، بمكتبة مصر ، بشارع كامل صدقى بالفجالة «

(٣٤) المكتبة الذهبية من أدب الأطفال ١٥ كتاباً ، بمكتبة الأنجلو المصرية «

(٣٥) مكتبة التلميذ ، ١٠ كتب ، بمكتبة النهضة المصرية «

(٣٦) نظام التربية والتعليم بانجلترا (نقد)

(٣٧) الموجز فى الطرق التربوية لتدريس اللغة القومية ، بالاشتراك . بدار نهضة مصر

(٣٨) أحسن القصص ، فى ثلاثة أجزاء ، بالاشتراك (نقد)

(٣٩) أعلام الثقافة العربية ونوابغ الفكر الإسلامى :

سيبويه ، وابن سينا ، وياقوت الحموى ، بالاشتراك . بدار نهضة مصر بالفجالة

(٤٠) أعلام الثقافة العربية ونوابغ الفكر الإسلامى :
الجاحظ ، ابن الهيثم ، الفارابى ، ابن خلدون . بالاشتراك . بدار نهضة مصر بالفجالة
(٤١) أعلام الثقافة العربية ؛ ونوابغ الفكر الإسلامى :
جابر بن حيان، القاضى الجرجانى، أبو الريحان البيرونى ، بالاشتراك. بدار نهضة مصر
(٤٢) البطولة المصرية فى سيناء وبور سعيد بالاشتراك بمكتبة مصر بالفجالة بالقاهرة .
(٤٣) أبطالنا الفدائيون « « « « « « «
(٤٤) قصص علمية مبسطه للأطفال « « «
(٤٥) المكتبة الزرقاء للأطفال : ٦٠ كتاباً « « «
(٤٦) قصص دينية للأطفال: قصة المصطفى صلى الله عليه وسلم « « «
(٤٧) « « « : قصة عمر بن الخطاب : ثلاثة أجزاء « « «
(٤٨) سلسلة العظماء : خالد بن الوليد، مكتبة الأنجلو المصرية بشارع محمد فريد «
(٤٩) سلسلة العظماء : صلاح الدين الأيوبى « « « « « «
(٥٠) محمد فريد. « « «
(٥١) كتب مدرسية متنوعة ، بدار المعارف (مسبيرو) القاهرة .
(٥٢) مكتبة الطفل الدينية: قصص من حياة أعظم الرسل: ٣٠ كتاباً بمكتبة مصر بالفجالة.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٩٦ / ١٩٧٦

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]